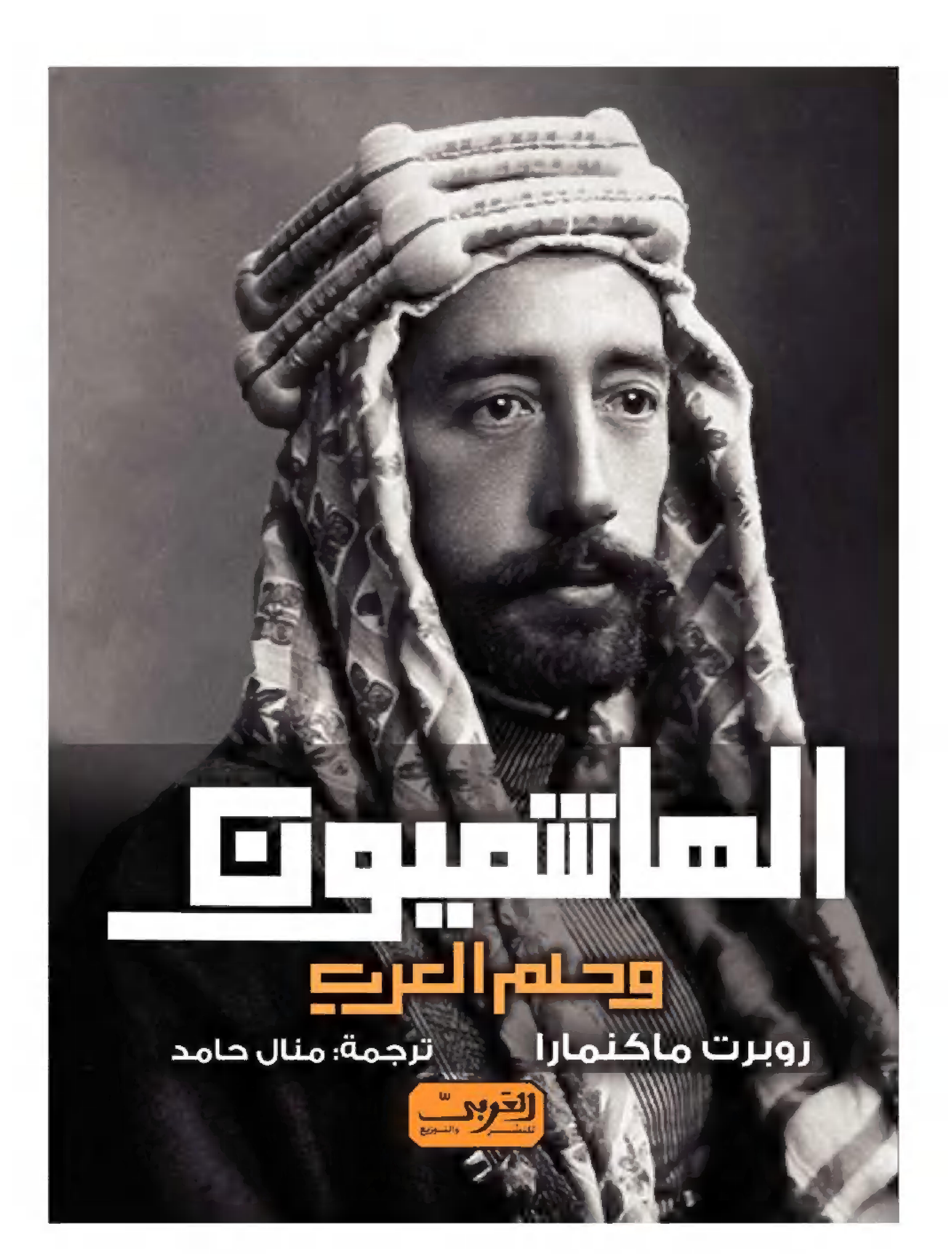


الهاشميون
وحلم العرب
روبرت ماكنمارا
ترجمة: منال حامد
العربي للنشر والتوزيع



الهاشميون

وحلم العرب

الهاشميون

وحلم العرب

تأليف: روبرت ماكنمارا

ترجمة: منال حامد

تحرير: هدى فضل المولى

مراجعة لغوية: محمد حامد

الغلاف: خالد شريف

الطبعة الأولى: 2016

رقم الإيداع: 2016/19578

الترقيم الدولي: 9789773193072



60شارع القصرالعيني - 11451 - القاهرة

ت 27921943 - 27954529 فاكس 27947566

www.alarabipublishing.com.eg

First Published in English as *The Hashemite: The Dream of Arabia* by Haus Publishing Ltd.
London

روبرت ماكنمارا

الهاشميون

وحلم العرب

ترجمة: منال حامد





تمت ترجمة هذا الكتاب بمساعدة صندوق منحة الترجمة
المقدمة من معرض الشارقة الدولي للكتاب

This book has been translated with the assistance
of the Sharjah International Book Pair Translation
Grant Fund

بطاقة فهرسة

ماكنمارا، روبرت

الهاشميون وحلم العرب: كتاب من مقدونيا/ تأليف: روبرت ماكنمارا، ترجمة: منال حامد.

- القاهرة: العربي للنشر والتوزيع، 2016،

ص؛ سم.

تدمك 9789773193072

1- القصص الإنجليزية

أ- حامد، منال (مترجم)

ب- العنوان 823

تمهيد

يمكن للمرء أن يرى صورتين مدهشتين للأمير "فيصل"، الذي دُعي لمؤتمر السلام المنعقد في "باريس": الأولى نلمحها في البورتريه الجماعي للرسَّام الشهير "ويليام أوربن"، "مؤتمر السلام في شارع كيه دورساي" "Peace Conference in Quai d'Orsay". كان هو الثالث من جهة اليسار، ملابسه العربية متناقضة بشدة مع البدلات غربية الطراز التي يرتديها كل من حوله من رجال الوفود الغربية المجتمعين في المؤتمر. أمَّا الصورة الأخرى الشهيرة للأمير "فيصل" فنراه وهو يقف أمام وفد منطقة الحجاز، ووجهه تبدو عليه أمارات الحزن البالغ والكآبة الشديدة كما لو أنه أدرك أن مهمته شاقة – إن لم تكن مستحيلة - التي كُلِّفَ بها في "باريس". وبالنسبة للأمير "فيصل" - ممثل الدولة الصحراوية الصغرى أو منطقة الحجاز - فإنه كذلك يرمز للطموحات والتطلعات القومية العربية، وعلاوة على هذا فإنه ينوب عن والده الملك "حسين"، شريف مكة السابق، وعن طموحاته. ومع حلول عام 1916 نصَّب نفسه "ملك العرب"، وهو اللقب الذي بقي دون أن يعترف به أي شخص، خاصة أن كلًّا من البريطانيين والفرنسيين اعتبروه ملكًا للحجاز فقط.

ومن الغريب أن الملك "حسين" اختار أن يرسل الأمير "فيصل" في تلك المهمة بدلًا من الذهاب لـ"باريس" بنفسه، وأقرب الأسباب التي تفسر هذا الأمر هو أن الملك "حسين" الآن في أواخر الستينات من عمره وتصادفه مشكلات في

السيطرة علي منطقة الحجاز وحمايتها من المنافسين مثـل "آل سـعود" في منطقـة شـبه الجزيرة العربية، والأهم من هـذا أن الملـك "حسـين" - وربمـا نظـرًا إلى عمـره وللكسـل والتراخي - جعل زمام القيادة العسكرية للثورة العربية في يد ابنـه الأكـثر نشـاطًا وهـو الأمير "فيصل" والذي – وربما من دواعي السخرية - يبدو أكثرهم تشككًا بشـأن مشروع محاربة الأتراك.

ومن الواضح أيضًا أن البريطانيين، وخاصةً ضابط الاتصال والوسيط المنسّق "لورنس إدوارد توماس" والمعروف فيما بعد باسم "لورانس العرب" لم يثق كثـيرًا بقـدرات الملـك "حسـين" ولم يحب على وجه الخصوص قدرته الواضحة علي الخداع والتنمر.

يبدو الأمير "فيصل" كبيرًا في السن في تلك الصور، وربما يفوق شكله سـنوات عمـره الاثنتين والثلاثين بمراحل، حيث أمضى فترة طفولته في القسـطنطينية المدنيـة والعالميـة في مطلع القرن العشرين، بينما اعتبارًا من عام 1909 نجد أنه عاش في الحجاز، فلطالما شجّع الأب أولاده على العيش بتقشف وخشونة مثلما هي حياة أغلب البـدو. سرعـان ما خلّف الصراع الشرس للثورة العربية أثره الحتمي عليه، وبما أن الأمير "فيصل" رجـل عملي ودائب الحركة، فإن الرسّام "ويليام أوربن" صادف صعوبة بالغة في رسـمه؛ لأنـه كان ينهض من مكانه ويتجه للرسّام كـل حـين وآخـر لـيرى كيـف صـارت الصـورة[1]. ومثله مثل العديد من العرب في هذا الوقت كـان يـدخّن بشراهـة، ولا يتنـاول سـوي القليل من الطعام. وبدا حقًّا أنـه لا يحبـذ تنـاول الطعـام الأوروبي الرسـمي، مفضـلًا

(1) William Orpen, An Onlooker in France 1917–1919 (Williams & Norgate, London: 1924) p 105.

احتساء القهوة وتدخين السجائر وهو نظام غير صحي أسهم بشدة في وفاته المبكرة في السابعة والأربعين عام 1933[2].

في وقت انعقاد مؤتمر السلام في "باريس" فضّل هويته العربية ورفض ارتداء الملابس الأوروبية، وبهذا الخصوص تبدو كلمات الدبلوماسي الأميركي والصحفي "ستيفن بونسال" التي وصف بها غرفة الأمير التي تقع في فندق صغير وخاص في "باريس"، قال: "تحوّلت الغرفة إلى شيء أشبه بالخيمة البدوية. بدا الأمير وهو يرتدي عمامته الأنيقة ومعطفه الموشى بالذهب الجميل وسيفه العربي المعقوف البادي للعيان ومسدسه المرصع بالجواهر- الذي لم يبذل جهدًا في إخفائه - دون أي شك جعله كل هذا يبدو وكأنه ابن "مارس" - إله الحرب عند اليونان - ولكنه بالنسخة الشرقية بالطبع"[3]. لاحقًا حينما نُصّب الأمير "فيصل" ملكًا على "العراق" ترك لباسه التقليدي وفضّل عليه الملابس الباهظة الثمن والعصرية ليواكب العصر ويبرز حداثته.

قبل رحيله لأوروبا أسَرَّ الأمير "فيصل" للقائد العام البريطاني في الشرق الأوسط الجنرال "اللنبي" أنّه يشعر بالتوتر والعصبية بسبب اتفاقية السلام، ولكن "اللنبي" أكد له بوجوب "الثقة بقوات التحالف وعدلها معه"[4]، ولكن الأمير "فيصل" امتلك الكثير من الدلالات على وجوب التشكك في تلك الوعود لأنه

(2) See for instance Gertrude Bell to her father 31 July 1921. Her correspondence can be read at www.gerty.ncl.ac.uk

(3) Stephen Bonsal. Suitors and Suppliants: The Little Nations at Versailles. (Prentice-Hall, Inc, New York: 1946) p 50.

(4) David Fromkin, A Peace to End All Peace: The Fall of the Ottoman Empire and the Creation of the Modern Middle East (Phoenix, London: 2000.) p 346.

كان يدرك تمامًا بوجود العديد من التناقضات في تلك الوعود التي قُدمت أثناء الحرب، وخاصة من البريطانيين، مثل المراسلات بين والده والمفوّض السامي البريطاني في "مصر"، حيث وعدت "بريطانيا" باستقلال العرب في الشرق الأوسط، ولكن تلك التعهدات نقضتها اتفاقية "سايكس بيكو" التي أفردت الحديث عن مناطق ودوائر النفوذ في المنطقة لكل من "فرنسا" و"إنجلترا" فقط، وأدرك ببصيرته أن الحكومة البريطانية اعتبرت دور الأسرة الملكية الهاشمية في مؤتمر السلام ليس مجرد دور رمزي أو تمثيلي للقضية العربية، بل أيضًا هم أداة لإبعاد النفوذ الفرنسي عن المناطق الهامة في الشرق الأوسط وهي المناطق نفسها التي رغب البريطانيون في السيطرة عليها. وهنا يمكن إدراك أن ربط "بريطانيا" مع تيار القومية العربية في عصر مبدأ "حق تقرير المصير" الجديد الذي بشّر به رئيس الولايات المتحدة "وودرو ويلسون"، أتاح الفرصة لدعم النفوذ البريطاني في الشرق الأوسط، فأي دولة عربية مستقلة ستخرج من مؤتمر السلام ستخضع دون شك للنفوذ البريطاني وتقع تحت وصاية "بريطانيا" لعدة سنوات، وهنا يسهل إدارتها أكثر مما لو اضطُر الإنجليز للتعامل مع الفرنسيين، وحقًّا فإن العداء الفرنسي للقومية العربية ربما يسمم العلاقات البريطانية مع العرب أيضًا. بدا من الواضح إذن أن الأمير "فيصل" كان دونما أدنى شك يدرك تمامًا تلك الاستراتيجية ومحتمل أنه آمن بأنها فرصته الوحيدة لإحراز النجاح في المؤتمر.

فهم الفرنسيون تلك النيات التي تكمن وراء الاستراتيجية التي انتهجتها إنجلترا منذ البداية، فسمموا آذان الجميع حول الأمير "فيصل"، وادّعوا أنه رجل مغامر لا يهتم أبدًا بالعالم العربي وأنه "تمت رشوته من الإنجليز مغتصبي الأراضي -

ومؤسسي الشركات التي يقومون بتأجيرها لاحقًا، ويستولون علي أراضي العرب ويمتصون دماءهم تحت ستار الدين مثلما فعلوا مع العالم بأسره"[5].

في اللوحة نفسها التي تجمع وفد الحجاز، كان الشخص البارز الآخر البعيد عن الأمير "فيصل" هو الرجل صغير الحجم والمدعو "لورانس إدوارد توماس" أو "لورانس العرب"، غالبًا هو أكثر الأشخاص تأثيرًا في حياة الأمير "فيصل"، فهو الذي تعرَّف عليه، وقام بتزكيته بوصفه هو من دفع الثورة العربية قدمًا حال ركودها لشهور بعد اندلاعها في شهر يونيو عام 1916؛ حيث إن "لورانس" هو من أقنع الأمير "فيصل" باتباع استراتيجية الانفصال عن منطقة الحجاز والاتجاه لـ"سوريا" وتلك الاستراتيجية أكدت على تقدُّم القوات العربية غير النظامية خطوة بخطوة مع القوات الإنجليزية نحو دمشق عام 1918. في الواقع "لورانس" هو من أدار مشروع تحرير دمشق باستخدام قوات الأمير "فيصل" غير النظامية، فضلًا عن القوات الإمبريالية البريطانية التي ضمنت صوت العرب المسموع في مؤتمر السلام وأحبطت الآمال الفرنسية في احتلال المدينة.

لاحقًا في نوفمبر عام 1918، أقنع "لورانس" الحكومة البريطانية أن الأمير "فيصل" هو أفضل شخص مؤهل لتمثيل المصالح العربية في "باريس". ومثلما أخبر الملك "حسين" في الثامن من نوفمبر عام 1918: "آمل أن ترسل الأمير "فيصل" بما أن انتصاراته الرائعة أمَّنت له سمعة شخصية جيدة في أوروبا مما سيجعل نجاحه أيسر"[6]. هذا القرار إلى أدَّى إلى حدوث فجوة بالغة بين الأمير "فيصل" والملك حسين؛ لأن الأخير شعر بأن الأمير "فيصل" اغتصب سلطته

(5) Bonsal, Suitors and Suppliants, p 52.

(6) Jeremy Wilson, Lawrence of Arabia: The Authorized Biography of T.E. Lawrence (Atheneum, New York: 1990) p 581.

ومصالحه لصالح توسعاته الخاصة. ولا يبدو أن هناك أي شك في أن الأمير "فيصل" بحلول وقت انعقاد مؤتمر السلام بدأ في الشعور بالضيق من تعنت والده ومن تقييمه غير الواقعي لسلطته الفعلية ونفوذه، وهذا الأمر مرده جزئيًا لتأثير "لورانس"، الذي تصرّف بوصفه ناصح الأمير "فيصل" ومستشاره السياسي وأمين سره أو المقرب إليه في المؤتمر.

وعلي أي حال، فإن القليل من الوفود التي حضرت المؤتمر صادفتها مهام صعبة مثل مهمة الأمير "فيصل" والذي بدا أنه سيواجه معارضة ومكائد من الفرنسيين ومن والده في الوقت ذاته.

حيث إن آمال الأمير "فيصل" وأحلام تيار القومية العربية وطموحات الأسرة الهاشمية الملكية ارتكزت على أمرين أساسيين بالغي الهشاشة؛ أحدهما هو أن "بريطانيا" مستعدة للمخاطرة بتحالفها مع "فرنسا" لدعم الأهداف العربية بسبب أنها تتناغم مع أفكارها الخاصة بشأن الشرق الأوسط. والأمر الثاني هو أن المبدأ القومي لـ"حق تقرير المصير" الذي اعتمده وتبنّاه الرئيس "ويلسون" يمكن أن يتعدى حدود قارة أوروبا ويصل لمنطقة الشرق الأوسط.

مقدمة

صناعة السلام في الشرق الأوسط

الهاشميون: منتصرون أم ضحايا؟

هذا الكتاب يقع في سلسلة كتب "صنّاع العالم الحديث" الذي يناقش عملية السلام في الشرق الأوسط بعد الحرب العالمية الأولى ويركّز أساسًا على العلاقة بين الأسرة الهاشمية التي صارت رائدة تيار القومية العربية ـ بمحض الصدفة تقريبًا، وعلى قوّات التحالف. وهي قصة الخيانة المزعومة للوعود والأطماع والفشل والتبدل غير العادي في حظ قائد الأسرة الهاشمية الملكية الشريف حسين، أمير مكة، وأسرته. بحلول عام 1922، ونتيجة لاتفاقية السلام، صار "فيصل"، أحد أبناء الأمير، ملك البلاد الجديدة التي تأسست بـ"العراق"، وابن آخر يُدعى "عبد الله"، وهو أمير إمارة "شرق الأردن"، و"حسين" نفسه كان ملك الحجاز (وهي المنطقة التي تشكل الآن جزءًا من شمال غربي "المملكة العربية السعودية"). أمّا كل من "العراق" وإمارة "شرق الأردن" فقد وقعتا تحت الانتداب البريطاني ولم تكن أي منهما دولة مستقلة في ذاك الوقت، وبسط المستشارون الإنجليز وصايتهم عليهما وسيطرتهم، ومع هذا فإن أبناء عاهل

عربي عادي أو ليس بكبير الشأن حكموا البلدين وكل بلدة منهما حجمها ومساحتها أضعاف مساحة "بريطانيا" نفسها ما ضمن الاستقلال الحتمي وحقًا نجد أن "العراق" وجب أن ينتظر فقط حتى عام 1932 لتحقيق هذا الأمر.

ولذا فإن قصة الأسرة الهاشمية مثلما يتخيل المرء يجب أن تُدون على أنها قصة نجاح، ولكن الواقع عكس هذا تمامًا، بسبب مصير الملك "حسين" نفسه، ومصير مملكته في الحجاز والتي خشي فعلًا وعن حق أنها لن تبقى إلا إذا شكلت جزءًا من الكيان العربي الأوسع الذي أزالته أسرة "آل سعود" من على الخريطة الخاصة بشبه الجزيرة العربية وهي الأسرة المعادية له عام 1924 - 1925. أمضى الملك "حسين" بقية حياته في منفى أليم في "قبرص" بعيدًا عن قيادة العالم العربي. وبسبب مناصرة المدير الاستعماري الأسبق "أنطونيوس" "جورج أنطونيوس" الكبيرة، ترددت أصداء شكاوى "حسين" حتى بعد مماته. ولا نقرأ في كتاب "أنطونيوس" الهام "الصحوة العربية" (1938) قصة عن النصر والبطولة، بل عن الخيانة وإنكار الحقوق العربية وحقوق الأسرة الهاشمية، ونرى "أنطونيوس" يصف "حسين" وتصديقه لقوات التحالف التي لم توفِ بما عاهدت عليه خلال الحرب مقابل الثورة العربية ضد الأتراك، أي قيادة الأسرة الهاشمية في المملكة العربية المترامية الأطراف التي استوعبت دولًا جديدة مثل "العراق" و"سوريا" و"فلسطين" و"الأردن"، وأيضًا "الحجاز". ومزاعم "حسين" بالخيانة بسبب رسائله مع السير "مكماهون" "هنري مكماهون" الممثل الأعلى لـ"بريطانيا" في "مصر" في الفترة ما بين عامي 1915 و1916. بالتأكيد هناك تضارب وتناقض بين الوعود وتفسير فحوى رسائل "مكماهون" للشريف "حسين" حينما يقارنها المرء مع اتفاقية "سايكس

بيكو" السرية المبرمة بين "بريطانيا" و"فرنسا" ووعد بلفور عام 1917 واتفاقية السلام الحتمية في الشرق الأوسط. فالرأي التاريخي الآن أجمع على الادعاءات الخاصة بالأسرة الهاشمية ناظرًا إليها بعين ناقدة، ومعتبرًا تلك الادعاءات تافهة لا قيمة لها، على الرغم من وجود مناقشات هامَة تخص "فلسطين"، أي إنه لا يوجد تباين كبير بين ما افترضه "أنطونيوس" من بين رسائل الشريف "حسين" و"مكماهون".

ومع هذا فإن الرأي العربي السياسي والشعبي منذ الحرب العالمية الأولى لم يتقبل هذا الإجماع. وحتى إن المنافسين السياسيين الشرسين للأسرة الهاشمية مثل الرئيس جمال عبد الناصر في "مصر" تبنوا بحماسة مفهوم قوات التحالف خاصة "بريطانيا" وخيانة القضية العربية بعد الحرب العالمية الأولى.

عملية السلام طويلة الأمد

عملية صنع السلام بعد الحرب العالمية الأولى وانتهاء الصراع وترسيم الحدود وتأسيس النظم الحاكمة المستقرة أخذت وقتًا طويلًا في الشرق الأوسط أطول من أي منطقة أخرى في العالم، وأيضًا هدنة "مودروس" في أكتوبر عام 1918، والتي أنهت حالة العداء بين قوات التحالف والعثمانيين ومثلت مجرد وقفة في حالة الصراع في الشرق الأوسط، فنجد أن هناك صراعًا عربيًا داخليًا ومستمرًا على السيادة في شبه الجزيرة العربية بين الملك "حسين" في الحجاز و"ابن سعود"، أمير نجد. أمَا في "مصر"، فكانت هناك ثورة جادة ضد الحكم البريطاني عام 1919، حينما أعلن مؤتمر "سان ريمو" في شهر أبريل عام

1920 تقسيم مناطق الانتداب في الشرق الأوسط بين "بريطانيا" و"فرنسا"، بات واضحًا أن لغة حق تقرير المصير التي روَّجت لها قوَّات الحلفاء خاصةً بعد دخول الولايات المتحدة الحرب، في حقيقة الأمر لغة جوفاء. ونتيجة لهذا، انتشرت موجة عنف في "العراق" و"سوريا"، تسببت فيها استخدام القوة من طرف "بريطانيا" و"فرنسا" على التوالي، وفي "سوريا" وجدنا مملكة الأمير "فيصل" العربية المستقلة التي تتمتع بحالة من الاستقلال النسبي منذ شهر أكتوبر عام 1918، قد تم سحقها وأُجبِر الأمير "فيصل" على العيش في المنفى.

تمت بقية معاهدات السلام الأخرى في منتصف عام 1920، ولكن مصير الأراضي العثمانية أخذ وقتًا أطول لتسويته، وفشلت معاهدة "سيفر" حينما تحدى الرائد القومي "مصطفى كمال" شروط المعاهدة وأجبر قوات التحالف على معاهدة التفاوض، وفي الأجزاء العربية من الشرق الأوسط اعتمد البريطانيون والفرنسيون على عدد من الإستراتيجيات لتفعيل سياسة الانتداب. "فرنسا" مثلًا اعتمدت على القوة العسكرية وعلى استراتيجية "فرِّق تسُد" التي أوضحت الفروق العرقية والدينية والقبلية في "سوريا" و"لبنان" الواقعتين تحت الانتداب الفرنسي، ومع هذا فإن سلسلة الثورات والاحتجاجات شوَّهت فترة الحكم الفرنسي التي استمرت لربع قرن في بلاد الشام.

أمًا "بريطانيا" فعلى الأقل حلَّت لغز بقائها في الشرق الأوسط عبر "حل الشريف حسين" وهو الأمر الذي تم الاتفاق عليه في شهر مارس عام 1921 في مؤتمر "القاهرة" الذي حضره الوزراء البريطانيون والمسؤولون مع وضع حكَّام عرب من الأسرة الهاشمية في "العراق" وإمارة "شرق الأردن"، والهدف

تمثَّل في السماح لـ"بريطانيا" بالإبقاء على نفوذها وسلطتها في تلك البلدان بالوكالة وبثمن زهيد.

بدا الحل مناسبًا ولائقًا وسمح لـ"بريطانيا" بممارسة دورها ونفوذها في كلا البلدين حتى عام 1950 وبالمقارنة فإن تأثير "فرنسا" السياسي على عكس تأثيرها الثقافي في "سوريا" و"لبنان" خبا سريعًا جدًا بعد الاستقلال عام 1945، ومع هذا فإن ارتباط الأسرة الهاشمية بـ"بريطانيا" ألحق بهم وصمة "دمى بريطانيا"، خاصةً في عيون القوميين العرب في فترة ما بعد الحرب العالمية، وحتى إن تأسيس الحكومات المستقرة نسبيًا في المنطقة الواقعة تحت نفوذ "بريطانيا" وفرنسا لم يمثِّل نهاية عملية السلام. أمَّا "تركيا"، التي استعادت بعضًا من مجدها تحت حكم "مصطفى كمال أتاتورك"، فلم تتوقف عن مطالبها في المنطقة الواقعة حول مدينة الموصل العراقية حتى عام 1925. وفي عام 1939، تمت مراجعة اتفاقية السلام في الشرق الأوسط حينما سلَّمت "فرنسا" مرة أخرى لواء الإسكندرونة من "سوريا" إلى "تركيا" لشراء حيادها أثناء الحرب العالمية الثانية.

يمكن تتبع عملية السلام حتى عشية الحرب العالمية الثانية، حيث شهدت نهاية عام 1922 على الأقل استقرارًا يسيرًا للشرق الأوسط، وبدا التأجيل والتأخير في صنع السلام أمرًا غريبًا حينما يضع المرء نصب عينيه اهتمام "بريطانيا" و"فرنسا" بالمنطقة أثناء الحرب خاصة من قِبل صنَّاع السلام فيهما. قُدِمَتْ الوعود للعرب، ولليهود بالطبع، ولبعضهم البعض بشأن تقسيم المنطقة وحقًا هذا هو لب المشكلة.

قُدِمَتْ العديد من الوعود وأُبرمت الاتفاقيات لدرجة أنّه بدا من الصعب الوفاء بها في المؤتمر، لأن لكل من "إنجلترا" و"فرنسا" أجندتهما الخاصة والمملكة العربية الهشّة التي تخضع في واقع الأمر لتوجيه من "بريطانيا" بدا أنها تتفادى الطموحات الفرنسية في المنطقة وتحمي المصالح البريطانية، ولذلك فإن "بريطانيا" بدت متحمسة لدعم المطالب الخاصة بالأسرة الهاشمية في المساحات التي اعتبرتها "فرنسا" مشكلة لنطاق نفوذها، وفي وقت من الأوقات بدا أن الولايات المتحدة تتبنى مبدأ حق تقرير المصير في الشرق الأوسط، ومع هذا فإن موجة العزلة المتنامية التي اجتاحت أمريكا عام 1919 حطمت أية آمال للعرب وللأسرة الهاشمية لنيل الدعم من هذا الإقليم.

بينما أوضح الفرنسيون وسياستهم المدفوعة بجماعات ضغط استعمارية قوية أنهم كانوا جادين في التوكيد على حقوقهم في الشرق الأوسط، وركز صنّاع السلام أكثر فأكثر على مطالب القوى العظمى عوضًا عن تطلعات الأسرة الهاشمية والعرب، ومع هذا فإن الحاجة لتهدئة العرب ربما ستطرأ مرة أخرى، حينما اتضح أن الحكم الأوروبي في الشرق الأوسط بدا مستحيلًا من دون إذعان منهم.



الملك الهاشمي "حسين" بن على خليفة المسلمين- ملك الحجاز - قائد المخلصين- الشريف وأمير مكة في أوائل عام 1920. أعلن الملك "حسين" استقلال كل البلدان العربية من الإمبراطورية العثمانية في الثورة العربية عام 1916.


المكتبة الإلكترونية العراقية

الجزء الأول

الأرواح والأرض




المكتبة الإلكترونية العراقية

1

العالم العربي والأسرة الهاشمية

قبل الحرب العالمية الأولى

العثمانيون والعرب

حكم الأتراك القادمون من سهول آسيا الوسطى قلب العالم العربي في وقت اندلاع الحرب العالمية الأولى وتقع تلك المنطقة تحديدًا في قلب العالم العربي، والتي تشمل الدول المعروفة الآن باسم "سوريا" و"العراق" و"الأردن" و"فلسطين" و"السعودية" وعرب شمال أفريقيا لمدة تفوق الألف عام. "سوريا" و"العراق" و"الأردن" و"فلسطين" عُرِفوا باسم منطقة "الهلال الخصيب" نظرًا لوجود الأنهار المهمَّة مثل "نهر الأردن" ونهري "دجلة" و"الفرات" اللذين وفرا مصادر المياه التي أمَّنت الاستقرار البشري في تلك المناطق، ومع هذا وبحلول عام 1914 تقلصت الأراضي العربية التي تُكوِّن منطقة "الهلال الخصيب"، والتي كانت مهد إحدى أكبر الحضارات في العالم، وكانت الإمبراطورية الإسلامية الشاسعة، إلى مجرد مناطق منعزلة يسودها الفقر والمرض والجهل.

من المعروف أن العثمانيين هم آخر القبائل التركية المسلمة الكبرى التي شكّلت الإمبراطورية الكبرى التي استولت على الأراضي العربية عام 1517 من دون معارضة حقيقية لمدة تفوق العقود الأربعة. فقط في العقود الأخيرة من الحكم العثماني بدأ تيّار يدعو إلى وجود قومية عربية وحكم عربي بالظهور.

عندما ظهر الإسلام في بادئ الأمر في القرن السابع الميلادي، كان مرادفًا لكون المرء عربيًا، ولكن وانتهاء قرن من الفتوحات، أصبح الدين هو "الرابطة العليا" أكثر من القومية[7]، حيث أصبح الأمر عائدًا للمسلمين العرب ومدى تقبلهم للمسلمين الأتراك. هناك أمرٌ آخر تمثّل في طبيعة الحكم العثماني. فالإمبراطورية العثمانية، حتى ولو ظاهريًا، كانت إحدى أهم الإمبراطوريات المركزية في العالم، ومع السلطة التي كانت في يد السلطان، فإن مثل هذا الأمر مثلما لاحظ أحد المراقبين بدا "ظاهريًا"[8]. خارج المراكز الحضرية الرئيسية، مثل دمشق، وحلب، والموصل، وبغداد، كانت سيطرة الحكومة ضعيفة، وكانت المجتمعات العربية التي تعيش في "الهلال الخصيب" عبارة عن تجمعات عائلية، وقبلية، وروابط دينية[9].

في حين أن الحكّام الأتراك نظريًا هم أصحاب اليد العليا في المناطق المتحدثة باللغة العربية، إلا أنهم عمليًا ومع وجود الحواجز اللغوية والافتقار للسلطة

(7) C Ernest Dawn, 'From Ottomanism to Arabism: The Origin of an Ideology', The Review of Politics, Vol 23, No 3 (Jul 1961) p 378.

(8) li2s.h EAnrgabist, traveller and diplomat, Gertrude Bell, cited in David Fromkin, A Peace to End All Peace (Deutsch, London: 1989) p 35.

(9) Ira Lapidus, A History of Islamic Societies (Cambridge University Press, Cambridge: 2002) p 535.

العسكرية، اعتمدوا على قادة القبائل المحلية وعلى القادة المحليين الأثرياء لفرض حد أدنى من النفوذ. تلك الجماعات القيادية كانت تُعرف باسم "الجماعات البارزة" وسياستها تتمثل في الواقع السائد للحياة السياسية في الشرق الأوسط العثماني في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين[10].

تأثير مبادئ الثورة الفرنسية على ما يبدو بدا قويًا، ومبادئ القومية والوطنية في أوائل القرن التاسع عشر التي أثارت فضول المفكرين العثمانيين والمسلمين. وفيما رأى المصلحون والمفكرون المسلمون الرجال غير المخلصين في أوروبا بعين الاشمئزاز، فلم يسع المرء إلا أن ينبهر بالحماسة الوطنية لجيوش الثورة الفرنسية. علاوة على هذا فإن الدمج التدريجي للإمبراطورية العثمانية ضمن محيط الاقتصاد الرأسمالي العالمي في أوائل ومنتصف القرن التاسع عشر أدى إلى تقليد الأفكار والتكنولوجيا الغربية. ورأينا كيف أن المصلحين في التنظيمات العثمانية في القرن التاسع عشر حاولوا دمج ما اعتبروه أفضل أسس الحضارة الأوروبية، ألا وهي المركزية وروح الوطنية وإصلاح الجيش والتطور الاقتصادي مع الإبقاء على سيادة السلالة العثمانية والدين الإسلامي.

ونرى مثلًا "مصر" التي سيطر عليها العثمانيون مجازًا، أو كما سُميت حينها بـ"مصر محمد علي" (1769- 1849)، الذي كان أكثر المتحمسين إسلاميًا للتحديث. "محمد علي" تحدى السيطرة العثمانية على الشرق الأوسط

---

(10) As characterised in Albert Hourani, 'Ottoman Reform and the Politics of Notables', in William R Polk and Richard L Chambers (eds), Beginnings of Modernisation the Middle East: The Nineteenth Century (University of Chicago Press, Chicago: 1968) pp 41-68.

العربي واحتل "سوريا" من عام 1831 حتى عام 1840 قبل قيام القوى العظمى بإجباره على الانسحاب.

استعادة السلطة العثمانية في "سوريا" زودت من مساعي الدولة العثمانية من أجل تعميق سيطرتها على المنطقة، وبالتالي فإن الدولة العثمانية وسّعت من تدخلها في المجتمع وفي حياة مواطنيها[11]. أحضر التحديث معه أثناء زيادته ببطء في شبه الجزيرة العربية وفي منطقة "الهلال الخصيب"، نمو المناطق الحضرية في الشرق الأوسط العثماني، مثل بيروت، ودمشق، وحلب، وبغداد، ومع هذا النمو تقطعت الروابط القبلية، والعائلية التي كانت تتحكم في العلاقات في العالم العربي.

تيّار القومية العربية في الشرق الأوسط قبل عام 1914

لعدة سنوات بدا من المقبول أن القومية العربية في مراحلها الأولى، وهي عبارة عن مجموعة من الأفكار التي نشأت نتيجة الاتصال مع الغرب، بدا من العادي تمامًا أن أولى علامات تيار القومية العربية ظهرت في المناطق الحضرية من "سوريا" العثمانية، حيث تأثير الثقافة الأوروبية والأمريكية بدأ في الظهور في أواخر القرن التاسع عشر تماشيًا مع الاختراق الغربي السياسي والاقتصادي للمنطقة، فالجماعات التبشيرية الأوروبية والأمريكية المرتبطة بالمناطق المقدسة في "فلسطين" انتشرت

(11) James L Gelvin, Divided Loyalties: Nationalism and Mass Politics in Syria at the Close of Empire (University of California Press, Berkeley: 1998) p 13.

بدافع الرغبة - خاصة وسط التجمعات البروتستانتية - في تنصير المسلمين. وبما أن الارتداد المباشر كان غير قانوني، إلا أنه كان يوجد نوع من الأمل الضعيف بأن المسيحيين العرب ربما يحاولون نقل إيمانهم إلى المسلمين[12].

كانت هناك زمرة من المسيحيين السوريين الذين درسوا في المدارس التبشيرية الأمريكية والفرنسية في "لبنان"، وخاصة تلك التي تأسست في القرن التاسع عشر، بدأت في التشبع بالآراء شبه العلمانية للقومية العربية، وهذا الأمر شمل إحياءً للعديد من النصوص الأدبية الكلاسيكية العربية مع ترجمة النصوص الغربية إلى اللغة العربية.

في عام 1860، صاغ المفكر العربي المسيحي "إبراهيم اليازجي" رؤية مبكرة لتيار القومية العربية؛ حيث اعتبر الغزو العثماني بمثابة كارثة حلّت على العرب الذين تقلصوا من مجرد حضارة متقدمة ومتعلمة إلى حضارة غرقت في التخلف وبدت مهتمة بالدين أكثر من اهتمامها بالعلم، وبدا حل التخلص من العبودية للعثمانيين هو الحل الأمثل للعرب كي يحققوا أهدافهم السابقة في التعلُّم والتقدم، ومع هذا فإن تلك الرؤية العلمانية للقومية العربية كانت مكروهة من غالبية العرب المسلمين الذين أبقوا على إخلاصهم أو على الأقل فتورهم نحو الإمبراطورية العثمانية[13].

ويعد كتاب "جورج أنطونيوس" – "الصحوة العربية" أو " The Arab Awakening" عام 1938 ربما هو النص الدال لفكرة القومية العربية

(12) M E Yapp, The Making of the Modern Near East, 1792–1923 (Longman, Harlow: 1987) pp 132–3.

(13) Dawn, 'From Ottomanism to Arabism,' p 10–11.

المعاصرة، والذي وثّق نشأة تيار القومية العربية ضمن تلك الحركات الثقافية الصغيرة جدًا في أواخر القرن التاسع عشر في "سوريا" العثمانية ومنذ الحرب العالمية الثانية. كانت هناك روح شك متزايدة تتعلق ببعض مزاعم "أنطونيوس"، خاصة التي تتعلق بأصول تيّار القومية العربية وحكايته عن الثورة العربية خلال الحرب العالمية الأولى"[14]. وحتى بالنسبة للمراقب المتعاطف نوعًا ما فإنه يلاحظ أن مثل هذا الأمر ليس فقط "وليد السرد التاريخي، ولكنه أيضًا نوع من الحماية السياسية""[15]. اعتمد "أنطونيوس" أساسًا على الدليل الشفهي، وأكد بشكلٍ كبيرٍ على دور الجماعات اللبنانية الصغيرة وعلى دور المجتمع السري الذي وزّع بطاقات أو منشورات تحريضية ضد العثمانيين في أواخر العام 1870، وهذا التحريض من المحتمل أن يتعلق أكثر بالعوامل المحلية الخاصة بالمسيحيين المارونيين أكثر من نشأة تيار القومية العربية التي تستهدف الأتراك بالأساس[16].

(14) Amongst critical looks at Antonius are Sylvia G Haim, '"The Arab Awakening", A Source for the Historian?', Die Welt des Islams, II (1953); Elie Kedourie, England and the Middle East: The Destruction of the Ottoman Empire, 1914–1921 (London, Boulder: 1987) pp 29–66 and 107–41; Elie Kedourie, In the Anglo-Arab Labyrinth: The McMahon-Husayn Correspondence and Its Interpretations 1914–1939 (Cambridge University Press, Cambridge: 1976) pp 64–136 and 266–9; Albert Hourani, '"The Arab Awakening," Forty Years Later', in Derek Hopwood (ed), Studies in Arab History: The Antonius Lectures, 1978–87 (Macmillan, Basingstoke: 1990) pp 21–40.

(15) Hourani, '"The Arab Awakening" Forty Years Later', p 26.

(16) 1g0e.AGnetoonr ius, The Arab Awakening (Putnam, New York: 1946) pp 37, 80, 81; Zeine N Zeine, Arab Turkish Relations and the Emergence of Arab Nationalism (Khayat's, Beirut: 1958) pp 56, 57, 68.

بعدها بنحو ثلاثين عامًا كانت هناك علامات ملموسة على تيار القومية العربية الوليد، والمحفز هو ثورة "تركيا" اليافعة عام 1908 في القسطنطينية. في عام 1878 أبطل السلطان العمل بالدستور العثماني الذي أجبرته على وضعه القوات الأوروبية. فيما بعد سعت جماعات من الجيش والإدارة المدنية لاستعادة الحكم الدستوري وتحرير وتحديث الإمبراطورية. وأبرز تلك الجهود تمثلت في حزب جمعية الحرية العثمانية (تركيا الفتاة أو الأتراك الشباب) وجمعية الاتحاد والترقي. في شهر يوليو عام 1908 سيطرت تلك الجماعات، التي عُرفت باسم الأتراك الشباب، على السلطة. ظهر الضبّاط القوميون الإصلاحيون المرتبطون بجمعية الاتحاد والترقي كقوى سائدة في نظام الحكم الجديد وبدت ردة الفعل العربية المبدئية حماسية. المرحلة الأولى للتحرر، التي وفرتها جمعية الاتحاد والترقي، شهدت النشاط السياسي الذي قدمته جمعية الاتحاد والترقي نفسها في الإمبراطورية والتي شملت تكوين أحزاب عربية معينة. سرعان ما بدا من الواضح أن مغازلة اتحاد الأتراك الشباب أو حزب "تركيا الفتاة" للفكر الليبرالي والتعددية هو مجرد واجهة لما كمن خلف الأجندة التركية القومية، والتي دعمت الميول نحو المركزية وسياسة التتريك وهي الميول التي بدت واضحة في الإمبراطورية العثمانية سابقًا. لم نجد سوى دليل ضعيف على أن الأتراك الشباب أو حزب "تركيا الفتاة" هو الذي دعم تلك السياسات أكثر مما قام النظام القديم نفسه بذلك[17]. ومع هذا وعبر العمل على انفتاح السياسة العثمانية بات من الصعب تمامًا العودة مرة أخرى إلى النظام الإستبدادي.

(17) See C Ernest Dawn, 'The Origins of Arab Nationalism', in Rashid Khalidi et al (eds), The Origins of Arab Nationalism (Columbia University Press, New York: 1991) pp 18–19.

بعد عام 1912 وفي ردة فعل على نهاية فترة الإصلاح، ظهرت أحزاب لديها أجندة الطابع الاستعماري العربي في "سوريا" وأهمها، وفقًا لـ"أنطونيوس"، حزب اللامركزية. هناك كيانات هامة أخرى ظهرت أيضًا في "سوريا"، وهي جماعات سرية أصدرت بيانات رسمية مشابهة مثل جماعات فتح (مجتمع العرب الشباب) والقحطانية، وربطها "أنطونيوس" لاحقًا مع الثورة الهاشمية ضد العثمانيين من عام 1916. هكذا وُلدت رابطة بين التيار القومي الأكثر أهمية الذي نشأ في دمشق والصحارى القاحلة التي نشأت منها الأسرة الهاشمية.

وفقًا لنقّاده، فإن رؤية "أنطونيوس" لدور التيّار القومي العربي مبالغ فيها نوعًا ما ويشوبها الخطأ، مثل ما أورده أن عرب "سوريا" الذين يميلون للاستقلال والحكم الذاتي هم أقلية عددها نحو 350 عضوًا فقط وفقًا للمسح الرسمي الحديث[18]، بينما تركزت طموحات الأسرة الهاشمية بتوسع نفوذ تلك الأسرة أكثر من اهتمامها والتزامها بتيار القومية العربية[19]. التفسير المتعمّق لأصول تيار القومية العربية وفق فرضية "سي إرنست دون" هو أن بذور إلهام فكرة القومية العربية نبعت من الجزء الأول من القرن العشرين وليس من أفكار ورؤى المفكرين المسيحيين العرب المتأثرين بالغرب بل من المفكرين المسلمين من النخبة، كذلك من الصراع بين العرب البارزين والنخبة، خاصة تلك الموجودة في

---

(18) Eliezer Tauber, The Emergence of the Arab Movements (Frank Cass, London: 1993) p 406. Ernest Dawn, From Ottomanism to Arabism: Essays on the Origins of Arab Nationalism (University of Illinois Press, Urbana: 1973) pp 152-3 puts the figure at only 144.

(19) Most notably Efraim Karsh and Inari Karsh, Empires of the Sand: The Struggle for Mastery in the Middle East, 1789-1923 (Harvard University Press, Cambridge MA: 1999) are very hostile to what they consider the imperialist ambitions of Sherif Hussein and the Hashemites.

المدن الكبرى مثل دمشق. تلك النخبة التي امتلكت الحظوة والأراضي والمناصب نظرًا للحماسة العثمانية التي مالت لدعم الحالة الراهنة، بينما من تم استثناؤهم من تلك المكاسب شرعوا في الثورة ضده[20]. حتى ضمن المتمردين لم يكن هناك سوى القليلين الذين يرغبون في نيل الاستقلال التام، أمّا غالبية العرب بدوا راضين عن البقاء ضمن إطار الوحدة العثمانية طالما بقيت مكانتهم محفوظة بواسطة الحُكّام الأتراك[21]. كانت هناك أيضًا اختلافات بين المدن والريف.

"جرترود بيل" التي وصفت النفوذ الإنجليزي على العرب، ربما تكون هي الأقرب للصدق في وصفها أكثر "أنطونيوس"، ففي أوائل القرن العشرين قالت: "لا توجد أمّة موحدة للعرب، فالتاجر السوري يختلف عن الرجل البدوي أكثر من اختلافه عن التاجر العثمانلي (العثماني)"[22]. في بداية القرن العشرين بقيت السياسة القومية في "سوريا" "لعبة حضارية منفصلة تمامًا عن احتياجات ورغبات القرية"[23].

---

(20) A useful summation of Dawn's more than three decades of musing on the subject is in Dawn, 'The Origins of Arab Nationalism', in Khalidi et al (eds), The Origins of Arab Nationalism, pp 3-31.

(21) Majid Khadduri, Political Trends in the Arab World: The Role of Ideas and Ideals in Politics (John Hopkins Press, Baltimore: 1970) p 19.

(22) Quoted in Martin Kramer, Arab Awakening and Islamic Revival: The Politics of Ideas in the Middle East (Transaction Publishers, New Brunswick: 1996) p 24.

(23) Raymond A Hinnebusch, Authoritarian Power and State Formation in Ba'thist Syria: Army, Party, and Peasant (Westview Press, Boulder, Colo: 1990) p 45.

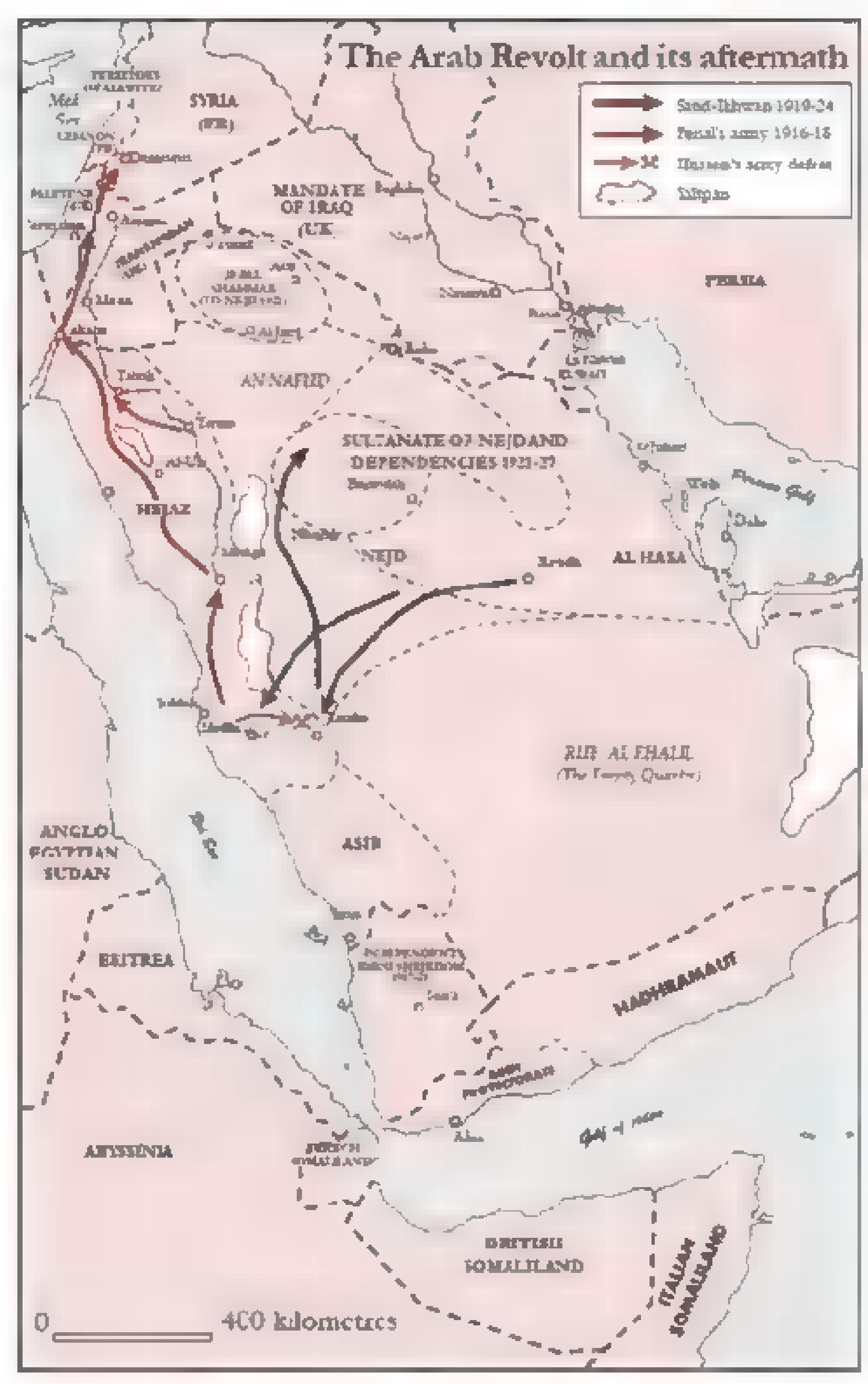
جورج حبيب "أنطونيوس"
(1942 - 1891)



هو مدير استعماري بريطاني ومؤرخ عربي قومي التوجه وُلد في لبنان لأسرة ميسورة الحال وتدين بالمعتقد المسيحي الأرثوذكسي وعاش فترة في "مصر" قبل حصوله على درجة علمية من جامعة كامبريدج والتحق بالحكومة البريطانية في "مصر" قبل اندلاع الحرب العالمية الأولى وخدم في عدة أعمال إدارية قبل الحرب وفيما بعد أصبح مترجمًا للأمير "فيصل" في مؤتمر السلام المنعقد عام 1919، وفي عام 1921 انضم للمكتب الاستعماري البريطاني وصار موظفًا ذا شأن في الإدارة قبل أن يستقيل في مايو عام 1930.

وفي عام 1931 أمده الملك "حسين" الأسبق بمادة أساسية لمؤلفه الإبداعي حول تيار القومية العربية "الصحوة العربية" 1938. بعد نشره، ولأول مرة، المراسلات بين "حسين"، و"هنرى ماكماهون"، والتي زعم "أنطونيوس" أنها دليل مادي على خيانة البريطانيين للقضية العربية[24].

(24) S S Boyle, Betrayal in Palestine: the story of George Antonius (Westview Press, Boulder, Colo: 2001) and the more venerable Antonius, The Arab Awakening, for further details on Antonius.



خريطة الثورة العربية وأعقابها

الحجاز

منطقة الحجاز عبارة عن قطاع ضيق من الأراضي الممتدة من جنوب "ميناء الأردن" - حاليًا "شرق العقبة" - إلى الحدود الشمالية، وتقع حاليًا ضمن حدود "المملكة العربية السعودية"، التي كانت عند اندلاع الحرب العالمية الأولى مجرد وادٍ صغير أو إقليم ضمن الإمبراطورية العثمانية. كانت بالفعل الجزء الوحيد من شبه الجزيرة العربية التي لم يمسّها نفوذ الإمبراطورية العثمانية. وعلى الرغم من أنها تقع على مساحة أرض ساحلية قاحلة وغير مأهولة بالسكان، فإن أهميتها تكمُن في وجود اثنتين من أكثر المناطق المقدسة في الإسلام؛ "مكة" وبها الكعبة المشرفة، والمدينة؛ وهي أول مدينة تقبل رسالة النبي محمد صلى الله عليه وسلم. كانت بعيدة بشكل كافٍ عن العاصمة القسطنطينية، وسكانها فقراء، بل بالكاد بها سكّان، حيث يُقدّر عدد السكان فيها في نهاية القرن التاسع عشر، خاصة في المدن الثلاث المهمة؛ الحجاز، والمدينة، وجدة بنحو 100000 شخص، إضافة إلى القبائل الرُحّل التي يبلغ عددها 40000 رجل وامرأة في الأراضي الواقعة بمحاذاة الساحل حولها[25]. كما تفتقر الأرض إلى المصادر الطبيعية، حيث إن أغلب تعداد السكّان الحضري كرّس نفسه لدراسة وممارسة شعائر الدين الإسلامي، ويكمن مصدر الدخل الأساسي فيها في تدفق مختلف أنواع الحجّاج من أطراف العالم الإسلامي كجزء من أداء إحدى فرائض الشريعة الإسلامية مرة واحدة في العام، وهي فريضة الحج للأراضي المقدسة في مكة. وجود أكثر المدن الإسلامية قداسة بالحجاز

---

(25) W Ochsenwald, Religion, Society and the State in Arabia: The Hijaz under Ottoman Control 1840-1908 (Ohio State University Press, Columbus OH: 1984) p 17.

تسببت في فوائد جمة لتلك المنطقة، لأنها لم تخضع للضرائب الإجبارية التي كانت تفرضها الدولة العثمانية؛ بل إنها تلقت المساعدات من القسطنطينية، وأيضًا تلقت المنح المالية والعون من الدول الإسلامية الثرية نسبيًا مثل "مصر". طالما قيل إن "الدين هو ما حدد التاريخ الاجتماعي الاقتصادي بدرجة أقل من التاريخ السياسي للمنطقة القريبة من شبه الجزيرة العربية، أي الحجاز في القرن التاسع عشر"[26]. بقي المجتمع فيها غير متحضر وتقليدي بدرجة كبيرة ولا توجد أية دلائل على القومية وأي أفكار سياسية أخري تقدمية انتشرت في تلك المنطقة خلال القرن التاسع عشر[27].

الأسرة الهاشمية

بعد 13 قرن تقريبًا من موت النبي محمد صلى الله عليه وسلّم، أُطلِقَ على نسله لقب "الأشراف". الكلمة معناها في اللغة العربية، الشخص المميز أو النبيل، وبحسب وصف "جان موريس" فإن "الرجل الذي يحمل هذا اللقب يحمل مكانة قريبة من مكانة رجال الدين أو النبلاء"[28]. ومن ضمن أهم تلك الأسر التي حملت اللقب نجد أسرة "بني هاشم"، ومن هنا أتت تسميتهم بالأسرة الهاشمية - وهي نفس قبيلة محمد القريشية - والشريف "حسين بن

(26) Ochsenwald, Religion, Society and the State in Arabia, p 220.

(27) W Ochsenwald, 'Ironic origins: Arab nationalism in the Hijaz', in Rashid Khalidi et al (eds), The Origins of Arab Nationalism (Columbia University Press, New York: 1991) p 190.

(28) James Morris, The Hashemite Kings (Faber and Faber, London: 1959) p 18.

علي" من الأسرة الهاشمية ويحتل أهم منصب في الحجاز وهو الشريف الأكبر وأمير مكة منذ عام 1908. فرع أسرة "حسين" الهاشمية أصبحت معروفًا خلال القرن التاسع عشر؛ حيث حكم "محمد علي" حاكم "مصر" منطقة الحجاز ونصّب جد الشريف "حسين" شريفًا وأميرًا على مكة[29]. السلطة التي أتت مع هذا المنصب مالت إلى أن تكون سلطة دينية أكثر منها سلطة سياسية، ولا نجد سوى دليل صغير قبل بداية القرن العشرين على أن الأسرة الهاشمية أبدت طموحات سياسية كبرى.

رغم أن الأسرة الهاشمية عربية فهي أيضًا جزء من المؤسسة العثمانية واستقلال الشريف تم منعه بوجود حاكم تركي أولي في مكة مع وجود 7000 من القوات المتمركزة هناك. ومع هذا فإن الاتصالات مع القسطنطينية قبل إتمام السكة الحديد في الحجاز عام 1908 كانت بطيئة وصعبة والمسافة من العاصمة الإمبريالية سمحت بشكل عام لأمير مكة بدرجة مقبولة من الاستقلالية، ولم نجد سوى عملية جمع ضرائب بسيطة والتجنيد لم يكن إلزاميًا نظرًا إلى مركز الحجاز المقدس، ومثلما وصف أحد الكُتّاب في القرن التاسع عشر، "أمير مكة مجرد تابع للباب العالي، يمكن أن يخلعه السلطان من منصبه في أية لحظة، كما أنه لا يتمتع بأي نفوذ سياسي أو ديني يُذكر"[30].

وحقًا فإن السيطرة الكاملة للعثمانيين على الأسرة الهاشمية وعلى منطقة الحجاز تجلّت في جلب أعضاء مهمين من الأسر الرائدة في منطقة الحجاز، مثل

(29) Kedourie, In the Anglo-Arab Labyrinth, p 11.

(30) Cited in Tufan Buzpinar, 'Opposition to the Ottoman Caliphate in the Early Years of Abdülhamid II: 1877– 1882', Die Welt des Islams, New Ser Vol 36, Issue 1 (Mar 1996), p 67.

الأسرة الهاشمية، إلى القسطنطينية كضيوف إجباريين للسلطان، ومع هذا يجب أن نضع في الحسبان أن الحكم العثماني والحامية العسكرية التركية وفَّرا نوعًا من الأمان لمنطقة الحجاز، وحيث إن شبه الجزيرة العربية هي في الواقع مكانٌ خطر به العديد من القبائل والتنافس الديني؛ إمام اليمن، والحركة الوهَّابية، وبحلول القرن العشرين نفوذ أسرة "آل سعود" المتنامي، وكلها قبائل تسعى لبسط نفوذها. وبدءًا من عام 1800 انشغل البريطانيون بتأمين المواقع الأساسية بالعثور على حلفاء وسط مختلف الأمراء في الأطراف الساحلية لشبه الجزيرة العربية، والوجود والنفوذ البريطاني بدا ظاهرًا خاصةً في الطرف الجنوبي من البحر الأحمر في عدن في الخليج الفارسي وهدفه تمثَّل في حماية الطريق البحري للهند البريطانية[31].

الخلافة

السلطان العثماني "عبد الحميد الثاني" (1876– 1909) - وهو أيضًا خليفة وحامي الدين الإسلامي والمناطق المقدسة، الذي سبقه السلطان سليمان القانوني (1520- 1566)، وهو عاشر السلاطين العثمانيين وثاني من حمل لقب أمير المؤمنين ومع هذا حينما حمل السلطان "عبد الحميد الثاني" لقب الخليفة، كانت هناك معارضة من البعض، وهم الرجال المؤيدون للقومية العربية الذين طالبوا باستعادة الخلافة العربية، وزعموا أن الخلافة تأتي فقط من قبيلة النبي محمد صلى الله عليه وسلم، أي قبيلة قريش، والعديد من

(31) See Elizabeth Monroe, Britain's Moment in the Middle East 1914–1956 (Methuen, London: 1963) pp 11–23.

الجنود الذين أمّنوا المصالح البريطانية ممن كانوا يخدمون في "الهند" وفي مكتب الخدمية المدنية فيها، فالبريطانيون لم يحبذوا وجود السلطان العثماني بنفوذه الكبير على ما يقرب من 100 مليون مسلم في "الهند" البريطانية. هكذا اقترح أحد المواطنين المدنيين البريطانيين المتقاعدين أن وجود أحد أفراد الأسرة الهاشمية في مكة، وهو عضو في قبيلة قريش في الوقت ذاته، في منصب خليفة المسلمين بدا مناسبًا، فهو "يعيش بالقرب من الطرق المؤدية إلى "الهند" وسيكون ضمن منطقة نفوذنا مثلما هي قناة السويس"[32]. وبدا هذا التعليق تعليقًا متبصرًا.

(32) Cited in Buzpinar, 'Opposition to the Ottoman Caliphate in the Early Years of Abdülhamid II', p 80.

صعود أسرة الشريف حسين[33]

وُلد "حسين بن علي" في مدينة القسطنطينية، وهـو نصـف شركسي ونصـف عـربي، حيث إن هناك اتصالات أسرية وقرابة تربطه مع قبيلة "عون"، وهي فـرع مـن الأسرة الهاشمية، وما جعله مهمًا هو أنه في رتبة السابع والثلاثين من نسل النبي محمد صلى الـلـه عليه وسلم[34]. كان هناك تقريبًا 800 عضو من قبيلتي "عـون" و"زيـد"، طـالبوا بأن يحكمهم أحدٌ من النسل المقـدس، ففـي أي وقـت، سـيأتي الـدور عـلى أفـرادٍ مـن القبيلتين ليحكموا ويحملوا لقب أمير وشريف مكة. وفي عـام 1880 وعـام 1890 كـان فـرع أسرة "زيـد" هـو المسـيطر. وفي وقـت انـدلاع الحـرب العالميـة الأولى كـان عمـر "حسين" قد فاق الستين عامًا، ومع هذا فإن مظهره كان مبهرًا وهو يرتدي رداءً أسـود اللون وعمامة ولحيته تقريبًا لونها أبيض ويصفه "تي إي لـورانس"، الجنـدي البريطـاني الذي لعب دورًا محوريًا في الثورة العربية، "من الخارج نظيف المظهر جدًّا ونبيـل، ولا يمكن أن يُقال عليه رجلٌ ضعيف، كما أن ملامح وجهه تشي بأنه رجـل سياسـة حـاذق

(33) What follows is substantially based on R Baker, King Husain and the Kingdom of Hejaz (Oleander Press, Cambridge: 1979); Kedourie, In the Anglo-Arab labyrinth; A Susser and A Shmuelevitz (eds), The Hashemites in the Modern Arab World: Essays in Honour of the Late Professor Uriel Dann (FrankCass, London: 1995); Morris, The Hashemite Kings; Joshua Teitelbaum, The Rise and Fall of the Hashemite Kingdom of Arabia (Hurst, London: 2001); and Haifa Alangaria, The Struggle for Power in Arabia: Ibn Saud, Hussein and Great Britain, 1914-1924 (Ithaca Press, Reading: 1998).

(34) Morris, The Hashemite Kings, p 23.

ويتمتع بطموح جارف وبصيرة وقوة شخصية وعناد"[35]. كان في جوانب عدة شخصًا ذا كاريزما، كما أنَّه كان على دراية واسعة بالأدب العربي ويدرك ماهية الدسائس السياسية العالمية، ولكن تربيتة العثمانية أضفت عليه سمات غير جذابة". ويستطرد "لورانس" فيقول: "حينما كان "حسين" صغيرًا في السن كان يتحلى بالأمانة والنقاء، ولكنه لم يتعلم فقط كبت ما بداخل نفسه؛ بل تعلم كيفية استخدام الحوار ليخفي نياته الحقيقية وهذه المهارة إن أفرط المرء في استخدامها ستتحول من دون شك إلى نقيصة لن يستطيع التخلص منها"[36].

سنوات عمره المبكرة كان يحفها الغموض. نحن نعلم أنه سليل الأسرة الهاشمية، وأنه ظل في ضيافة السلطان العثماني لأكثر من 15 عامًا بدءًا من عام 1892 أو 1893 وحتى عام 1908. كانت إقامته الجبرية، إذا كان في استطاعتنا أن نسميها جبرية، مريحة وجيدة. حيث إن السلطان لم يرد أن يُقال عنه إنه يعامل أحدًا من الأشراف معاملة سيئة، قام بمنح "حسين" وزوجته وأولاده الأربعة؛ "علي" (1879 - 1935)، و"عبد الله" (1880-1951)، و"فيصل" (1883 - 1933)، و"زيد" (1898 - 1970)، فيلا مريحة تطل على البوسفور. ثلاثة من أبنائه الأربعة؛ "علي"، و"عبد الله"، و"فيصل" صاروا ملوكًا للدول التي ورثت تركة الإمبراطورية العثمانية.

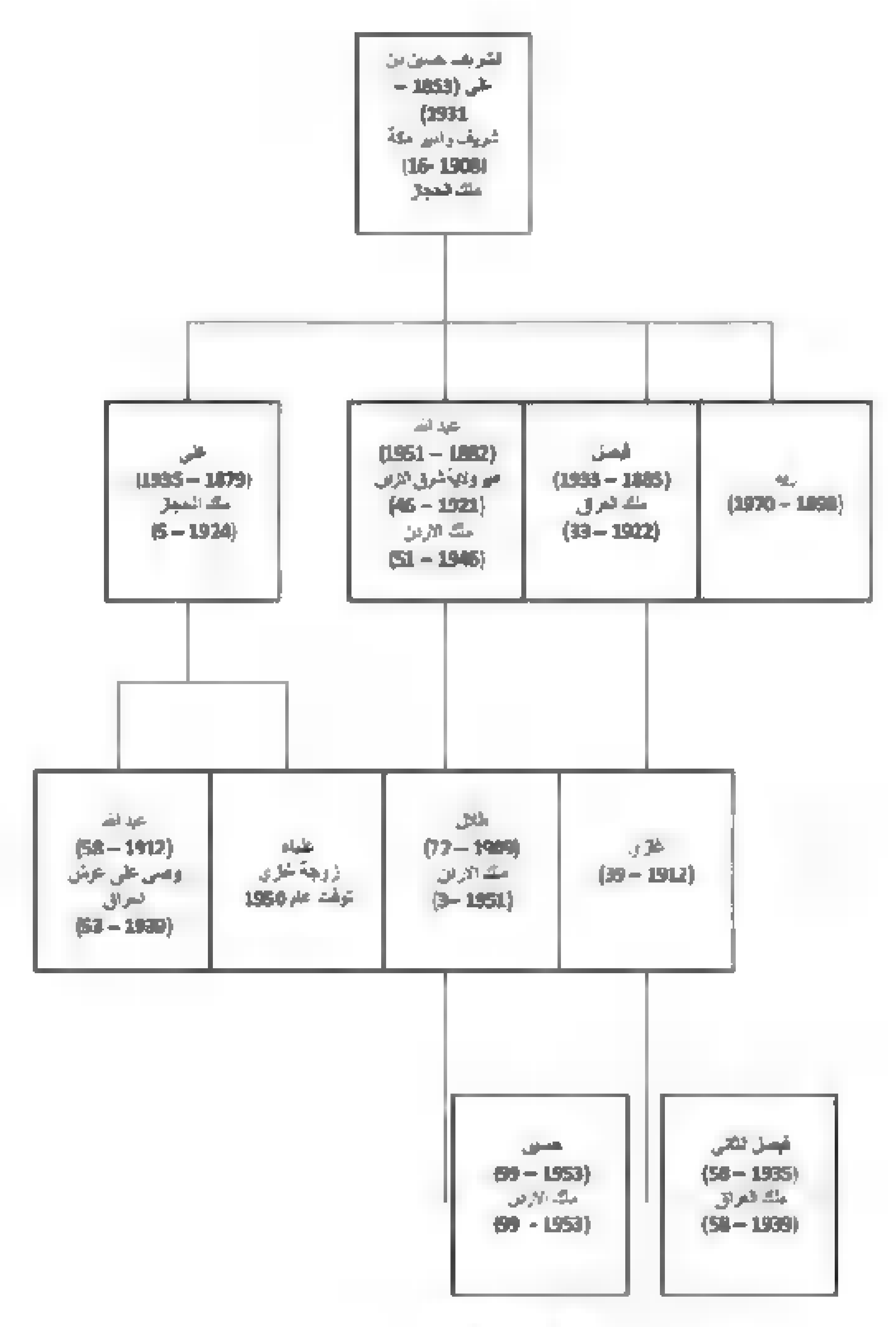
وهكذا صار "حسين" مواطنًا بارزًا في القسطنطينية واعتمد في نواحٍ كثيرة من طباعه على نمط الحياة العثمانية واللغة التركية التي أتقنها كما أتقن

(35) T E Lawrence, Seven Pillars of Wisdom (Wordsworth, London: 1997) p 84.
(36) Lawrence, Seven Pillars of Wisdom, p 86.

العربية، لكن على الرغم من أن "حسين" كان قوي الإرادة وذا عقل مستقل، إلا أنه مثَّل خطرًا كبيرًا منع السلطان المستبد "عبد الحميد الثاني" من إعادته إلى الحجاز[37]. ومع هذا تدخلت الأحداث حينما صعد الأتراك الشباب إلى السلطة عام 1908، وإبطال سلطات "عبد الحميد الثاني" وعزله بعد مرور عام. أمَّا منصب شريف مكة فقد بقي خاليًا وقت اندلاع الثورة، وبفضل خلع الشريف "علي عبد الله بن محمد"، والموت المفاجئ لخلفه، بدا "حسين" مرشحًا رائدًا لحكم الحجاز، رغم أن مسألة توليه لم تكن رسمية بأي حال من الأحوال. كانت آراؤه السياسية وقدرته على أن يحظى بالاستحسان مع اللاعبين السياسيين الأساسيين هما أفضل عونٍ له، لكن لأنه كان من النوع الذي يفرط في ردود أفعاله، لم يتقبّل آراء حزب "تركيا الفتاة"، أمَّا عداؤه للحكومة الجديدة فربما يكون السبب في جذب "عبد الحميد" لترشيحه لولاية الحجاز. هناك أيضًا بعض الأدلة التي تثبت أن الحكومة البريطانية اعتبرته مرشحًا مناسبًا، ويرجع الفضل في هذا إلى الخدمات التي قدّمها "حسين" للسفير البريطاني في القسطنطينية، وزعم أنه كتب ليؤثر على الزعماء العرب في الحجاز لتفضيل المصالح البريطانية في شبه الجزيرة العربية[38].

(37) Morris, The Hashemite Kings, pp 24–5.

(38) Teitelbaum, The Rise and Fall of the Hashemite Kingdom of Arabia, p 41.



شجرة الأسرة الهاشمية

ربما كان عبد الحميد يأمل في الحصول على الدعم البريطاني في وقت كان يعاني فيه من الضغط المتزايد من جمعية الاتحاد والترقي. "عبد الحميد" أيضًا وضع في حسبانه الخلافة والولاء الذي ولدته ضمن رعايا المسلمين بوصفها عاملًا هامًّا في نجاته، لهذا كان ينصب في مصلحته أن يهتم بشخصٍ يعارض "الأتراك الشباب" ويحمل لقب شريف مكة. وفقًا لما قاله ابنه "عبد الله"، تعهَّد "حسين" بأنه لو صعبت جمعية الاتحاد والترقي الأمور على "عبد الحميد"، يستطيع "عبد الحميد" أن يتخذ من الحجاز ملجًأ له[39].

(39) Teitelbaum, The Rise and Fall of the Hashemite Kingdom of Arabia, p 41.

الشريف "حسين" والعثمانيون

صار "حسين" شريفًا عام 1908 وعاد مرة أخرى للحجاز. مع هذا توجد بعض الأدلة على أنه ما إن استتب له الأمر، طمح في ما هو أكثر من هذا، وبدأ يتأمل في أنه هو أحقّ من السلطان العثماني بالخلافة. شهد ابنه "عبد الله" في مذكراته أن "حسين" كان يتحلى بالولاء للعثمانيين في هذا الوقت، وأن جداله مع القسطنطينية يتمحور حول الإصلاح العلماني لجمعية الاتحاد والترقي. من وجهة نظره، إن حزب "تركيا الفتاة"، "لم يتسم بالحكمة عندما قام بتحويل الإدارة التابعة للخلافة إلى حكومة "دستورية" عنصرية، وقاموا بإحلال سيطرة قضائية أوروبية محل الرقابة الإسلامية العربية"[40]. على النقيض من الطريق الذي انتهجته "تركيا"، فقد أوضح "الشريف حسين"، ومنذ البداية، أن القانون الإسلامي التقليدي، الشريعة، هو ما كان يسير على هديه"[41]. أولويات "حسين" تمثلت في أنه لدى قدومه للحجاز وجب أن يدعم سلطته ويزوّد من نفوذه على حساب الوالي التركي، وحقًا بحلول العام 1911 أرسل البريطانيون تقارير مفصلة مفادها أن "حسين" تغلب تمامًا على الأولياء الذين تم إرسالهم هناك وأن حكومة مكة في قبضته، وفي رسالة بريطانية عام 1914، أشاعت أنه لدى قدومه عام 1908 "ترك "حسين" انطباعًا جيدًا؛ حيث إنه من المأمول أنه لن يكون ابتزازيًا فيما يتعلق بمكة، وأنه سوف يعيد الأمان للبلدان التي تقع

(40) Abdullah, Memoirs of King Abdullah of Transjordan (Cape, London: 1950) p 70.

(41) J Nevo, 'Abdullah's memoirs as historical source material', in A Susser and A Shmuelevitz, The Hashemites in the Modern Arab World: Essays in Honour of the Late Professor Uriel Dann (Frank Cass, London: 1995) p 166.

حول مكة". وبعد تقليص القوات، بدا "حسين" متحملًا للأمر، والقنصل البريطاني في مكة أقر أن قتل الحجّاج الهنود الثلاثة مرتبط بالشريف "حسين" بطريقة أو بأخرى[42].

مع هذا فإن "حسين" وجب أن يتحلى بالحذر في تحديه لمختلف الولاة والسلطات العثمانية لأن التمادي في هذا الأمر سيؤدي حتمًا إلى عزله، وحقًّا فإن إنجازاته المبكرة جلبت القبائل البدوية المتناحرة بشكل متزايد قرب الحجاز وتحت السيطرة، والعثمانيون بعد عام 1910، تمتعوا بأولويات عسكرية كبرى في منطقة البلقان وفي ليبيا مما شجع "حسين" على مد قوته لشرق الجزيرة العربية وللتوكيد على سيطرة العثمانيين على قادة القبيلتين الرائدتين: قبيلة "آل سعود" و"الإدريسي" في "عسير" وفقًا للقنصل البريطاني في "جدة".

اعتبر "حسين" تلك الحملتين سبيلًا لتدعيم سلطته الخاصة واستقلاله[43]، ولكن أذرع السيطرة العثمانية والتركية على الحجاز بدأت في النمو وليس في التراجع، وخاصة في الفترة التي تلت الحرب العالمية الأولى، وربطت خطوط التلغراف بين منطقة الحجاز والقسطنطينية من نهاية القرن التاسع عشر وصولًا لعام 1908؛ حيث تم إحداث ثورة في الاتصالات بإتمام خط السكة الحديد في الحجاز الذي ربط دمشق بالمدينة وبقية الأماكن المقدسة الأخرى وطريق السكة الحديد قُوبِلَ بعداء من القبائل البدوية المتنقلة في الحجاز، والتي

---

(42) Sir Louis Mallet to Sir Edward Grey, 18 March 1914, reproduced in G P Gooch and Harold Temperley, British Documents on the Origins of the War, 1898-1914, Vol X, Part II (H.M.S.O., London: 1938) p 827, hereafter British Docs.
(43) Alangaria, The Struggle for Power in Arabia, p 63.

رأت في "الحمار الحديدي" تهديدًا جادًا لمصادرها الأساسية للدخل؛ الدليل الصحراوي، والنقل، والسرقة من وقت لآخر من الحجاج. وبشكل ملحوظ، اعتبر حزب "تركيا الفتاة" طريق السكة الحديد وتوسيعه الحتمي صوب "مكة" بمثابة حجر الزاوية لتدعيم الحكم العثماني المباشر في غرب شبه الجزيرة العربية، وحقًا فإن المدينة التي تقع في نهاية خط السكة الحديد، خضعت للتأثير العثماني الأكبر في السنوات التالية وصولًا لعام 1914، و"حسين" لدى تنصيبه شريفًا لمكة، شجع الهجمات على القطارات وقاوم بشراسة الاتفاقيات المبرمة مع حزب "تركيا الفتاة"، لمد السكة الحديد لقاعدة نفوذه في "مكة"[44].

من الواضح مع هذا أن استقلالية "حسين" في السنوات التي أدت إلى اندلاع الحرب العالمية الأولى كان أمرًا باعثًا على التحدي، وحتى ابنه "عبد الله" اشتكى من طغيان الأتراك للسفير الفرنسي عام 1912، وفي هذا الوقت فإن أولى الاتصالات غير المؤكدة بين "عبد الله" والبريطانيين ربما تكون قد تمت بالفعل[45]. الحادث الدال الذي أدى إلى تدهور مكانة الأسرة الهاشمية هو تنصيب "وهيب بيه كولي" في أبريل عام 1914، ولأن شخصيته بدت أقوى من شخصية أسلافه، فإنه سرعان ما كبح جماح "حسين"، وبدا "وهيب" مصممًا على أن السيطرة المزدوجة على الحجاز ستنتهي والحكم العثماني المباشر سوف يتأسس. اتصالات "عبد الله" مع البريطانيين كانت بهدف طلب دعمهم للحجاز

(44) See James Nicholson, 'The Hejaz railway', Asian Affairs, 37:3 (2006) pp 320–36 for the story of the railway.

(45) Teitelbaum, The Rise and Fall of the Hashemite Kingdom of Arabia, p 69.

في فبراير وأبريل عام 1914، ويبدو أن سعيه للاتصال بالبريطانيين كان بسبب الضغط المتنامي على والده من ناحية "وهيب"[46].

ويتضح أن "آل سعود"، وهي القبيلة التي تنافس "حسين" على السيادة في شبه الجزيرة العربية، والخاضعة أيضًا لسيادة العثمانيين، كانت لها استقلالية أكبر في أراضي صحارى نجد في وسط شبه الجزيرة العربية. الشريف "حسين" خاطر بأنه لو دفع بالأمور بعيدًا جدًا في تحديه للحكومة التركية فإنه سيجد نفسه مبعدًا من منصبه.

الشريف "حسين" أيضًا في صدامه مع العثمانيين والمتعلق برغباته في التوسع الذاتي ونيل الحماية من التعديات المتزايدة على قواته على يد الجنود العثمانيين، إضافة إلى أن شهادة التابعين له كانت "محل شك"[47]. كل هذا ساعد في عدم، وجود الكثير من الأدلة الملموسة على وجود أي ضغط أو تأثير للقوميين العرب في الحجاز، فخلال الإصلاح الاجتماعي والاقتصادي في المنطقة، لم يوجد أي من العناصر المجتمعية الرئيسية؛ صحافيين، وضباط جيش، ومثقفين، كما هو الحال في القوميات الأخرى[48].

يبدو الحديث عن "القومية" في الحجاز أمرًا خاطئًا تمامًا فالثورة العربية هناك على الأقل نشأت من تشابك الصدامات على السلطة ما بين الأسرة

---

(46) 4ei0t.elTbaum, The Rise and Fall of the Hashemite Kingdom of Arabia, pp 69-70.

(47) A I Dawisha, Arab Nationalism in the Twentieth Century: From Triumph to Despair (Princeton University Press, Princeton: 2003) p 35.

(48) See Oschenwald, 'Ironic Origins: Arab Nationalism in the Hijaz', pp 189-203.

الهاشـمية التـي اعتـبرت نفسـها مـن النخبـة وتملـك مزايـا واسـتقلالية تـم تهديـدها، والعثمانيون الراغبون في تشكيل دولة معاصرة ومركزية ولو أن العثمانيـين أبـدوا مزيـدًا من المهارة في التعامل مع "حسين" فإن الشريف كان من غير المحتمل أن يقـوم بقيـادة ثورة ضد العثمانيين، والثورة في السياسة العالمية هي التي تسببت فيها الحرب العالميـة الأولى خاصة في رغبة كل القوى في دعـم الأفـراد أو الجماعـات ذات الحزازيـات ضـمن أراضي أعدائهم لأغراض تقلل من شأن الحكومة، وهو ما منح "حسين" الكثير من الفرص لتوسيع سلطاته.

2

الحرب العالمية الأولى وصعود تيّار القومية العربية

"تركيا" تدخل الحرب

يبدو أن قرار المجموعات العليا من القادة الأتراك بدخول الحرب عام 1914، هدد مكانة الإمبراطورية العثمانية، واتضح أن أغلبية القيادة العثمانية كانت مبدئيًا تؤيد الحرب أو على الأقل الإبقاء على مبدأ الحيادية حتى يتضح أي من الطرفين سيكون المنتصر؛ جانب دول المحور؛ "ألمانيا" و"النمسا"، أم جانب دول الوفاق الثلاثي؛ "فرنسا" و"بريطانيا" و"روسيا"، وهكذا أملوا أن يتبادلوا دعمهم للمكاسب الإقليمية في بحر إيجة وفي شمال أفريقيا وآسيا الصغرى. واتضح أن مبدأ القرار السياسي انتشر وسط قادة جمعية الاتحاد والترقي، وكان من ضمنهم وزير الدفاع "أنور باشا" (1881-1922)، ووزير الداخلية "محمد طلعت" (1874-1921)[49]. كلاهما كان رجلًا نافذًا في الإمبراطورية العثمانية، وأكثر تحمسًا للتوصل إلى صياغة تتماشى مع القوة المركزية أكثر من بقية أعضاء الوزارة الآخرين، فـ"أنور باشا" مثلًا، بدا متلهفًا

(49) Ulrich Trumpener, Germany and the Ottoman Empire 1914–1918 (Princeton University Press, Princeton: 1968) pp 70–1.

على استعادة قوة الإمبراطورية العثمانية عبر الحل العسكري المشترك مع "ألمانيا"، وكان هو من بادر بحماية ووضع علم "تركيا" على سفينتين حربيتين ألمانيتين: "جوبن" و"بريسلاو" مبكرًا في شهر أغسطس عام 1914، وبعدها حصل القائد الألماني وأطقم تلك السفن على إذن بقصف القواعد العسكرية الروسية في البحر الأسود، وهو الحادث الذي جعل دول الوفاق الثلاثي؛ "فرنسا" و"بريطانيا" و"روسيا"، إلى إعلان الحرب على "تركيا" العثمانية في نوفمبر عام 1914.

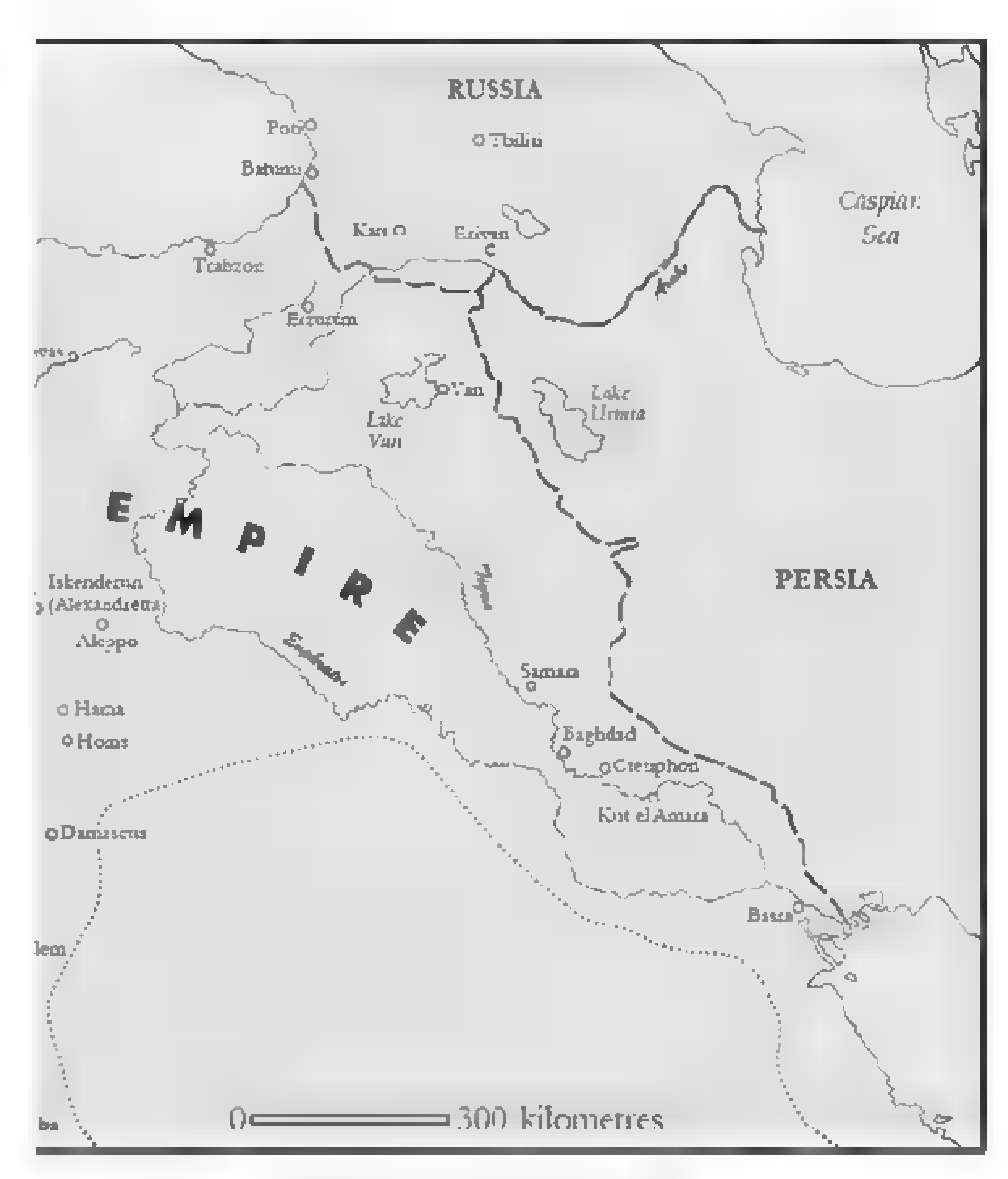
للوهلة الأولى لم تهتم قوات الوفاق الثلاثي صراحة بدخول "تركيا" العثمانية للحرب؛ حيث كان أداء الجيوش العثمانية في حرب البلقان سيئًا في الفترة بين عامي (1912-1913). بالمقارنة بدت إيطاليا مثلًا قوة عسكرية أفضل من "تركيا"، وهو السبب الذي جعل دول الوفاق تحاول كسبها لصفها، وثانيًا وفرت الإمبراطورية العثمانية فرصًا عدة للتوسع في الأراضي لتلك الأطراف، ولم يبدُ أن الأمور سارت بالطريقة التي تتمناها دول الوفاق، لكن أثبتت "تركيا" أنها مُعارض قوي ومرن يستطيع الإضرار بالبريطانيين والفرنسيين في معركة "جاليبولي" عام 1915، حيث أصابوا البريطانيين في "الكوت" في شرق بلاد الرافدين عام 1916، وهو ما أثبت بما لا يدع مجالًا للشك أن "تركيا" ليست بالضعف الذي بدت به وسط القوات المركزية.

بريطانيا والإمبراطورية العثمانية

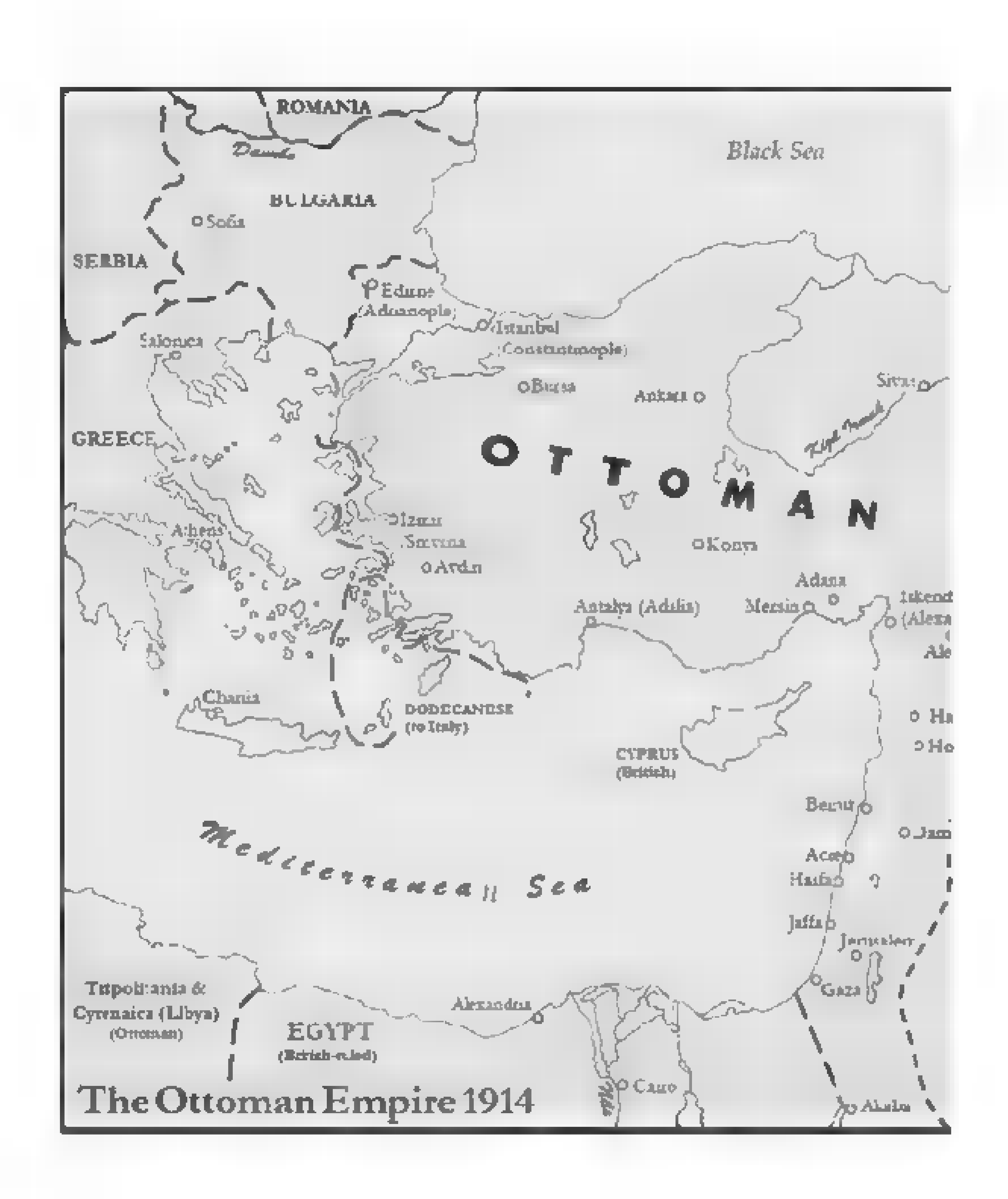
خلال القرن التاسع عشر، كانت "بريطانيا" واحدة من أشرس المدافعين وسط القوى العظمى عن إبقاء وحدة الأراضي التركية. هدفها الأساسي تمثَّل في حماية الأراضي البريطانية والمسارات البحرية للهند واعتقدت أن "تركيا" الضعيفة - التي تعيق تلك الطرق - هي دون شك أفضل بكثير من "روسيا"، التي غالبًا ستسيطر على تلك الطرق في حالة تقسيم أراضي الإمبراطورية العثمانية. ومن أجل الحفاظ على "تركيا" قطعة واحدة، سعت "بريطانيا" لتشجيع الليبرالية، والحداثة في نظام الحكم العثماني، فمن دون أي إصلاح داخلي، حتمًا ستنهار الإمبراطورية، أو ستنفصل إلى قوميات متناحرة مكوَّنة من سلافيين، وأتراك، وعرب، أو من المحتمل أن يتم تقسيمها ببساطة بين القوى العظمى. خشي البريطانيون في أغلب سنوات القرن التاسع عشر، من حيازة "روسيا" على نصيب الأسد من مثل هذا التقسيم. فبريطانيا مالت لدعم الإمبراطورية العثمانية ضد العسكرية الروسية من أجل تخفيف الضغط السياسي في البلقان ولكن أيضًا لتخفيف الضغط في منطقة آسيا الصغرى، وبين عامي 1854 و1856، حاربت "بريطانيا" ومعها "فرنسا" في حرب القرم نيابة عن "تركيا" وضد "روسيا"، ومرة أخرى عام 1878، اقتربت "بريطانيا" من حافة الحرب بسبب محاولات "روسيا" فرض سلم تعسفي "Cathaginian Peace" على "تركيا" في مؤتمر "سان ستيفانو"، وهو ما كان سيقضي فعليًا على الإمبراطورية العثمانية في أوروبا، خصوصًا بعد الحرب الروسية – التركية عام 1877. وفي مؤتمر أُعد في عجالة للقوى العظمى في

برلين في عام 1878، تم إنقاذ ما يمكن إنقاذه مما خسرته "تركيا" جراء حربها مع "روسيا"، إلا أن "تركيا" فقدت أغلب أراضيها في أوروبا.

مع هذا، عام 1878 كان هناك تغيير كبير في السياسة البريطانية، حتى الآن فإن الدعم البريطاني لم يكلف العثمانيين أي شيء. بعد عام 1878 بدأت الأمور تتغيّر، حيث قامت "بريطانيا" وباقي القوى العظمى بالاتفاق على تقليص مساحة أراضي "تركيا" في أوروبا، فحصلت "رومانيا" على الاستقلال، و"صربيا"، و"مونتينيجرو" (الجبل الأسود)، وسلمت كل من "بلغاريا" و"البوسنة" إدارتهما لـ"النمسا". حتى الدعم البريطاني لـ"تركيا" في جلسة "برلين" حصلت عليه "تركيا" فقط في مقابل استخدام جزيرة "قبرص" كقاعدة بريطانية. وفي عام 1882 احتلت "بريطانيا" "مصر" واحتلت أيضًا قناة السويس ذات المكانة الاستراتيجية. كانت "مصر" مستقلة عمليًّا منذ أوائل القرن التاسع عشر، حيث بقى السلطان العثماني حاكمًا صوريًّا، ومع هذا فإن البريطانيين بعد عام 1882 أبدوا ترددًا ملحوظًا في الانسحاب من "مصر" وأهملوا الحقوق العثمانية ورفضت "بريطانيا" أيضًا أن تنهي حالة الاستسلام المهينة المفروضة على "تركيا"، ما وفّر للمواطنين الأجانب إعفاءات بالغة من القوانين والضرائب التركية. و"بريطانيا"، مثلها مثل أي قوة عظمى أخرى، بدأت في نهاية القرن التاسع عشر بإظهار جشعها بخصوص أجزاء مهمة من التركة المتداعية للإمبراطورية العثمانية.



الإمبراطورية العثمانية عام 1914



The Ottoman Empire 1914

في منتصف عام 1890، خاصة في أعقاب عام 1907، تشكّل حلفٌ إنجليزي - روسي، وأصبحت "بريطانيا" أكثر تسامحًا حيال الطموحات الروسية نحو "تركيا" رغم أنها كانت تفضل تجنب تقسيم الإمبراطورية. نتيجة لهذا، شهد العقد الذي سبق الحرب العالمية الأولى "تخليها الذي كاد يكون كاملًا عن سياستها التقليدية المحابية للأتراك..."[50]. ظل البريطانيون متلهفين على انهيار الإمبراطورية العثمانية، لأن مصالحهم في الطرف الجنوبي من الإمبراطورية العثمانية الذي يفتح الطريق للهند يجب أن تتم حمايتها[51].

عند بدء حالة العداء في نوفمبر عام 1914 تحركت "بريطانيا" بسرعة لتأمين أهداف استراتيجية أساسية، وهكذا فإن الحامية العسكرية الموجودة في "مصر" وفي قناة السويس تم دعمها، وتم عزل الخديو المؤيد للأتراك وهناك قوة هندية تمت الاستفادة منها - ولاحقًا أُطلق عليها "قوة بلاد الرافدين" - كما أرسلت قوة استكشافية إلى الخليج الفارسي لتأمين المصالح النفطية في إيران من الهجمات العثمانية ولحماية مختلف أمراء العرب مثل أمير الكويت، الذي أقامت "بريطانيا" معه علاقات صلح ومعاهدات. كان هناك هدف آخر أقل أهمية، وهو تأمين التعاون مع باقي المتحالفين العرب، وأهم هؤلاء حلفاؤهم في شبه الجزيرة العربية لدى اندلاع الحرب العالمية الأولى هي أسرة "آل سعود" و"الشريف حسين".

---

(50) M S Anderson, The Eastern Question, 1774-1923 (Macmillan, London: 1966) p 260.

(51) See Marian Kent, 'Great Britain and the End of the Ottoman Empire, 1900-23' in Marian Kent (ed), The Great Powers and the End of the Ottoman Empire (G. Allen & Unwin, London: 1984) pp 173-85 for an account of British pre-war policy towards the Ottomans.

الجهاد والاستراتيجية الألمانية التركية:

تم دعم المطلب الملح لتأمين التحالف العربي والإسلامي بإعلان الجهاد أو الحرب المقدسة ضد دول الوفاق الثلاثي، والذي أعلنه السلطان التركي في 14 نوفمبر عام 1914، طالبًا من كل من المسلمين الأوفياء أن يثوروا ضد البريطانيين والفرنسيين والروس. ناشد القيصر الوزير التركي "أنور" كي يقوم بمثل هذا الأمر في أغسطس عام 1914 حتى قبل دخول الدولة العثمانية الحرب.

نظر الألمان للإمبراطورية الاستعمارية لدول الوفاق الثلاثي باعتبارها دولًا تمثّل خطرًا محتملًا، وتمثّل في الوقت نفسه فرصًا للقوى المركزية، فعند قيام حرب طويلة، ستتمكن دول الوفاق الثلاثي من استخدام قوّاتها، والمواد الخام، ومصادر أخرى من مستعمراتهم. مع هذا لو أن "ألمانيا" استطاعت أن تهيّج روح القومية الكامنة والتوترات العرقية والدينية الموجودة في الإمبراطوريات المعادية لدول الوفاق في أفريقيا وآسيا، فإن قيمة تلك المستعمرات في المجهود الحربي يمكن أن تقل بشدة، ولأن المتاعب في الإمبراطورية البريطانية على وجه الخصوص، يمكنها أن تكون السبب في انتصار القوى المركزية. في عام 1908، اقترح ضابط ألماني للمستشار الألماني حينذاك أنه في حال نشبت حرب و"اشتركت "تركيا" في الحلف المعادي لـ"بريطانيا" فإن المرء يتوقع حدوث ثورة شاملة لكل المسلمين الموجودين في المستعمرات البريطانية"، وهو ما سيكبل الجيش البريطاني، وجزءًا كبيرًا من البحرية البريطانية[52]. بدا "آرثر تسيمرمان"، وهو نائب وزير الخارجية الألماني، متحمسًا حيال استخدام

(52) Cited in Hew Strachan, The First World War: Vol. 1 To Arms (Oxford University Press, Oxford: 2001) p 696.

"تركيا" والروح الإسلامية التي تهيج الثورات ضد "بريطانيا" و"فرنسا" و"روسيا"، وحتى في حال وجود دعوى للجهاد، التي مثلتْ نجاحًا جزئيًا، فسوف تتسبب في تعطيلٍ هائل لقوّات الحلفاء، فقد كان بـ"الهند" حوالي 70 مليون مسلم، وما يقرب من 16 مليون مسلم في "مصر" و"السودان" تحت السيطرة البريطانية المباشرة مع 20 مليونًا في أفريقيا الواقعة تحت السيطرة الفرنسية وأعداد مشابهة من المؤيدين داخل الحدود الروسية. اهتم "أنور"، وهو المخطط الرئيسي لدخول "تركيا" الحرب، بإشعال حماسة الأتراك في القوقاز ضد الروس مع انتشار الأيديولوجيات المؤيدة للمسلمين لإشعال "مصر" والمناطق الإسلامية في "الهند" ضد "بريطانيا" على وجه الخصوص. البريطانيون خاصة كانوا قلقين بشأن إعلان السلطان التركي الجهاد، ونجاح إعلانه هذا. الآن بدت اتصالات ما قبل فترة الحرب، التي قام بها البريطانيون مع كل من الشريف "حسين" و"آل سعود"، مهمة بشكل غير متوقع، فلو استطاع البريطانيون تقسيم العالم الإسلامي، وإثارة الشك حول حقيقة دعوة السلطان للجهاد، حينها يمكن التخفيف من تداعيات الأمر.

الاتصالات البريطانية المبدئية مع الأسرة الهاشمية

في شهر فبراير عام 1914، زار "عبد الله"، ابن الشريف "حسين" الثاني، والعضو في البرلمان العثماني في القسطنطينية، المفوّض السامي البريطاني في "مصر" المارشال "اللورد كتشنر". تلك الزيارة، في الواقع، كانت بمثابة تحية، ومع هذا انتهز "عبد الله" الفرصة كي يخبر "كتشنر" أن هناك أزمة متنامية

في منطقة الحجاز بين الشريف والوالي التركي الجديد، وطالب بالدعم البريطاني في حالـة حدوث محاولة لعزل والده، وخاصة أنه طلب أن يستخدموا نفوذهم مع القسطنطينية لكي يعيقوا تقدُّم القوَّات التركية في حالة نقلها عبر قناة السويس[53]. ذلك الدعم، الـذي من غير المحتمل أن يتم منحه، لم يكن لازمًا، فلاحقًا تم الإبلاغ عن حدوث خلافات بـين "حسين" والأتراك، تمت تسويتها بشكل ودي[54]. مع هذا استمر البريطانيون في الإنصات لشائعات حول مشاعر عدم الرضا في العالم العثماني والعربي. وفي اجتماع لاحق في أبريل عام 1914، مع سكرتير الشرق في المقر البريطاني بـ"القاهرة"، "رونالـد سـتورس"، في قصر الخديو، قرر الأمير "عبـد اللــه" أن المفاوضـات في القسـطنطينية لم تنتـهِ كـما أراد لهـا والده، الذي طلب من الحكومة البريطانية دخول ما يمكن اعتباره شبه حماية مـع أمـير مكة، وهو ما سيعيق أي محاولة اعتداء تركي. لم يكن هنـاك أي احـتمال لحـدوث مثـل هذا الأمر في شهر أبريل عام 1914، لأن علاقات "بريطانيا" مع الإمبراطوريـة العثمانيـة، والتي لا تتمتع بالتوافق حتى الآن ، بقيت صحيحة بطريقة أساسية. وفي اليوم التـالي، بعد استشارة كتشنر، أخبر "ستورز" "عبد اللــه" أنـه يجـب ألا يتوقـع نيـل أي دعـم بريطاني، رغم أن "إيلي كيدوري" اقترح أن الرفض ليس قاطعًا[55]. "ستورز"، و"كتشنر"، والحاكم العام في "السودان"، و"ريجنالد ونجت"، وإدارة المخابرات في مكتـب الحـرب المصري الـذي يـديره البريطـانيون، كلهـم أقـروا بـأن الموقـف في شـبه الجزيـرة

(53) Lord Kitchener to Sir Edward Grey, 6/2/1914 reproduced in British Docs, Vol X, p 827. See also Kedourie, In the Anglo-Arab Labyrinth, p 5.
(54) Kitchener to Gray, 14/2/1914 British Docs, Vol X, p 827.
(55) Kedourie, In the Anglo-Arab Labyrinth, p 7.

العربيـة عـام 1914 وفّـر فرصًـا للحكومـة البريطانيـة للتغلغـل في المنطقـة حـال أعلـن العثمانيون الحرب على دول الوفاق الثلاثي.

"كتشنر"، الذي ظل في "لندن" وقت اندلاع العداء كي يصـير سـكرتير الدولـة لشـؤون الحرب، أمر "ستورز" بإعادة تنشيط الاتصالات مع "عبد الـلـه" في سـبتمبر عـام 1914، لأنه بات من الواضح أن "تركيا" من المحتمل أن تدخل الحرب بجانب القـوى المركزيـة. كان عليه أن يرى تصرف الشريف "حسين" حال اندلاع العداوة بين دول الوفـاق الـثلاثي و"تركيا". ويبدو أن "عبد الـلـه" وافق في رده على أن الأسرة الهاشـمية مـع البريطـانيين، رغم أنه اتضح أنه لا يوجـد أي تمـرد صريـح ضـد القـوات العثمانيـة إلا إذا حـاولوا أولًا التخطـيط لاسـتقلال "حسـين". أجـاب البريطـانيون أنـه مـن الممكـن أن يقومـوا بحمايـة "حسين" من أي عدوان، لكنهم طرحوا فكرة أن هناك احتمالية أن ينـتج الحـرب اسـتبدال السلطان العثماني بوصفه الخليفة بأحد رموز العرب[56]. "ستورز"، الـذي أُمِـر بنقـل الـرد، ربما تخطى التعليمات الواردة إليه من "لندن"، ووعد بتقديم دعم أكبر لـ"حسين" وللقضـية العربية أكثر مما هو مسـموح لـه[57]. أجـابهم "حسـين" في 8 ديسـمبر عـام 1914، أنـه لـن يسعه الانفصال عن العثمانيين في الوقت الحاضر، ولكنه سوف يقوم بهـذا الأمـر في الوقـت المناسب، كما أقر أيضًا أنه "لم يعد هناك أي خليفة في الوقت الحـالى، لأن حكـم العثمانيـين

(56) C Ernest Dawn, 'The Amir of Mecca Al-Husayn Ibn- 'Ali and the Origin of the Arab Revolt', Proceedings of the American Philosophical Society, Vol 104, No 1 (15 Feb 1960) p 22; Kedourie, England and the Middle East, pp 19, 52.

(57) ed9.ouKrie, In the Anglo-Arab Labyrinth, pp 21–2.

ما هو إلا أفعال مخالفة للدين، فالخلافة تعني تطبيق شرع اللـه وكتابه، وهـو مـا لا يفعله العثمانيون"[58].

"ستورز" قام بمبادرات محلية أخـري مـن دون الرجـوع إلى "لنـدن"، وهـو مـا ألـزم "بريطانيا" تمامًا بالالتزام بالقضية العربية، وبتيـار القوميـة العربيـة والخلافـة العربيـة. اللافت للانتباه أن "حسين" في 8 ديسمبر عام 1914، أصدر تصريحًـا عامًـا مـن حكومـة "بريطانيا" العظمى لسكّان شـبه الجزيـرة العربيـة والبلـدان العربيـة، متعهـدًا بتقـديم الاستقلال العربي معلنًا أن الخلافة هي من حـق عضـو مـن قبيلـة قـريش، عـلى سـبيل المثال، عضو مثل "الشريف حسين"[59]، تبع هذا التعهد تأكيدٌ آخر صدر في شـهر أبريـل عام 1915، وفيه تعهُّد بدعم قضية الاسـتقلال العـربي. أعلـن "سـتورز" كـذلك معارضـة "بريطانيا" لأي وجود أو تدخل من القوى العظمى في شبه الجزيرة العربية، أو المنـاطق المقدسة بها. تلك الضمانات البريطانية كانت كافية لإبقـاء "حسـين" في منصـب، فهـو لم يستجب لدعوة الخليفة للجهاد، بل أبقى على صمت مطبـق حيـال هـذا الأمـر، وهـذا الأمر في حد ذاته مثَّل مكسبًا مهمًا للبريطانيين، وفي حال تبني "حسين" بحماسـة إعـلان السلطان في 14 نوفمبر عام 1914، كانت النتيجة ستؤثر بشدة عـلى مهمـة البريطـانيين ووضعهم في "مصر" و"الهند".

(58) Joshua Teitelbaum, 'Sherif Hussein ibn Ali and the Hashemite vision of the post-Ottoman order: from chieftaincy to suzerainty', Middle Eastern Studies, 34:1 (1998) p 106.

(59) Kedourie, In the Anglo-Arab Labyrinth, pp 20–5.

سياسة الوفاق الثلاثي والشرق الأوسط:

في الوقت نفسه، الذي كان "ستورز" يقوم فيه بمبادراته، قامت قوى الوفاق الثلاثي الممثلة في كلٍ من "بريطانيا" و"فرنسا" و"روسيا" بالتفاوض حول مصير الإمبراطورية العثمانية، وبدا واضحًا أنها الآن رغبت في تحويل "رجل أوروبا المريض" إلى جثة هامدة يمكنهم تقسيم تركته بعد النصر في الحرب. علاوة على هذا، فإن "بريطانيا" بعد المعارك الدموية الأولية لعام 1914 غير الحاسمة في الجبهات الشرقية والغربية، اعتقدت أن الإبقاء على "روسيا" في حالة الحرب هو الهدف الأهم حاليًا لدبلوماسية "بريطانيا" في وقت الحرب، وهكذا فإن اشتراك الدولة العثمانية في الحرب بدا أمرًا مفيدًا من وجهة النظر تلك، لأن أراضيها سوف تُقسّم من دون مشاعر من وخز الضمير، وهو ما أزاد من الحاجة لوجود "روسيا" في الحرب. وفي نوفمبر عام 1914، أبلغ البريطانيون والفرنسيون الروس أنهم لن يعترضوا على الاستيلاء على مضيقي البوسفور والدردنيل، وهي المضايق التي تربط البحر المتوسط والبحر الأسود، وحينما هاجمت "بريطانيا" و"فرنسا" مضيق الدردنيل عام 1915، طالبت "روسيا" بمزيد من الضمانات، وفي اتفاقية القسطنطينية في مارس عام 1915 وُعِدَتْ بالحصول على القسطنطينية والمضايق لو انتهت الحرب بنجاح[60].

(60) For a more detailed discussion of British policy see Jukka Nevakivi, Britain, France, and the Middle East, 1914–1920 (Athlone Press, London: 1969) Chapter 2.

من السخرية أن "فرنسا"، بدلًا من "بريطانيا"، هي من اعترضت على مثل هذا الأمر[61]، فكل من القوتين شعرتا الآن أنه في حال حازت "روسيا" تلك الجائزة الرائعة فإن هدف رجال السياسة الروس، منذ حكم "بيتر الأعظم" في الحصول على التعويضات من المكاسب الهائلة للأراضي في أجزاء أخرى من الإمبراطورية العثمانية، سيتحقق، كما أن "فرنسا" كانت لها قائمتها الخاصة بالأراضي؛ من قِلِيقِيَا و"سوريا" و"فلسطين"، ففي مارس عام 1915، طالب "إدوارد جراي"، وزير الدولة للشؤون الخارجية من وزارة الحرب في الوزارة البريطانية، بأن يضع في اعتباره ما إن كانت "بريطانيا" ستؤسس دولة إسلامية أخرى لتهدئة الرأي العام الإسلامي في "الهند"، وخاصة بما للمعنى الجوهري للإمبراطورية العثمانية، فمن وجهة نظر "جراي" هناك موقع آخر يصلح لذلك الأمر؛ في الأراضي التي تقع في شبه الجزيرة العربية، وفي بلاد الرافدين، وفي "سوريا".

اقترح "كتشنر" في بحث توقعي أيضًا في مارس عام 1915، أنه "من مصلحتنا أن نرى مملكة عربية في شبه الجزيرة العربية تحت رعاية إنجلترا، ويحدها شمالًا وادي دجلة والفرات وفي وسطها تضم الأراضي الإسلامية المقدسة مثل مكة والمدينة وكربلاء". اعتقد "كتشنر" أنه في أعقاب النصر، فإن وضع "روسيا" في الشرق الأوسط سيكون أقوى من السابق بطريقة لا يمكن تخيلها، وأن "بريطانيا" عليها التفكير في حيازة الأراضي أو في بسط نفوذها من البحر

(61) Kedourie, In the Anglo-Arab Labyrinth, Chapter 2; Monroe, Britain's Moment in the Middle East, Chapter 1; and Isaiah Friedman, The Question of Palestine, 1914-1918; British-Jewish-Arab Relations (Schocken Books, New York: 1973) Chapter 2.

الأبيض المتوسط إلى الخليج الفارسي لحماية طريقها إلى "الهند". وحقًا فإن "كتشنر" منح اعتبارات جادة لبناء السكة الحديد من لواء الإسكندرونة على ساحل البحر الأبيض المتوسط وصولًا إلى البصرة في مقدمة الخليج، حيث يتم نشر القوات البريطانية بسرعة لدعم الحامية العسكرية الهندية. حينها، كان يوجد اعتراض عام في الوزارة بخصوص ما يجب على "بريطانيا" أن تسعى للحصول عليه، وما يجب عليها إهماله. استنتج "اسكويث"، الذي شارك مشاعر "جراي" غير الهادئة حول عملية تقسيم الأراضي، أنه لو لم يتم التنافس على الأراضي العثمانية، فإن "بريطانيا" ستهمل واجبها، الذي يحتم عليها التوسع والحصول على شيء ما لنفسها[62].

تم عقد لجنة إدارية تُدعى لجنة "دو بنزن"[63] في أبريل عام 1915، عُهِدَ إليها بمعرفة المناطق التي تنصب فيها مصالح "بريطانيا" الإقليمية في فترة ما بعد الحرب، وبدلًا من تقسيم "تركيا" الآسيوية، فقد أوصت اللجنة بتفضيل طريقة دوائر النفوذ، رغم أنها رسمت أربع خرائط، تضمنت فيها رسمين مختلفين، واحدًا يتعلق بدوائر النفوذ والآخر يتعلق بالمناطق التي أصبحت اليوم "سوريا"، و"العراق"، وأيضًا "فلسطين"، كما حصل الكيان الأرميني على استقلاله كجزء من خطة اللامركزية التي تخص الإمبراطورية العثمانية.

(62) Kitchener's paper is quoted in Nevakivi, Britain, France, and the Middle East, p 18. Asquith is quoted in p 17.

(63)The paper entitled 'British Desiderate in Turkey and Asia: Report, Proceedings and Appendices of a Committee Appointed by the Prime Minister, 1915', PRO CAB 27/1, pp 3-29 is substantively reproduced as Doc. 12 in J C Hurewitz, The Middle East and North Africa in World Politics 2 (Yale University Press, New Haven: 1979) pp 26-45.

في ظل تلك النظم، تم تخيُّل وجود دولة عربية مستقلة تتحكم في شبه الجزيرة العربية، وبقيت سياسة "بريطانيا" الشرقية مشوشة، بسبب عدم وجود أي صوت يتحدث في هذا الشأن إلا عشرين إدارة أو مجموعة مكاتب في الدولة لديها مصالح مع "لندن"، بينما الموظفون في "القاهرة" و"دلهي"، وأيضًا القادة العسكريون تمتعوا بسلطة لإدارة سياساتهم الأجنبية الخاصة والمستقلة نوعًا ما، وغالبًا ما اتضح لنا في ظل وجود القليل، أو عدم وجود توضيح من "لندن"، حيث بدا أن اختبار الوضع البريطاني في مستقبل الشرق الأوسط خلال الحرب أمر صعب - وإن لم يكن مستحيلًا - لأن البريطانيين انقسموا في وجهات نظرهم وتباينت رؤاهم، ناهيك بحلفائهم، مثل الأسرة الهاشمية.

المفاوضات العربية - الإنجليزية عام 1915

في يناير عام 1915، صار السير "مكماهون" "هنري مكماهون" المفوض السامي في "مصر" خلفًا لـ"كتشنر"، وقد بدأ في استطلاع مؤقت بشأن كيفية تشجيع العرب على الانفصال عن العثمانيين. في شرق ووسط شبه الجزيرة العربية، تمتع البريطانيون بنجاح بارز في اكتساب الدعم من قادة القبائل العربية الصغرى مثل؛ أمير الكويت، و"آل سعود"، وقائد نجد، و"الإدريسي" في عسير، حيث انضموا جميعًا للجانب البريطاني منتصف عام 1915، وفي الوقت نفسه، كان "حسين" تحت ضغط من الأتراك، ليعلن تأييده الخليفة في دعوته للجهاد. وبالفعل، كان "حسين"، نظريًا، يظهر تأييدًا معقولًا للخليفة، أمّا عمليًا، فرفضه للخليفة كان يتزايد يومًا بعد يوم. علنًا، أكّد للأتراك على حالة

الضعف التي يعاني منها ساحل الحجاز في حال شن البريطانيين هجومًا من "مصر" و"السودان"، أمّا سرًا، فهو كان يخطط، بجرأة، للتحالف مع البريطانيين. الحافز وراء رغبته هذه لم يكن واضحًا. كان من المزعوم أن طموح "حسين" الأساسي هو أن يصبح هو الخليفة ولا نجد هنا سوى القليل من الأدلة على عروبته في تلك المرحلة[64]. هناك عامل دال في تحفيز هذا الشعور بالصدمة مع العثمانيين والذي كشف عن نياته في شهر يناير عام 1915، عندما اكتشف أن جمعية الاتحاد والترقي كانت تخطط لعزله، ولكن اندلاع الحرب عطّل مخططها.

في مارس عام 1915، أرسل "حسين"، الذي لا يزال يميل إلى الهدنة مع الأتراك، ابنه "فيصل" مع الوثائق التي تتعلق بالوزير الأعظم في القسطنطينية، وربما كانت تلك الحيلة للسماح لفيصل بإجراء اتصال في دمشق مع جماعات القوميين العرب مثل جماعات فتح والأحد، ومع هذا فإن انطباعات "فيصل" المبدئية عن تلك الجماعات أنها لم تكن قوية بما يكفي كي تثور ضد العثمانيين من دون نيل الدعم من الخارج[65]. ذهب "فيصل" إلى القسطنطينية، وبقي هناك لمدة شهر يسعى للتوصل إلى اتفاق مع الحكومة حول موضوع المكيدة التي حيكت ضد والده، ويبدو أن الرجال البارزين في الحكومة والسلطان، والوزير الأعظم، و"طلعت" و"أنور" كلهم أنكروا أي معرفة بالأمر ووعدوا بنقل الحاكم التركي من الحجاز، ومع هذا فإن الأتراك أيضًا أوضحوا أنهم لن يتجهوا لدعم وضع "حسين" يعلن تأييده لدعوة السلطان للجهاد ضد العثمانيين. أقسم

(64) Kedourie, England and the Middle East, pp 48–56.

(65) Dawn, 'Ottomanism to Arabism', p 28.

"فيصل" بالولاء للعثمان، ووعد بإمداد "تركيا" بالقوات للمساعدة في شن الهجمات التركية على قناة السويس. على أي حال، كل هذه كانت وعودًا كاذبة. في الواقع، "فيصل" لم يشعر أبدًا بالرضا عن الأتراك، وتأكد من اقتناعه بأن الموقف الحالي لا يمكن أن يستمر.

لدى عودته مرة أخرى للحجاز في مايو عام 1915، توقّف "فيصل" في دمشق لاستشارة القوميين العرب، الذين يعانون من الضعف بعد لقائهم الأخير بفرق تركية عسكرية. كما أن معظم المناطق الواقعة تحت الحكم العثماني في منطقة "الهلال الخصيب"، تم تقسيمها وإرسال قواتها إلى الجبهة في "جاليبولي" وفي منطقة "القوقاز". لم يوجد أي أمل في تمرد فرقة من الجيش في "سوريا". ألح القوميون على الأسرة الهاشمية السعي للتوصل إلى اتفاق مع البريطانيين على أساس من الشروط التي تم الاتفاق عليها مسبقًا، والتي تحددت في وثيقة أشار إليها "أنطونيوس" بوصفها تمثل بروتوكول دمشق، وبدأت ثورة واسعة ضد السلطان[66]. تلك الوثيقة التي بموجبها سيشكل العرب تحالفًا مع "بريطانيا" ورفع السلاح ضد الأتراك. كانت مطالبة واسعة النطاق من المناطق المتحدثة باللغة العربية للاستقلال عن الدولة العثمانية. بدا "فيصل" متشككًا بأن البريطانيين سيتقبلون هذه الوثيقة. كان كذلك متشككًا في نجاح الثورة، لكن، على الرغم من شكوك الأمير "فيصل"، فإن تلك الوثيقة شكلت لب رسالته الأولى في يوليو عام 1915، لـ"مكماهون"[67].

(66) Antonius, The Arab Awakening, p 79.

(67) Fromkin, A Peace to End All Peace, pp 174-6.

استمر الأمير "فيصل" في المراهنة على كل مرحلة، واعدًا "جمال باشا"، بتقديم الدعم من الحجاز للقيام بأي شيء. كان "جمال باشا" رجلًا متحمسًا جدًّا لوجهة النظر الإسلامية، وكان قائدًا تركيًا في "سوريا" منذ ديسمبر عام 1914، ظل يلح على "حسين" ويحاول إجباره لقبول دعوة السلطان للجهاد. "فيصل"، الذي كان نصيرًا للثورة في مرحلة ما - بدا حذرًا من توقيتها، حينما التقى هو ووالده وأخوه "عبد الله" في مجلس حرب في يونيو عام 1915، قال "فيصل" إنه متلهف لرؤية "تركيا" ضعيفة، قبل أن يحتل العرب الميدان، أمّا "عبد الله"، فبدا متلهفًا على التقدم بكل سرعة ممكنة. بدا أيضًا وكأنه متحفز بدافع الخوف من أنه إذا لم يتحرك العرب بسرعة، فإنهم سيفقدون كل حقوقهم في مؤتمر السلام: "الحرب لها نتيجة واحدة فقط بالنسبة للعرب: سيبقون في شرك وجود حكومة طاغية، سواء فاز الأتراك أو الألمان أو الفرنسيون أو البريطانيون. كان من الضروري أن نقوم بإعلان الحركة العربية لكي نهرب من النتيجة الحتمية للحرب، ألا وهي الإذعان لحكم أجنبي"[68] - الأمير "عبد الله".

كان "عبد الله" هو أكثر أبناء الأسرة الهاشمية التزامًا لفكرة الثورة، وهو ما لاحظته بالسلطات العثمانية، التي - بحسب زعمه هو - حاولت أن تشتريه بالهبات، وبجعله واليًا على اليمن، حيث أَسَرَّ إلى "تي. إي. لورانس"، أنه حتى من دون حرب فهناك دون شك ثورة، بدأت بـ"حسين" وحلفائه حين أخذوا الحجّاج رهائن خلال موسم الحج. هذا التصرف هدفه هو جذب القوى العظمى، ومن ضمنها "بريطانيا" و"فرنسا" لإجبارهم على عقد هدنة، وهو ما كان سيمنح الملك

(68) Dawn, 'The Amir of Mecca Al-Husayn Ibn-'Ali and the Origin of the Arab Revolt', p 24.

"حسين" مناعة ضد الضغوط التركية في المستقبل، تلك الخطة الخيالية والافتراضية كان يمكن أن تُنفذ عام 1915، ولكن الحرب تسببت في تأجيلها[69]. دعم "حسين" منطق "عبد الله" أن الوقت قد حان للمطالبة بمشاركتهم في مؤتمر السلام أعقاب الحرب. كان من المقرر عرض تحالفهم مع "بريطانيا" مقابل قبولها المطالب المقدمة في بروتوكول دمشق. هناك خطاب غير موقع أرسله "حسين" إلى "هنري مكماهون"، وهو عبارة عن رسالة من "عبد الله" إلى "رونالد ستورز" مؤرخة بيوم 14 يوليو عام 1915.

بعض المؤرخين شككوا في دعم "حسين" المفاجئ لتيار القومية العربية، "ماري ويلسون" مثلًا، اعتبرته خدمة مميزة لا تفيد في الواقع إلا لتحقيق أغراض ذاتية، لأن دافع "حسين" الأساسي تمثَّل في كراهيته للطرق المركزية والعلمانية التي تتبعها جمعية الاتحاد والترقي[70]. بالفعل كانت شكوك القيادة العلمانية لجمعية الاتحاد والترقي في القسطنطينية عاملًا أساسيًا للعديدين في منطقة الحجاز، حيث اعتقد "حسين" أن العثمانيين قد خسروا حقوقهم لصالح الخليفة وأنه أكثر القادة المناسبين لتزعم مثل هذا المنصب، ومع هذا فإن عامل التركيز على الحماسة الإسلامية ربما هو ما قاد البريطانيين الذين تمتعوا بوجود الإمبراطورية ذات التعداد الإسلامي الأكبر، أن يعاودوا التفكير مرة ثانية في دعم "حسين"، ومن الآمن أن تغلق القضية تحت شعار القومية العربية، والتي في ذلك الوقت لم تمثِّل أي تهديد للمصالح البريطانية. وبحسب

---

(69) T E Lawrence, report, 13 May 1917, NOTES ON HEJAZ AFFAIRS Arab Bulletin (13 May 1917).

(70) 2y2C. MWailrson, 'The Hashemites, the Arab Revolt, and Arab Nationalism', in Rashid Khalidi et al (eds), The Origins of Arab Nationalism (Columbia University Press, New York: 1991) p 214.

أستاذ التاريخ "إفرايم كارش" الذي قال إن الثورة هي "غرض "حسين" الشخصي للحصول على إمبراطورية، فالشريف ليس بطل التحرير القومي الساعي إلى تحرير الأمة العربية المقيدة في سلاسل الأسر العثماني، فقد كان في الوقت نفسه يملك طموحًا إمبرياليًا متلهفًا على استغلال الفرصة السانحة لاستبدال إمبراطوريته الخاصة بما في أيدي العثمانيين"[71]. الرأي التاريخي بدا مجتمعًا على أن دوافع "حسين" لا تتعلق فقط بالقومية العربية بأي حال من الأحوال، ومع هذا وُجِدَ جدال نشب حيال ماهية طموحات "حسين" الفعلية، وهل كان يسعى إلى بناء إمبراطورية شخصية أم إلى نيل منصب الخلافة؟ بقي الدليل غير واضح بالمرة.

(71) Efraim Karsh and Inari Karsh, 'Myth in the Desert, or not the Great Arab Revolt', Middle Eastern Studies 33:2 (1997) p 267.

3

التفاوض على الدولة العربية

بحلول يوليو عام 1915، تدهور الوضع البريطاني في الشرق الأوسط إلى حد كبير، حيث كان الهجوم الفرنسي الإنجليزي على "جاليبولي" هدفه توجيه ضربة قاضية إلى "تركيا"، والتي فشلت بشكل واضح، وهو ما أدى إلى انسحاب القوة الاستكشافية بنهاية العام. أصبح "حسين" تحت حماية الإنجليز بعد قيادته الثورة ضد الأتراك. على أساس هذا، جاءت مناورة "حسين" الجريئة متمثلة في رسالة أرسلها في 14 يوليو عام 1915. هذه الرسالة كانت أولى الرسائل التي عُرفت فيما بعد باسم "مراسلات "حسين" - "مكماهون"". طالب فيها أن يتم الاعتراف به ملكًا للدولة العربية التي تضم شبه الجزيرة العربية كاملة (من دون احتساب عدن)، وشمالًا حتى مدينة "مرسين" جنوب "تركيا" ويحدها البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر والخليج الفارسي و"إيران". تلك المنطقة تشمل "سوريا" حاليًا و"فلسطين" و"الأردن" و"العراق" و"السعودية" ودول الخليج وأغلب مناطق

"اليمن"، وأراد أيضًا من "بريطانيا" أن توافق على تنصيبه خليفة العرب"[72]. ليست مفاجأة أن الموظفين البريطانيين في "القاهرة" اعتقدوا أن مطالب "حسين" غير واقعية بالمرة، كتب "رونالد ستورز"، السكرتير البريطاني في الشرق، لاحقًا: "ما زلت أؤمن أنه في ذلك الوقت، كان الشريف لا يفعل سوى التحدث، والحكومة البريطانية لا تفعل سوى فتح محفظتها. نحن لم نستطع أن نخفي عن أنفسنا، وعنه - بصعوبة - أن ادعاءاته لم تكن سوى نوع من الملهاة المأساوية"[73].

ومع هذا فإن الضربة المسددة إلى ثقة البريطانيين والتي تسبب فيها الهجوم في معركة "جاليبولي"، نجد لها دليلًا في قرار عدم رفض مطالب العاهل العربي التي تجاوزت الحدود. قررت الحكومة البريطانية، من خلال المفوض السامي في "مصر" السير "هنري مكماهون"، الدخول في سلسلة مطولة من المراسلات بلغ عددها 10 رسائل مع حسين[74]. تبادل المعلومات الذي تم بين "ماكماهون" و"حسين"، انتهى بتحالف عسكري بين "بريطانيا" والأسرة الهاشمية استمر لمدة تزيد على 40 عامًا، ومع هذا، هناك مراسلات تبدو أقل وضوحًا وأكثر غموضًا فيما يتعلق بالاتفاقيات السياسية التي أبرمت. جوهريًا، المسائل التي بقيت من دون حل، هي تلك التي تدور حول درجة استقلال

(72) Amir Abdullah to Ronald Storrs, 14 July 1915. The correspondence can be found in Great Britain, Parliamentary Papers, 1939, Misc. no 3. Cmd 5957.

(73) Ronald Storrs, Orientations (I. Nicholson & Watson,London: 1939) pp 160-1.

(74) The correspondence can be found in Great Britain. Parliamentary Papers, 1939 Misc. no 3, Cmd. 5957 or in Antonius, The Arab Awakening, Chapter 6.

العرب ومدى وحجم استقلالية تلك الدولة العربية[75]. لماذا كانت تلك هي الحالة؟ جادل "أيلي كيودري" أن الردود البريطانية تبدو غامضة بشكل متعمد وغير واضحة[76]. آمن "ماكماهون" بأن مهمته هي "إغراء الشعب العربي باتباع المسار الصحيح والابتعاد عن العدو وكسبهم لصالحنا"[77]. ربما كتب في تلك المراسلات أكثر مما كان مصرحًا له. كان من صميم المصلحة البريطانية أن يعتقد "حسين" بوجود المزيد على الطاولة أكثر مما تم عرضه في الواقع، بينما في الوقت نفسه، فإنه عند قراءة تلك المراسلات، سيجد القارئ لها أن الوعود البريطانية غامضة جدًا لدرجة أنه لن يستطيع معرفة ما وعدت به "بريطانيا" بالتحديد، فالكلمات التي تم اختيارها سمحت بدرجة معينة من الإنكار.

وهكذا فإن استجابة "مكماهون" الأولى تمثلت في إرسال رسالة في 30 أغسطس عام 1915 وهي عبارة عن إجابة مراوغة تدعم تحرير العرب من الحكم التركي ووجود خليفة عربي، ومع هذا فإن "مكماهون" شعر أنه من السابق لأوانه أن يقوم بمناقشة التفاصيل في وسط أتون من حرب مستعر، بينما "تركيا" ظلت متمسكة بحكمها. كانت هناك إشارات متزايدة على أن تأثير الأسرة الهاشمية في "سوريا" ضعيف جدًا، وأن العرب السوريين يميلون الى تأييد العثمانيين، وهكذا طالب "حسين" في 9 سبتمبر بوصف دقيق لحدود

(75) The following draws on Kedourie, In the Anglo-Arab Labyrinth, Chapter 2, Monroe, Britain's Moment in the Middle East, Chapter 2, Friedman, The Question of Palestine, Chapter 6, and Briton Cooper Busch, Britain. India and the Arabs, 1914-1921 (University of California Press, Berkeley: 1971) Chapter 2.

(76) Kedourie, In the Anglo-Arab Labyrinth, p 4.

(77) Kedourie, In the Anglo-Arab Labyrinth, p 120.

الدولة العربية المزعومة، حيث كتب أن الفشل في التعامل مع مثل هذا الأمر ربما يعني التلميح بوجود "إقصاء أو شيء من هذا القبيل"[78].

مـن المحتمـل أن المراسـلات قـد انتهـت عنـد هـذه النقطـة إلى المعارضـة أو أن البريطانيين قد سلكوا اتجاهًا أقـوى مـع "حسـين"، ومـع هـذا فهنـاك تطـورات جديـدة طرأت، حيث كانت هناك مهمة سرية بـ"القاهرة" يقوم بها "محمد شريف الفـاروقي"، وهو جندي عربي في الجيش العثماني ورجل بارز في المجموعة القومية العربية "الأحـد"، وفي لقاء مع العميد "كلايتون"، رئيس المخابرات العسكرية في "القاهرة" في خريف عـام 1915، أوضح أن المجتمعات القومية العربية السورية على استعداد للقتـال في صـفوف البريطانيين، وفي المقابل فإنه أراد الحصول عـلى دعـم بريطـاني صريـح للدولـة العربيـة المستقلة، وإن لم يحصلوا على مثل هذا الدعم فإنهم سوف يوفرون دعمًا كاملًا لكل من "تركيا" و"ألمانيا" في الحرب[79]. من المقبول حاليًا، وبشـكل عـام، أن "الفـاروقي" بـالغ في تقدير أهمية وثقل تيَّار القومية العربية واتصالاته مـع الأتـراك والألمـان، فـلا يوجـد أي دليل على أن الأتراك يملكون أي مصالح في وجود أو بقاء تيار القومية العربيـة، والألمـان لم يكونوا ليجروا مفاوضـات خلـف ظهـور حلفـائهم بهـذه السـهولة. ومـع هـذا توجـد مقابلات وتقارير اتضح أنها أدت بالموظفين والجنود البريطانيين في "القاهرة" إلى الاستنتاج أنه يجب تقديم صفقة مقبولة للشريـف "حسـين" في أقـرب وقـتٍ ممكـن. كـان "اللـورد كتشنر" في "لندن" داعمًا ومؤيدًا قويًا لإبقاء العرب إلى جانب البريطـانيين، حيـث قـال: "لا

(78) From Sherif Hussein to McMahon, 9 September 1915 in Cmd. 5957.

(79) Fromkin, A Peace to End All Peace, pp 176–80.

بد أن تبذل كل ما في وسعك لمنع (أي) إبعاد للعرب. يجب أن يكون الولاء لإنجلترا"، وهو ما أقرّه بصراحة شديدة[80]. ربما آمن أن التمرد العربي في "سوريا" بقيادة وحدات الجيش المنشق ربما كان من الممكن أن تنقذ حملة "جاليبولي" التي كانت على حافة الانهيار[81].

تم منح "ماكماهون" الحرية في صياغة رد السير "إدوارد جراي"، وزير الخارجية، الذي مال إلى اتباع سياسة مغازلة العرب. ومع هذا فإن "جراي" خشي من أن تقديم الكثير من الوعود للعرب ربما يتسبب في حدوث اختلافات مع الفرنسيين، الذين من المحتمل أن يعتبروا "حسين" مفوضًا من البريطانيين. قام "مكماهون" دون استشارة أعضاء إدارة "وايتهول"، خاصة زملاء مكتب "الهند"، الذين شعروا بالذهول حينما أدركوا بما تم عرضه، بإرسال خطابه هذا إلى "حسين" في 24 أكتوبر عام 1915. ومعناه الأساسي صار مصدرًا للجدال المحتدم في الشرق الأوسط وأيضًا أساسًا للسرد الواقعي للمؤرخين[82]. بسبب أهمية ذلك الخطاب، ألحقته بالكتاب. جاء الخطاب كالتالي:

---

(80) Friedman, The Question of Palestine, p 72.

(81) Fromkin, A Peace to End All Peace, pp 177-8.

(82) Kedourie, England and Middle East, Chapter 2; Monroe, Britain's Moment in the Middle East, Chapter 2; Friedman, The Question of Palestine, Chapter 6; and Busch, Britain, India and the Arabs, Chapter 2.

من رسائل "مكماهون" إلى الشريف "حسين" في 24 أكتوبر عام 1915:

"اثنان من الأقاليم المسبقة ولواء الإسكندرونة وأجزاء من "سوريا" التي تقع غرب دمشق وحمص وحلب، لا يسعنا أن نطلق عليها مناطق عربية ويجب استثناؤها من الحدود التي طالب بها العرب وفق التعديل الوارد عالية، ومن دون استثناء إلى الاتفاقيات الحالية مع الرؤساء العرب فإننا نقبل تلك الحدود وبالنسبة إلى تلك المناطق التي تكمن داخل تلك الحدود - لـ"بريطانيا" الحق في التصرف فيها من دون الإضرار بمصالح حليفتها "فرنسا" - وأنا مخول لي باسم حكومة "بريطانيا" العظمي أن أوفر التوكيدات الحالية مقدمًا الرد التالي على خطابك:

1- وفق التعديلات الواردة عالية؛ فإن "بريطانيا" العظمى مستعدة للاعتراف بتقديم الدعم لاستقلال العرب في المناطق الموجودة حول الحدود التي طالب بها شريف مكة.

2- ستضمن "بريطانيا" العظمى قدسية الأماكن الشريفة ضد أي اعتداء خارجي وستعترف بعدم انتهاك تلك الأماكن.

3- في حال سمح الموقف، فإن "بريطانيا" العظمى ستقدم للعرب النصح وتساعدهم في تأسيس أفضل شكل مناسب للحكومة في تلك الأراضي.

4- وعلى الجانب الآخر، من المفهوم أن العرب قرروا السعي لنيل النصح والتوجيه من "بريطانيا" العظمى فقط، وأن مثل هؤلاء المستشارين الأوروبيين والموظفين ربما يكونون لازمين لتشكيل الإدارة الجيدة البريطانية.

5- وفيما يتعلق بولايات "بغداد" والبصرة فإن العرب سيعترفون بالمنصب المقترح وتأمين مصالح "بريطانيا" العظمى التي تنص على وجود تحضيرات

إدارية مناسبة من أجل تأمين تلك الأراضي من أي عـداء أجنبـي لترقيـة صـالح التعـداد السكاني المحلي ولتأمين مصالحنا الاقتصادية المتبادلة.

ما الذي تعنيه إذن تلك الاستثناءات البريطانية؟ يبدو أن الافتقار إلى خريطة مرفقة بالرسالة تركت قضايا معينة صالحة للتفسير بشكل مختلف؛ هل كانت "فلسطين" حقًّـا مدرجة في الاستثناءات التي قام بها البريطانيون؟ وكم حجم الأراضي في "سوريا" التي تم استثناؤها بحلول نهاية عام 1915؟ حيث يبدو أن النقطة الوحيدة اللافتة للنظر ما بـين "ماكماهون" و"حسين"، كانت تدور حول بضع أراضٍ معينة تقـع في سـوريا؛ أي ولايـات حلب وبيروت، والتي أوضح الفرنسيون أنهم رغبوا في أخذها لأنفسهم بعد الحرب.

كتب "حسين" رسالة لـ"ماكماهون" في 16 يناير عام 1916 ليخطره أن تلك المنـاطق يجب أن تشكل جزءًا من المملكة العربية. ومع هذا فقد فهم الحاجـة لوجـود علاقـات متناغمة بين "بريطانيا" و"فرنسا"، وهو السبب وراء عدم إلحاحه بخصوص الأمـر حتـى تنتهي حالة العداء. للتلخيص، فإن البريطـانيين نجحـوا في اسـتثناء منـاطق هامـة كـان "حسين" يريدها لمملكته، مقابل دعم دول الوفاق الثلاثي للثورة العرب ضد العثمانيين.

مع هذا، فإن "حسين" لم يرضَ عن رد البريطانيين، واستمر في التفكير في إمكانية شن ثورته الخاصة. أمّا "جمال" - القائد التركي في "سوريا" - فقد وضعه تحت ضغط متزايد لتوفير قوة عسكرية في الحجاز ووجب إرسال "فيصل" ليقابله. في الوقت نفسه، فإن الأتراك بدأوا في مطاردة الجماعات القومية العربية في "سوريا" وداخل الجيش. وهو ما دفع "فيصل" للاعتقاد أن قوميي الصف الثاني في الجيش هم فقط المتوفرون لشن الثورة. استمر "حسين" في لعب لعبة مزدوجة، حيث قبل عرض "ماكماهون"، وشرع البريطانيون في شحن الذهب والأسلحة إليه في ربيع عام 1916، ولكنه استمر أيضًا في علاقاته مع الحكومة العثمانية. أمّا "فيصل" فإنه سعى للحصول من "جمال" على ضمان أنه في حال أرسل "حسين" قوة لمساعدة العثمانيين، فإنه فيما بعد يجب عليه أن يحصل على "سوريا" من دون وجود حاكم تركي، لكن بالطبع لم يمنحه جمال هذا التوكيد.

أما "أنور باشا" فقد ضغط على "حسين" في ربيع عام 1916، وأجابه "حسين" بقائمة مشتريات وطلبات. لن يستجيب "حسين" لأي دعوات للجهاد ما لم تتم تلبية المطالب العربية، ومن ضمنها إطلاق سراح السجناء السياسيين من العرب، والسعي لتوفير أو منح الاستقلال للجزء العربي من الإمبراطورية، والاعتراف بالإمارة الهاشمية بوصفها ميراثًا أو إرثًا للهاشميين. "حسين" الآن اقترب جدًا من تهمة الخيانة، حيث رفض "أنور باشا" الأمر بإصرار - بشأن مطالب "حسين" لإطلاق سراح السجناء - وحذّره "جمال" من أن وضعه خطر في حالة انتصر الأتراك في الحرب. شعر كل من "أنور" و"جمال" بانفصال وشيك عن "حسين"، فشرعت

القوات التركية في الإعداد لمجابهة ثورة عربية وشيكة، وعلى هذا، قـرر "حسـين" عنـدما رأى هذه الأعداد، أنه يجب أن يتخذ المبادرات، فأرسل أبناءه الثلاثـة، "فيصـل"، و"عبـد اللـــه"، و"عـلي"، لإعـداد الحجـاز للثـورة. الرسـائل النهائيـة التـي تـم إرسـالها إلى القسطنطينية مطالبة بتلبية مطالب العرب لم تنل أي استجابة، فبـدأت الثـورة العربيـة في 5 يونيو عام 1916 بحكم "حسين" لمكة، وسلسلة من الهجمات المتوازية على القوات التركية والبنية التحتية في الحجاز[83].

اتفاقية "سايكس بيكو"

يبـدو أن القيمـة الأدبيـة لكتـاب "تومـاس إدوارد لـورانس"؛ "الأعمـدة السـبعة للحكمة"، والبراعة السينمائية الساحقة لفيلم المخرج البريطاني "ديفيـد لـين" في عملـه الملحمي عام 1962 "لورانس العرب"، هـما مـا صبغا وجهـة النظـر الشـعبية الغربيـة حيال الثورة العربيـة، وعـلاوة عـلى هـذا فـإن كتـاب "جـورج أنطونيـوس"؛ "الصحوة العربيـة" سـاعد عـلى تشـكيل المفـاهيم العربيـة الخاصـة بـالثورة وحـول التفكـير في الخديعة المزعومة لـ"بريطانيا"، كما نجد أن الصـحف الأكاديميـة الكـبرى حـول الشرق الأوسط والتاريخ المعاصر، وأيضًا الكتب التي لا حصر لها امتلأت بالمقالات التي تنتقـد الأسرة الهاشـمية، فالبريطـانيون والفرنسـيون والنقـاد الأكـاديميون والمؤلفـون، مثـل "سيلفيا حاييم" و"إيلي كيـودري" انتقـدوا "أنطونيـوس" في أوائـل العـام 1950، وأهـم

(83) Dawn, 'The Amir of Mecca Al-Husayn Ibn-'Ali and the Origin of the Arab Revolt', pp 24–6.

العناصر في الزعم العربي بالخديعة من طرف "بريطانيا" هو الاتفاق السري "سايكس بيكو" لعام 1916، الذي نشره البلاشفة في أواخر عام 1917 في أعقاب ثورة أكتوبر، وإعلان بلفور في نوفمبر عام 1917. فكلتا الوثيقتين وفقًا إلى نقادها هي العكس تمامًا في معناها وأسلوبها من مراسلات "ماكماهون-حسين"، ومثلًا، وعلى وجه الخصوص، نرى أن اتفاقية "سايكس بيكو" عبارة عن اتفاقية هي في الوقت نفسه وثيقة مثيرة للجدل بشكل عميق. وهو ما سنقوم بمناقشته الآن.

سير "مارك سايكس"[84]، وهو بارون وعضو برلمان في حزب المحافظين، كان رجلًا ثريًا ذا خبرة واسعة، سافر للعديد من البلدان في الإمبراطورية العثمانية والشرق الأوسط. بعد فشله في إتمام دراسته في كامبريدج أمضى عدة سنوات في الارتحال إلى بلدان الإمبراطورية العثمانية، والشرق الأوسط، ومن ضمنها أربع سنوات أمضاها في السفارة البريطانية في القسطنطينية. بعد انتخابه عضوًا برلمانيًا في حزب المحافظين عام 1911، صار خبير حزبه في شؤون الإمبراطورية العثمانية. وبفضل علاقة الصداقة التي ربطته بالمقربين من "كتشنر"، حاز على منصب في مكتب الحرب قبل أن يصبح ممثلًا لتلك الإدارة في لجنة "دي بنزن"، فمعلوماته حول الشؤون العثمانية سمحت له بالتأثير على نتائج اللجنة، وبعدها بفترة قليلة، أرسل الى مهمة تبلغ مدتها ستة أشهر لاكتشاف حقيقة الوضع في البلقان وفي الشرق الأوسط، وسرعان ما أدرك

(84) Bruce Westrate, The Arab Bureau: British Policy in the Middle East, 1916–1920 (Pennsylvania State University Press, University Park, Pa: 1992) pp 26–9 and 153. See Kedourie's views of Sykes in England and the Middle East, Chapter 3.

"سايكس" بسرعة، الشقاق الحاد بين مراكز القوى الأساسية البريطانية في المنطقة؛ الإدارة البريطانية في "القاهرة"، والتي بدت متلهفة على اتبّاع الاختيار القومي العربي، بينما في "الهند" كانت هناك فكرة جادة تتعلق بتوفير خطة لتسوية أعداد كبرى من الهنود في جنوب بلاد الرافدين في حال أرادت "بريطانيا" غزو تلك المنطقة.

كان "سايكس" ساحرًا في طريقته واجتماعيًا وفق العديد ممن صادفوه، لكنه في الواقع كان يؤمن بالعديد من الأفكار غير السارة، فمثلًا كان يخشى بشكل مفرط من اليهود ولا يفضل التعامل مع العديد من القوميين في الشرق الأوسط العثماني ومن ضمنها الأرمن والعرب، ومع هذا فقد بدأ في اعتبار تلك القوميات، التي كرهها في البداية، مهمة في ضمانها لإنجلترا نصرًا ساحقًا في الشرق الأوسط. هذا المعتقد جعل "سايكس" مناصرًا ومتحمسًا لأي ثورة عربية تنشب، وربما يكون فعلًا لعب دورًا في جعل "ماكماهون" رجلًا يسهل إدارته ليقبل بعض مطالب "حسين" في خريف عام 1915. حماسه الجديد ذلك للقضية العربية، ومخاوفه من وجود خلافات في وجهات النظر بين "لندن"، و"القاهرة"، و"الهند"، قادته للدعوة إلى تأسيس المكتب العربي، والذي سيقوم بتنظيم وتوجيه السياسة البريطانية في الشرط الأوسط. بدأ المكتب العربي نشاطاته في بدايات عام 1916.

لدى عودته إلى "لندن"، وبعد أن ساق آراءه بغرض التنسيق مع سياسة "بريطانيا" في الشرق الأوسط، انتهى الأمر بـ"سايكس" إلى لعب دور الريادة في مفاوضات "بريطانيا" مع "فرنسا" فيما يتعلق بتقسيم الإمبراطورية العثمانية، وهكذا فإن المراسلات بين "ماكماهون" و"حسين" بدت هي المحفز

لمثل تلك الأحاديث التي بدأت بشكل جاد. من جانبه، كان السير "إدوارد جراي"، وزير الخارجية، قلقًا بأن الإشاعات حول تلك المفاوضات ستصل إلى الفرنسيين، الذين قد يظنون خطأً أن البريطانيين يحاولون كسب العرب في صفهم، وجعل "حسين" حليفًا للإنجليز بهدف إبقاء الفرنسيين خارج "سوريا"، فـ"جراي" على عكس "كتشنر" والسلطات في القاهرة، لم يعتبر "فرنسا" عدوًا محتملًا في المستقبل، وربما اعتبر الاتفاق الودي حول تقسيم الإمبراطورية العثمانية وسيلة لتدعيم الوفاق الفرنسي - الإنجليزي[85]. وفورًا بعد رسالة "ماكموهون" في أكتوبر عام 1915 لـ"حسين"، أبلغ "جراي"، السفير الفرنسي الموفد للمملكة المتحدة، "بول كامبون" باتصالات "بريطانيا" مع القوميين العرب، واقترح رغبته في تسوية التفكير الفرنسي - الإنجليزي فيما يخص الشرق الأوسط في أقرب فرصة.

قام "كامبون" بتعيين سكرتيره الأول الموثوق به "جورج بيكو" كمفاوض فرنسي، وهو داعم قوي للطموحات الاستعمارية الفرنسية[86]. لم يثق الفرنسيون باشتراك البريطانيين مع العرب، ولم يحبوا فكرة المملكة العربية. عُهِدَ لـ"بيكو" تأمين المناطق التي يسيطر عليها الفرنسيون، والحرص على التوسع إلى "فيليقيا" شمالًا، وشرقًا إلى الموصل، وجنوبًا حتى "فلسطين". تمثَّلتْ الطموحات

(85) For Grey's caution about interfering with France's aspirations see Kedourie, In the Anglo-Arab Labyrinth, p 55; and Friedman, The Question of Palestine, pp 100-2.

(86) For Georges Picot's position as a strong backer of la Syrie integrale and his high standing among the imperial enthusiasts, see C Andrew and A S Kanya-Forstner, 'The French Colonial Party and French Colonial War Aims, 1914-1918' Historical Journal 17 (1974) pp 74-5.

الفرنسية في التوسع والسيطرة بشكلٍ مباشر ومطلق على المنطقة والتحكم كذلك في حكم المملكة العربية. هذه المملكة التي تم تصورها في مؤتمر "كيه دورساي" Quai d'Orsay على أنها هشة وفيدرالية مترامية الأطراف، أو كونفيدرالية، لا تتمتع افتراضيًا بأي سلطات جادة، والمشاركون الفرنسيون، دون شك، سيستخدمون الأمراء المحليين لبسط نفوذهم وحكمهم في المنطقة[87].

بدأ "بيكو" المفاوضات في 23 نوفمبر عام 1915 مع لجنة إدارية مؤلفة من سبعة أعضاء، ترأسها سير "آرثر نيكلسن"، سكرتير المكتب الأجنبي الدائم، الذي بقي ولوقت طويل مؤيدًا قويًا للتنسيق بين قوى الوفاق. اندهش البريطانيون مع ذلك من كم المطالب الفرنسية رغم أنها تبدو فكاهية، فكما علّق "بيكو" نفسه: "مهمتنا تتمثل في توضيح مطالبنا ومن ثم التنازل تدريجيًا، في حال تم إجبارنا على التنازل، وبتلك الطريقة سيظل لدينا سببًا للبقاء"[88]. وهكذا فشلت الجلسة المبدئية من المحادثات في توليد اتفاق ما، وفيما بعد عُيِّن "سايكس" ممثل مكتب الحرب في اللجنة، واقترح بشكل ناجح على "بيكو"، وعلي لجنة التفاوض أن تكون الجولة الثانية من المفاوضات بينه وبين "بيكو" فقط. ليس من الواضح تمامًا سبب تلك الحالة، فـ"سايكس" كان دومًا له ميول فرنسية وتعاطف مع المصالح الكاثوليكية الفرنسية في بلاد الشام، خاصة في "لبنان" و"سوريا"، وعلى الجانب الآخر، اعتبره البعض

(87) For an outline of this thinking see Edward Peter Fitzgerald, 'France's Middle Eastern Ambitions, the Sykes-Picot Negotiations, and the Oil Fields of Mosul, 1915-1918', The Journal of Modern History Vol 66, No 4 (Dec 1994) pp 697-725.
(88) Andrew and Kanya-Forstner, 'The French Colonial Party and French Colonial War Aims', p 89.

متحدثًا باسم "كتشنر"، ومعبرًا عن آرائه المناهضة لـ"فرنسا"، كما شرح لـ"الفاروقي" في "القاهرة" في أكتوبر عام 1915 وجوب تقبُّل العرب لدرجة كبرى من التدخل الفرنسي والسيطرة على الدولة العربية التي تحتوي "سوريا" و"فلسطين" و"لبنان". وأكد أن "فرنسا" يجب أن تحتكر توفير كل المستشارين السياسيين، والمعاهد التعليمية، وطرق السكة الحديد، وأي مشاريع اقتصادية جديدة تقع في نطاق نفوذها"[89].

بنهاية شهر يناير عام 1916، توصل "سايكس"، و"بيكو" إلى اتفاق، حيث تقرر أن تحصل "بريطانيا" على وادي دجلة والفرات بدءًا من الخليج العربي وصولًا إلى بغداد، وبالإضافة إلى هذا فإن "بريطانيا" ستسيطر بشكل غير مباشر على الحقوق الاقتصادية والسياسية للمساحة الواقعة بين خطوط العقبة - الكويت وحيفا وتكريت، بينما سيكون لـ"فرنسا" حقوق مشابهة في المساحة التي تقلصت بسبب خطوط حيفا - تكريت والجزء الجنوبي من كردستان ومساحات تخص "فرنسا" وهي الواقعة تحت السيطرة المباشرة لها، وتشكِّل ما يُعرف الآن بـ"لبنان" و"سوريا" الساحلية وقسم كبير من "أناطوليا" الوسطى. "بريطانيا" بدت راضية تمامًا لمشاهدة "فرنسا" تقوم بتوسيع دائرة نفوذها لصد نطاق التأثير البريطاني ضد "روسيا"، والتي يُفترض أنها تمثِّل السلطة السائدة في أغلب بلاد "تركيا" الأسيوية، أمّا "فلسطين" وبعيدًا عن بعض القواعد البريطانية الاستراتيجية، فإنها ستخضع إلى السيطرة العالمية، وخارج "فلسطين" وخارج مساحات السيطرة لكل دولة،

(89) See Kedourie, In the Anglo-Arab Labyrinth, p 58; and Jeremy Wilson, Lawrence of Arabia: The Authorised Biography of T.E. Lawrence (Atheneum, New York: 1990) pp 227–30.

يمكن السماح بوجود دولة عربية أو مجموعة من الدول. مع هذا فإن استقلال تلك الدولة العربية يمكن أن يتم وقفه بالواقع القائل أنه سينشق، أو يُقسّم إلى دوائر النفوذ البريطانية والفرنسية. فما كان يتخيله كل من البريطانيين والفرنسيين هي الطريقة التي مارسوا عبرها السيطرة على "مصر" والمغرب، حيث كانت الحكومات المحلية موجودة، ولكن يتحكم فيها موظفون بريطانيون وفرنسيون، يمكن تطبيقها كذلك على الشرق الأوسط.

وقَّع كل من "سايكس" و"بيكو" الاتفاقية في 31 يناير عام 1916، وبعد إجراء بعض التعديلات، وافقت الحكومة البريطانية والفرنسية على الاتفاقية في فبراير، لكنها ستُفعَّل فقط في حال وافقت "روسيا" وتمرُّد العرب. تحقق الشرط الأول في مايو عام 1916، وبدأت الثورة العربية بعدها بشهر، فلو أن "حسين" قد عرف بالاتفاقية في وقتها، فلا مجال للشك في أنه كان سيجد من الصعب جدًا - رغم أنه ليس من المدهش - استيعاب الأمر، ومن المحتمل أنه كان سيهتم بما يعتقده البريطانيون والفرنسيون حيال الآمال المستقبلية لتأسيس دولة عربية؛ حيث اعتقد "بيكو" أن البريطانيين قدموا الكثير للعرب، ولكن وجهة نظره هو ووجهة نظر المكتب الأجنبي الفرنسي، تمثَّلتْ في أن الدولة العربية لن تنجو بعد نهاية الحرب. السير "آرثر نيكلسن" اشترك في وجهة النظر تلك معتقدًا أن مملكة "حسين" العربية هي في الواقع أمر عبثي وغير عملي[90].

(90) 1a9n.KJarl Tanenbaum, 'France and the Arab Middle East, 1914–1920,' Transactions of the American Philosophical Society, New Ser Vol 68, No 7 (1978) p 11.

المؤرخون واتفاقية "سايكس بيكو"[91]:

غالبًا يعد كتاب "أنطونيوس" "جورج أنطونيوس" "الصحوة العربية"، أكثر الكتب الرافضة لاتفاقية "سايكس بيكو" ووعد "بلفور" عام 1917 تأثيرًا وقوة. وعد "بلفور" هو وعدٌ بتأسيس وطن قومي لليهود في "فلسطين". مزاعم "أنطونيوس" بالخيانة العظمى كانت تكمن في أربع نقاط متضاربة بين ما وعد به البريطانيون "حسين" واتفاقية "سايكس بيكو"، ووعد "بلفور". أولى نقاط التضارب تلك تمثّلت في وقوع أقسام من "سوريا" قرب إقليم "دمشق" و"حمص" و"حماه" و"حلب"؛ حيث أوضح "مكماهون" أن تلك المساحات التي تم استثناؤها هي التي "لا يمكن أن نطلق عليها تمامًا أنها مناطق عربية"، من وجهة نظر "أنطونيوس"، أن المقصود بتلك المناطق أجزاء من "لبنان"، و"لواء الإسكندرونة" الذي يسكنه الأتراك. ومع هذا فإن جميع تلك الأراضي وُضعت تحت السيطرة الفرنسية المباشرة بموجب اتفاقية "سايكس بيكو". ثانيًا، وُضعت "فلسطين" أولًا تحت السيطرة الدولية، ثم وُعد اليهود بها لتكون وطنًا قوميًا لهم، رغم عدم استثنائها صراحةً من الأراضي المخصصة لإعطائها للدولة العربية عند تأسيسها. ثالثًا، هناك قيود تم وضعها على استقلال "سوريا" الداخلية، والتي لم يتم التعبير عنها صراحة في مراسلات "ماكماهون". رابعًا وأخيرًا، فإن المساحات البريطانية الواقعة تحت السيطرة البريطانية المباشرة من "بغداد" وصولًا للخليج الفارسي الذي يُعرف حاليًا بـ"جنوب العراق" لم

(91) Two useful assessments are in D K Fieldhouse, Western Imperialism in the Middle East 1914–1958 (Oxford University Press, Oxford: 2006) pp 52–8, and Yapp, The Making of the Modern Near East, 1792–1923, pp 281–6.

يستبعدها "مكماهون"[92]. ما يمكن أن يُطلق عليه مدرسة "إيلي كيدوري" رفضت تلك النقاط واقترحت أن تعامل "بريطانيا" مع الأسرة الهاشمية كان تعاملًا واضحًا وصريحًا. "كيدوري" بدا متأكدًا من أنه لا يوجد عدم توافق في وعود "مكماهون" التي قدمها في مراسلاته مع "حسين" وفق اتفاقية "سايكس بيكو"، وعلاوة على هذا، ففي عام 1916-1917 أبلغ الحلفاء "حسين" بشكل مباشر وغير مباشر بأنهم يعرفون ما تعنيه مراسلاته مع "مكماهون"[93]. مع ذلك، فإن "كيدروي" اعترف أن الرسائل التي تتعلق بارتباط "حسين" ببنود الاتفاقية غير مؤكدمؤكدة[94].

الإجابة التي تتعلق بأي من الجوانب على حق ترتبط بالتأويلات العربية والبريطانية. أمّا وعود "حسين" بثورة عربية شاملة لم تتحقق كاملة، وعلى الرغم من قوته العسكرية المحدودة، فإنه نجح في جعل قوى التحالف تعترف بمملكته العربية التي تساوي في الحجم إنجلترا وفرنسا مجتمعتين. كان من المحتم أن استقلال مثل هذا الكيان سيتم مقاومته، لكن ليس بالقوة نفسها مثلما كان في ظل نظام الحماية العالمية في العلاقات العالمية لاحقًا. ما لم يكن مقبولًا في العلاقات العالمية لاحقًا، كان وجود الصفقات السرية، وتقسيم الأراضي هي السمة التي تميزت بها الدبلوماسية في تلك الفترة التي سبقت مؤتمر السلام في "باريس". على سبيل المثال؛ الوفاق الروسي - الإنجليزي،

(92) Liora Lukitz, 'The Antonius papers and the Arab awakening, over fifty years on', Middle Eastern Studies 30:4 (1994) pp 887–8.

(93) Kedourie, England and the Middle East, p 155.

(94) Kedourie, In the Anglo-Arab Labyrinth, pp 125–6 and 165–6 , for example.

والفرنسي – الإنجليزي، ظهروا في العقد الأول من القرن العشرين بعد سلسلة من التفاهمات والتقسيمات الاستعمارية القاسية للأراضي.

مما لا شك فيه كذلك أن أطراف تلك الدولة العربية أو الفيدرالية كانت سيتم استقطاعها وتقسيمها. من المؤكد تمامًا أن البريطانيين لم يستثنوا بصراحة "فلسطين" من مراسلات (حسين – مكماهون). من المحتمل أن "القاهرة" تخطت تعليماتها بخصوص عدم استثناء فلسطين. مع هذا، لو أن "بريطانيا"، خصوصًا "لندن"، ناقشت الأمر بحذرٍ أكبر، لكانت اتجهت للاتجاه نفسه الذي سلكته "القاهرة". هكذا اقترح "مالكولم ياب" أن "القاهرة" ربما أبقت على مسألة الحدود مفتوحة، لأنه في حالة سقوط الإمبراطورية العثمانية سيتبع سقوطها إقامة كونفدرالية عربية ضعيفة يسيطر البريطانيون عليها، حينها لن تهم مسألة امتداد حدود تلك الكونفدرالية[95]، وما يجعل الفكرة أكثر جاذبية هو أن المناطق التي يمتد إليها نفوذ الفرنسيين ستقل أكثر وأكثر.

نجد ممن ينتقدون الحكومة البريطانية، مثل "أنطونيوس"، والأكاديمي الغربي "آرنولد توينبي"، كانا ينظران إلى "بريطانيا" باعتبارها كيانًا أخلاقيًا يجب أن يلتزم بسلوك معين. هل كان من المفروض على "بريطانيا" تلبية كل مطلب عربي؟ أليس من البديهي أنه إذا وُجد الجيش البريطاني في الشرق المتوسط، فإن قوته وعظمته ستغيِّر مدى فهم الهاشميين وتفسيرهم لما تعنيه مراسلاتهم مع بريطانيا؟ ففي وقت الحروب أو ربما في أوقات أخرى كذلك، تكذب الدول أو تعد بأكثر مما يمكن أن تفي به. ولا بد أن "حسين" كان

(95) Yapp, The Making of the Modern Near East, 1792- 1923, p 284.

ساذجًا حقًا لكي يصدق أنه بعد انتهاء مؤتمر السلام، سيتم تنفيذ جميع مطالبه. علّق "هارولد تمبرلي" قائلًا: "إن الاتفاقيات السرية التي تتعلق بالشرق الأوسط، والتي التزم بها الحلفاء في وقت الحرب سيتم تفعيلها في وقتها المناسب. الصراع الهائل المتعلق بالبقاء، والذي يتطلب من الأمم المتورطة فيه أن تستخدم كل الطرق الدبلوماسية المسموح بها، وكذلك استخدامها الحرب"[96].

على الجانب الآخر، فإن "كيدوري" وكذلك "فريدمان" حاولا أن يوضحا أن البريطانيين اتسموا بالصراحة فيما يتعلق باستثناء "فلسطين"، حتى صراحتهم تلك غلفها نوع من الخداع. يبدو أنهما كانا يؤمنان بوجود نوع من الأخلاقية في السياسة البريطانية أثناء الحرب الكبرى. كان واضحًا أنهما يحاولان قول إن البريطانيين لم يكذبوا أو يضللوا أحدًا في تعاملاتهم وصفقاتهم.

"لويد جورج"، الذي كتب بعد 20 عامًا منتقدًا بشدة اتفاق "سايكس بيكو" خاصة الفشل في استشارة "حسين"، قال متسائلًا: "ما لا أفهمه هو السبب وراء عدم إخبار الحكومة البريطانية إيَّاهم فيما يخص تلك الاتفاقية. ربما كان البريطانيون قلقين من تراجع سيطرتهم على الكثير من المناطق، ولكن، حينما علم القادة العرب بشأن الاتفاقية، شعروا، بطبيعة الأمر، بالإهانة"[97].

جادل الكثيرون أن "حسين" علم بالاتفاقية (راجع فصل 4)، ولكن نعود فنقول أن فكرة وجود مثل هذه الاتفاقية ربما تم إيصالها إليه بشكلٍ غامض. بقي "حسين" مقتنعًا حتى آخر أيامه أن البريطانيين قد ضللوه. كان متأكدًا من أنهم

---

(96) H W V Temperley (ed), A History of the Peace Conference of Paris Vol 6 (Froude [u.a.], London: 1924) p 2.

(97) David Lloyd George, The Truth About the Peace Treaties (V Gollancz, London: 1938) p 1023.

خدعوه فيما يتعلق بمشاكل المنطقة، وحجم استقلال الدولة العربية. كان محقًا في اعتقاده هذا. الرأي التاريخي بدا ضد وجهة نظره تلك، ولكن مع هذا قصة الخيانة التي نشرها المؤلف والدبلوماسي "أنطونيوس" "جورج أنطونيوس" مقبولة بشكل كبير في الشرق الأوسط. العديد من صنّاع القرار البريطانيين، مثل "إيلي كيدوري"، لديهم الاقتناع نفسه بوقوع ظلم على العرب[98].

ربما الخطأ الأكبر وما يتضمنه من سوء تصرف في السلوك البريطاني والفرنسي، وخاصة في اتفاقية "سايكس بيكو"، لا يتمثّل في خيانة طموحات العرب الخاصة بالأرض، تلك الاتفاقية التي تحتوي على الكثير من الغموض الذي يدحض أي دليل يمكن أن يساهم في الدفاع عن القضية العربية، تمثّل ذلك الغموض على سبيل المثال في دحض جميع المطالبات بإعادة "سوريا" و"فلسطين" للعرب، وجعلها بلا معنى، بل يتمثّل خطأ تلك الدولتين في افتراض حكومتيهما أن الدولة التي سيحصل عليها العرب لن تكون سوى دمية في يد كلتيهما. يمكننا أن نجادل بأن الدولة العربية التي كانت يتقوم بعد انهيار الإمبراطورية العثمانية لم تكن لتستطيع الوقوف بمفردها لفترة زمنية كبيرة، كانت ولا بد ستحتاج إلى مساعدة ونصح القوى الخارجية[99]. وإلا، كانت تلك الدولة العربية ستضطر بطريقة كبيرة إلى تخطي الكثير من الحدود الأخلاقية، والدينية، والقبلية.

(98) This is one of the themes of Kedourie, In the Anglo- Arab Labyrinth.
(99) Yapp, The Making of the Modern Near East, 1792– 1923, p 282.

4

الثورة العربية

الصعوبات التي واجهت الثورة

اتضح أن رفع "حسين" لمعيار الثورة في 5 يونيو عام 1916 كان أمرًا خاطئًا تمامًا بما أنه والمكتب العربي أفرطا في المبالغة بحجم الثورة الفعلي، مثلًا ذكر "حسين" في رسالته إلى "مكماهون" في 16 فبراير عام 1916 أن 100000 جندي عربي في الجيش العثماني سينضمون للثورة. أيّد المكتب العربي هذا المقترح أيضًا بقوة، ومع هذا، لم يتم الأمر أبدًا، بما أن أغلبية القوات العربية احتفظت بولائها للإمبراطورية العثمانية[100]. اتضح أن القوات البدوية العربية، وبشكل تقديري، في كل القوات غير المنتظمة التي جمعها "حسين"، لا يفوق عددها 15000 رجل، وعلاوة على هذا فإن المدى الجغرافي للقوة العربية بدا محدودًا ، فلم تحدث ثورة في "سوريا" ولا في "فلسطين" نظرًا لتدابير "جمال" الوقائية لإيقاف المنشقين المحتملين وسط العرب الموجودين بالجيش. ومن أجل الحفاظ على استمرار التمرد، فإن "بريطانيا" وجب أن تنفق قدرًا

(100) Fromkin, A Peace to End All Peace, pp 218-19.

كبيرًا من المال والأسلحة للعرب، حيث اقتصر دور "بريطانيا" على توفير المستشارين والدعم الجوي والبحري من وقت لآخر.

مثلت الطبيعة المحدودة لثورة "حسين" خيبة أمل للبريطانيين رغم أنهم شعروا بالسرور لقيام ثورة على الأقل. وعلى الرغم من النجاح الأولي للقوات العربية في الاستيلاء على مكة، فإنها لم تحقق إلا تطورًا بسيطًا، لأنها كانت تفتقر لأي قدرة تكتيكية، بالإضافة إلى خوف القوات العربية من كشف نفسها للعسكرية العثمانية. أمَّا نجاحها الوحيد المبدئي فقد تمثَّل في استيلائها على ميناء البحر الأحمر وحده، فقط لأن البريطانيين وفَّروا دعمًا بحريًا وجويًا، ولم تسقط الطائف إلا في سبتمبر عام 1916، بينما القوات التركية استولت على المدينة عام 1919 بعد شهور من إنهاء حالة العداء وبحلول منتصف شهر يوليو عام 1916، كانت الثورة تجنح خارج مسارها، واكتشف "حسين" أنه من الصعب أن يبقى على رأس قوة منضبطة في الميدان وترك الجيش لـ"فيصل"، وهو أهم رجل عسكري في هذا الوقت وأشجع أبناء "حسين". وفي أغسطس عام 1916، أسَّر "فيصل" للكولونيل "سيريل ويلسون" أن الأتراك سينتصرون في حالة نجاتهم من الهجوم عليهم. بعدها طلب "فيصل" من القوات البريطانية الموجودة على ساحل الحجاز أن تساعد الثورة[101]. على ما يبدو فإن "حسين" لم يشعر بأي اضطراب بسبب مشكلاته العسكرية المتنامية ونصَّب نفسه ملكًا على العرب في أكتوبر عام 1916. وعلى الرغم من هذا فقد كان البريطانيون قلقين جدًا، وفي نهاية عام 1916 قرروا تقديم العون لـ"حسين"، فزادت المساعدات المالية من 125000 جنيه إسترليني إلى

(101) See Karsh and Karsh, 'Myth in the desert', p 294.

200000 جنيه في الشهر، وتم توفير كمية كبيرة من البنادق أيضًا تفوق احتياجات "حسين" كثيرًا، وبدت المخصصات حيوية للثورة بما أن الذهب يعتبر أمرًا أساسيًا لتجنيد رجال القبائل البدوية، ومع هذا فإن المساومة على السعر غالبًا ما أعاقت التنفيذ الحتمي للعمليات العسكرية، كذلك الافتقار العام لضبط أنشطة البدو - أحيانًا كانت المعارك تتوقف بسبب خلافات بين رجال القبائل المتحالفة ظاهريًا، وأحيانًا كان يتم إيقافها من أجل شرب القهوة. بدا أن "توماس إدوارد لورانس"، الذي صار المستشار العسكري الأساسي للعرب في نهاية عام 1916، انتقد ميل القوات البدوية للنهب قبل تحقيق أهدافها[102]. بدأ الاتجاه الاستراتيجي للثورة يتسرب من يدي "حسين". لعب الكولونيل "سي. إي". لعب "ويلسون" قائد المهمة العسكرية البريطانية في الحجاز، والجنرال "جيلبرت كلايتون" رئيس المخابرات العسكرية في "القاهرة"، دورًا نافذًا ومتزايدًا، حيث كان "كلايتون" يقوم بتنسيق الدعم البريطاني المقدم للثورة العربية عبر المكتب العربي[103].

(102) Karsh and Karsh, 'Myth in the desert', pp 295–7.
(103) w4a.rdHMo orley Sachar, The Emergence of the Middle East, 1914–1924 (Allen Lane, The Penguin Press, London: 1970) pp 134–5.

قام "ويليام رينجالد هول"، مدير قسم المخابرات، باختيار "ديفيد هوجارث" مهندس الآثار البريطاني البارز في الشرق الأوسط، للالتحاق بمجموعة من الضباط البريطانيين والموظفين الذين سيقومون بتنسيق الصفقات البريطانية مع العرب، والذين سيشكلون فيما بعد ما يُعرف بالمكتب العربي. بعدها، قام "هوجارث" بتعيين أحد رعاياه، وهو "تي. إي. لورانس"، والمستعربة "جرترود بيل". أصبحت "القاهرة" بذلك قاعدة المكتب العربي ابتداءً من مارس عام 1916. ترأس "جيلبرت كلايتون" إدارة المكتب هو و"رونالد ستورز"، الذي لعب دورًا أيضًا. وفَّر المكتب العربي البيانات والتقارير والتوصيات السياسية حول "سوريا" وشبه الجزيرة العربية و"فلسطين" للحكومة البريطانية، وتمثلت أبرز مطبوعاته في "النشرة العربية"، وهو كتاب صغير سري، انتشر وسط الضباط البريطانيين من ربيع عام 1916.

اتسم المكتب أيضًا بوجود رجال مصابين برهاب الفرنسيين "Francophobic"؛ مثل "كلايتون"، و"هوجارث"، و"لورانس"، و"بيل"، والمفوَّض السامي البريطاني الجديد في "مصر"، "ريجنالد ونجت"، حيث شعروا جميعًا بفتور بالغ نحو الأهداف الفرنسية في الشرق الأوسط. كما اعتبروا الأسرة الهاشمية من إحدى الوسائل المحتملة لتقليل التأثير الفرنسي في "سوريا". مال بعض المؤرخين إلى اعتبار المكتب العربي مكون من حفنة من الأبرياء والمتحمسين الذين بهرتهم القضية العربية والأسرة الهاشمية وزعموا أنهم مالوا إلى رؤية رعاياهم وقضيتهم تحقق على الأقل بعضًا من أهداف فترة ما بعد الحرب على حساب الفرنسيين، أمَّا البعض الآخر من المؤرخين، فقد اعتبروا أن مثل تلك

القضية تمثلت في تزايد مشاعر اللوم التي تخص أعضاءها حول وجود التناقضات بين اتفاقية "سايكس بيكو"، ومراسلات "حسين – مكماهون"، ولكن لم يهتم المكتب العربي بالتوسع الاستعماري البريطاني، ومصالحه في العالم العربي بما أنهم شهدوا على نشأة كونفيدرالية فضفاضة اسميًا تحت قيادة "حسين"، ولكنها وبشكل غير رسمي يسيطر عليها البريطانيون[104]. وأيضًا اعتبروها بمثابة وسيلة لتقليل - إن لم يكن إزالة - التأثير الفرنسي من العالم العربي. اقترح "إدوارد توماس لورانس" في فقرة يشاع اقتباسها بعد الحرب أن هناك إمكانية وجود اتصالات دستورية رسمية بين "بريطانيا" والدولة العربية التي ترث الإمبراطورية العثمانية، وصرّح بالتالي: "إن طموحي يتمثل في أن العرب سيكونون أول دولة سمراء تقع تحت الحكم الذاتي البريطاني وليست آخر مستعمراتنا السمراء"[105].

ظهور "توماس إدوارد لورانس"

ربما أكثر الشخصيات الهامة في المكتب العربي هو "توماس إدوارد لورانس"، وهو رجل عملي ومفكّر في الوقت نفسه، ويعود دوره في المكتب العربي لوفرة معلوماته عن الشرق الأوسط والتي اكتسبها خلال أسفاره المتعددة قبل الحرب العالمية الأولى. كان محبًا للثقافة العربية التقليدية، وكارهًا للمحدثين سواء كانوا حزب "تركيا الفتاة" أو الجماعات التبشيرية الفرنسية، أو المعلمين. مما لا يثير

(104) Westrate, The Arab Bureau, pp 6–9.

(105) T E Lawrence to Lord Curzon 27 September 1919 in David Garnett (ed), The Letters of T E. Lawrence (Jonathan Cape, London: 1938) pp 291–3.

الدهشة، فإن المشاعر المعادية للفرنسيين في المكتب العربي أثّرت عليه كذلك. وبعد عودته من مهمة في أوائل عام 1916، أُرسل فيها إلى بلاد الرافدين، رأى كيف كانت الحملة البريطانية هناك لا تتحلى بالكفاءة. بعدها، صدرت أوامر بذهابه إلى جدة مع "رونالد ستورز" في أكتوبر عام 1916، بهدف تقييم الثورة العربية. واستطاع أن يمضي العامين التاليين في شبه الجزيرة العربية وهو يلعب دورًا رائدًا فيها. "لورانس"، دون شك، لعب دورًا بارزًا في الثورة، التي كانت تصارع بيأس عند وصوله، حيث اتضح في شهر أكتوبر عام 1916 أن الأتراك يمتلكون المبادرة عسكرية. لم يوجد أي أمل في استطاعة العرب اتخاذ مبادرة عسكرية أو السيطرة على المدينة، وعلاوة على هذا، لم نجد أي إشارة إلى أن "حسين" اجتذب الدعم خارج الحدود الضيقة للقبائل البدوية، بل يبدو أن أي دعم حصل عليه، كانت نتيجة الرشاوى التي كان يدفعها من المخصصات البريطانية.

سرعان ما استنتج "لورانس" أن الثورة احتاجت إلى التركيز على الابن الأكثر نشاطًا لـ"حسين"، وهو "فيصل"، حينما قال "لورانس": "شعرت منذ أن وقعت عيناي عليه أن هذا هو الرجل الذي أتيت لشبه الجزيرة العربية كي أجده - وهو القائد الذي سيجلب الثورة العربية مجدها"[106]. كتب "لورانس" لاحقًا أن "فيصل" لم يكن بلا أخطاء؛ كان "فيصل" يثق أكثر في تحالفاته القبلية. ولو بحثنا عن بدائل له، سنجد أن إخوته الثلاثة كانوا أسوأ منه بكثير؛ "علي"، كانت صحته معتلة، و"زيد" صغيرٌ جدًّا في السن ويفتقر للخبرة، و"عبد الله"، أفضل ثاني اختيار بعد "فيصل"، اعتبره لورنس مناسبًا، ومع هذا فهو رجل سياسة أكثر منه رجل دولة[107]. على أي حال لم يرَ فيه "لورانس" رجلًا

---

(106) Lawrence, Seven Pillars of Wisdom, p 76.

(107) See Lawrence, Seven Pillars of Wisdom, p 51, which questions Abdullah's sincerity.

عسكريًا يتحلى بالكفاءة، لكنه استطاع أن يقنع رئيس المكتب العربي، "جيلبرت كلايتون" بفوائد مثل هذا الأمر رغم إبدائه بعض التردد من جانبه، أمًا "فيصل" فلم يكن اختيارًا مفضلًا عالميًا للقيادة ضمن المكتب العربي، لأن "عبد الله" هو من أبدى حماسة شديدة حول شن ثورة وبدأ الاتصالات مع البريطانيين، أمًا "فيصل" فقد كان مترددًا بشأن القيام بثورة، ولكن مع تطورها، فإن موقفه تجاه العثمانيين صار أكثر تماسكًا وفيما بدا أكثر انفتاحًا على إمكانية التقارب - انظر بالأسفل - اعتبر أنه من غير المحتمل التوصل إلى أي صفقة يمكن اعتبارها مقبولة(108).

اعتمد "كلايتون" بشكل متزايد على "لورانس" للحصول على معلومات بخصوص الثورة العربية، وتنفيذ العمليات في شمال الحجاز. تحوًل "لورانس" من مجرد شخصية ثانوية، إلى رجل صاحب نفوذ كبير نظرًا لقدرته على السيطرة على المعلومات التي كانت تصل إلى "القاهرة". ومن شهر نوفمبر عام 1916، صار الضابط المنسًق للثورة العربية، وهو ما جعل دوره مهمًا أيضًا في تقرير استراتيجية "فيصل"، ويبدو أن سيطرته وإشرافه على المخصصات البريطانية وتقديم الأسلحة وفرا له طاقة فعلية، ومع هذا فإن عبقريته تمثلت في قدرته على تقديم شراكة عمل مع "فيصل" وباقي العرب عبر تكليف نفسه بنجاح مع مراعاة حساسيات الثقافة العربية. إن كياسته وحذقه ودبلوماسيته ساعدوه على تذليل بعض المشكلات الجادة التي واجهت التحالف الهاشمي والإنجليزي.

(108) James Barr, Setting the Desert on Fire: T.E. Lawrence and Britain's Secret War in Arabia, 1916-18 (Bloomsbury, London: 2007) pp 102-3.

لا يوجد سوى شكٍ ضئيل في أن قدوم "لورانس" هو ما حفَّز الثورة العربية بما أن قراره التكتيكي الأساسي تمثَّل في استغلال مزايا العرب الكبرى وسرعة حركتهم بفضل مهاراتهم في التعامل مع الجمال والجياد، لكن عيوبهم الكبيرة تمثَّلت في عدم قدرتهم على تحمُّل الخسائر. أدرك "لورانس" أنه من الأفضل استغلال المساحات المفتوحة للصحراء لتجنب حدوث حرب مباشرة[109]. كانت الهجمات ستطول حينما يمتلك العرب الحس التكتيكي، ولذلك فإن "لورانس" تماشى مع تكتيكات العرب واستراتيجيتهم ومصادرهم العسكرية وقدرتهم، وأيضًا مع جغرافيا الحجاز. من وجهة نظره فإن تلك الهجمات يجب أن يتم شنُّها بشكل عام على أهداف غير محمية؛ مثل الهجوم على خطوط السكة الحديد، والبنية التحتية، وإمدادات السفن، بدلًا من الهجمات الأمامية على كتيبة المشاة التركية، فكانت نتيجة هذه الهجمات كارثية على العرب. رأى أن الهجوم على المعسكرات التركية الهامَّة، مثل المدينة، لم تكن لها فائدة. كما أن انعدام قدرة العرب على تحمُّل قصف بالمدفعية أعاق مثل هذا الأمر، فكان من الأفضل ترك 25000 حامية قوية لا تعمل وتبقى بلا فائدة في وقت الحرب[110].

وبدلًا من هذا فإن الهجمات الفعلية والطفيفة والتي تشبه تلك الغزوات المتكررة، التي شُنَّتْ في أوائل القرن العشرين في شبه الجزيرة العربية وفي وقت السلم ستبقي العرب في الميدان وتزود من ثقتهم وسمح أيضًا للعرب بالإبقاء على ما سلبوه من غنائم نتيجة هجماتهم، وبدا أن فرض الضوابط العسكرية الغربية على القبائل البدوية المتجولة أمر لا فائدة منه، لأنهم ببساطة إن لم

(109)Lawrence, Seven Pillars of Wisdom, pp 183–4.

(110) Lawrence, Seven Pillars of Wisdom, p 215.

يرضوا عن الأمر فسيغادرون فجأة. أمّا في الاشتباكات الأساسية التي تضمنت الاستيلاء على ميناء العقبة في يوليو عام 1917، أبدى "لورانس" براعة تكتيكية، وقدرة واضحة على استغلال الموقف العسكري.

ت. إي. لورانس[111]



وُلد عام 1888، وتُوفي عام 1935، ضابط مخابرات وكاتب. الابن غير الشرعي لإقطاعي من أصول أيرلندية. لورنس المتخرج في أكسفورد، أمضى السنوات بين 1909 و1914 في القيام بالعديد من الرحلات الاستكشافية للمواقع الأثرية في بلاد الشام. بسبب معرفته الواسعة بالشرق الأوسط، تم إرساله إلى "القاهرة" عام 1914، حيث ظل يقوم بأعمال مكتبية حتى إرساله إلى الحجاز في أكتوبر عام 1916. وهناك، سريعًا ما تقلّد دورًا هامًا وأساسيًا في الثورة العربية، حيث كان تأثيره على "فيصل" كبيرًا للغاية. رافق الوفد العربي بقيادة "فيصل" إلى مؤتمر السلام في "باريس". خبراته التي تحصّل عليها ساعدته في كتابه الملحمي المثير للجدل عن رحلته في الصحراء، "أعمدة الحكمة

(111) The best biographies are Lawrence James, The Golden Warrior: the Life and Legend of Lawrence of Arabia, rev. edn (Abacus, London: 1996); and Jeremy Wilson, Lawrence of Arabia: The Authorised Biography of T.E. Lawrence (Heinemann, London: 1989).

السبعة". ترك الأعمال الحكومية في أغسطس عام 1919، لينضم إلى جمعية "جميع الأرواح" في أكسفورد. استدعاه وينستن تشرشل ليكون مستشارًا في شؤون الشرق الأوسط من 1921 وحتى 1922، وقد كان له دور رئيسي في تنفيذ ما يسمى بـ"الحل الشريفي"، الذي ساعد في إرساء حكم الهاشميين في "العراق" و"شرق الأردن". انضم لاحقًا للقوات الملكية الجوية تحت الاسم المستعار "أركيبالد روس". بعد أن ترك الخدمة بوقتٍ قصير، قُتِل في حادث موتورسيكل مأساوي. أصبحت أسطورته أكثر شهرة بعد ظهور الفيلم الذي أخرجه "ديفيد دين"، "لورانس العرب" (1962)، لكن بعد أن تم نشر كتاب "سيرة ذاتية عدوانية" لـ"ريتشارد ألدينجتون" في الخمسينيات[112]، تزايدت الشكوك فيما يخص مصداقيته كشاهدٍ على الأحداث التي وصفها في كتاباته، والتي رآها البعض فيما بعد تكاد تكون كشفًا عن حياته الخاصة ونشاطه الجنسي.

"فيصل" يتولى القيادة

تحوّل "فيصل" من مجرد أخ لعدة إخوة إلى الشخص الأبرز، فهو تخطى أخاه الأكبر، "عبد الله"، ثم تخطى حتى والده، وصار يمثّل القوة العربية الدافعة وراء الثورة. ولأنه أمضى أغلب فترة طفولته في القسطنطينية، فلا هو ولا أحد من إخوته، يمكن أن نطلق عليهم من البدو. وحقًا فإن العديد من العرب اعتبروهم من الأفندية، وهو تعبير عربي يصف العرب من طبقة اجتماعية عليا، ممن تلقت تعليمًا مدنيًا وتكيفت مع الرداء الغربي والمفاهيم

(112) R. Aldington, Lawrence of Arabia: A Biographical Enquiry (Collins, London: 1955).

الغربية، وسرعان ما عاد إلى مكة وأصر والدهم على وجوب تصرفهم كبدو، فأرسلهم إلى البرية من دون وسائل راحة كي يعودوا إلى جذورهم مرة أخرى، ومع هـذا فـإن طريقـة عزلهم عن البدو ميزتهم، ومثلما لاحظ "لورانس"، فـإن أبنـاء "حسـين" الأربعـة لم يكـن لهم ولاء لأي بلد أو حبًا لأي أرض، وليس لديهم أي أمين لأسرارهم أو "وزراء"، ولا يبـدو أحدٌ منهم منفتحًا على الآخر، ولا حتى والدهم، الذين كانوا يرهبونه[113].

ترك "روبرت لانسينج"، وزير الداخلية الأمريكي، وصفًا شهيرًا لـ"فيصل" عندما رآه في مؤتمر السلام بـ"باريس"، قال: "إن ملامح الأمـير العـربي محـددة وصريحـة، مثـل بقيـة العرب... بشرته شاحبة، بها نمشٌ خفيفٌ يمتاز به أنقياء الدم من الجنس السامي. وعـلى الرغم من نحافة وجهه وما به من خطوط وتجاعيد قليلة، فإن تعبيره جادٌ وقويّ. عيناه سوداوان، بهما نظرة هادئة وعطوفة، لكن يمكن للمرء أن يرى بوضوح، تلك النـار التـي تشتعل فـيهما عنـد الغضـب أو النقـاش المحتـدم. يمكنـك رؤيـة الصـدق والصراحـة في نظرته... يستطيع المرء الشعور بقوة شخصيته، وإحساس أنه يمتلك تفكيرًا عميقًا يرفعـه فوق الرجل العادي"[114].

كانت علاقة "لورانس" و"فيصـل" هـي مفتـاح النجـاح الـذي تمتعـت بـه الثورة العربية، فكان "فيصل" هو من يعطي الأوامر و"لورانس" مـن يسـدي النصح. بدا من غير الـواقعي أن يعطـي "لـورانس" الأوامـر لـ"فيصـل". كـان

(113) Lawrence, Seven Pillars of Wisdom, p 85.

(114) Robert Lansing, The Big Four and Others of the Peace Conference (Houghton Mifflin Company, Boston: 1921) pp 163-5.

عليه أن يقنعه أولًا، ثم يتركه ليوجّه رجاله. أحيانًا، كان يصعب التعامل مع "فيصل" ووالده، ومع هذا، فإن "لورانس" و"فيصل" شكلا شراكة مفيدة.

سبب هذا التقارب هو أن "لورانس" بدا مستعد لمشاركة أغلب أسرار السياسة البريطانية مع "فيصل"، ففي فبراير عام 1917، فسّر له أن مراسلات "مكماهون" تم استبدالها باتفاقية "سايكس بيكو"، وأن "فرنسا" ستلعب دورًا كبيرًا في تسوية فترة ما بعد الحرب في المنطقة، فالتحرك شمالًا ونشر الثورة في "سوريا"، هي الوسيلة الوحيدة لإعاقة المزاعم الفرنسية هناك. ويبدو أن تجليات "لورانس" مدفوعة بمقترحات البعثة العسكرية الفرنسية في الحجاز، والتي كانت تعد لشن هجوم على ميناء العقبة. "لورانس" أقنع "فيصل" بأن هذا الأمر يعني أسر العرب في الحجاز، وبسط يد "فرنسا" في "سوريا"، حينها أدرك "فيصل" كم هو من المهم أن يتحرك شمالًا ويستولي على دمشق والمدن السورية الأساسية[115].

العلامات الأولى على أن التكتيكات التي تبناها "لورانس" ستنجح، تمثلت في الهجوم على المدينة الساحلية "الوجه"، التي كانت في الشمال بعيدًا عن "جدة" و"مكة"، وتوفر قاعدة لا يمكن منها شن عمليات ضد خط سكة حديد "الحجاز". وأشار أيضًا إلى توسيع العمليات خارج الحجاز لتشمل "سوريا" نفسها، وبمعاونة القوّات البريطانية، سقطت في أيدي رجال "فيصل" في 23 يناير عام 1917، ومن هنا فإن العرب استطاعوا إدارة عمليات الكر والفر ضد خط سكة حديد "الحجاز". أمّا العثمانيون فأُجبروا على بذل الكثير من الموارد للدفاع عن السكة الحديد وإبقائها فعّالة. ومثلما أراد "لورانس"، ظلوا عالقين في المدينة.

---

(115) Wilson, Lawrence of Arabia, pp 361-2.

"لورانس" نفسه اختفى من المشهد أغلب فصل الربيع وأوائل فصل الصيف عام 1917، واتجه إلى "سوريا" في محاولة للتأكيد لنفسه على حجم الدعم المُقدَّم من التجمعات القبلية للحشد للثورة العربية، وهو ما ارتبط مع رغبته في دفع "فيصل" شمالًا، لدى عودته للحجاز في يونيو عام 1917، وجَّه عملية ضد ميناء العقبة بما أن الاستيلاء على ميناء العقبة أقنع القائد البريطاني في الشرق الأوسط الجنرال "إدموند اللنبي" بموهبة "لورانس" وفائدة الثورة العربية، واعتبر حرب العصابات، التي شنَّها "لورانس"، وسيلة لربط أو تقييد أعداد كبرى من القوات العثمانية بكلفة بسيطة نسبيًا للبريطانيين، وفي العام التالي من تأسيس تلك القاعدة في العقبة، شن "لورانس" و"فيصل" عمليات ضد القوات التركية الموجودة في "مصر" و"عمَّان"، وخط السكة الحديد الذي يربط "المدينة" و"دمشق"، رُغم أنَّه لم يستطع أن يقطع تلك الرابطة مع الحامية العثمانية في المدن التي لم تُمَسّ حتى بعد الهدنة، وحينما بدأت القوات البريطانية في التقدم باتجاه "سوريا" في فصلي الصيف والخريف لعام 1918، ساعدهم الجيش العربي غير النظامي على إلهاء القوَّات التركية، مما سمح للقوَّات البريطانية بالتقدم من دون أي صعوبة تذكر، لكن من المعتقد به أن "لورانس" والقيادة العربية بالغوا في وصف حجم المساعدة التي قدمتها القوَّات العربية غير النظامية[116].

(116) Two recent accounts of Lawrence and the Arab Revolt are Barr, Setting the Desert on Fire, and Wilson, Lawrence of Arabia, Chapters 13–26.

"لويد جورج".. الشرق الأوسط ووعد "بلفور"

شهد عاما 1917 و1918 تطورات سياسية مهمة؛ تغيّرت الحكومة البريطانية وصار "ديفيد لويد جورج" رئيس الوزراء في نهاية عام 1916 مع تغير السياسة البريطانية في الشرق الأوسط، وبات من الواضح للعديد من العرب أن ثمن مساعدة البريطانيين لهم في صراعهم سيكلفهم الكثير، خصوصًا عندما تم الإعلان عن وعد "بلفور" واتفاقية "سايكس بيكو" في نهاية عام 1917.

مع نهاية عام 1916، كان الوزراء المحافظون في الحكومة الائتلافية يشعرون بالصدمة من "آسكويث"، وآمنوا بأنه لم يعد قادرًا على إدارة الحرب بكفاءة، وفي 3 ديسمبر عام 1916، هددوا بالاستقالة الجماعية إذا لم يقدم "آسكويث" استقالته، وسرعان ما اتضح أن "آسكويث" لم يتمتع برضا حزبه أيضًا، فالعديد من الناس فضّلوا "ديفيد لويد جورج" بوصفه أفضل مرشح يفوز في الحزب فصار رئيسًا للوزراء في 7 ديسمبر عام 1916، وأجريت على الفور تغييرات راديكالية في وزارته وسيطر المحافظون على النصيب الأكبر من كراسي الوزارة. كان واضحًا أن رئيس الوزراء الأسبق "آرثر بلفور" حل محل "جراي" في المكتب الأجنبي.

"لويد جورج" كان الراديكالي الأهم في الحزب الليبرالي، وأهم معارض لحرب البوير الثانية (1899-1902)، ومع حلول الوقت الذي أتى فيه إلى المكتب عام 1916، بدا تفكيره إمبرياليًا بفضل تأثير ألفريد ميلنر، وسكرتيره الخاص "فيليب كير"، الذي أصبح لاحقًا "اللورد لوثيان". أمّا "ميلنر"، الذي صار وزيرًا من دون حقيبة وزارية في الحكومة الجديدة، فقد بدا مناصرًا قويًا

للإمبرياليّة، لأنه شارك في إدارة "مصر" من عام 1889 حتى عام 1892، كما طوَّر وجهة نظره بأن الواجب الإمبريالي البريطاني يحتِّم إنقاذ الدول الأقل تميزًا من أنفسها. كذلك نجد أن "لويد جورج" منذ بداية الحرب بدا مترددًا بشأن استراتيجية الهجمات الأمامية على الجبهة الغربية، وحقًّا فإنه بدا مؤيدًا لدعم الالتزام البريطاني في الشرق الأوسط بوصفه جزءًا من الاستراتيجية التي تهدف إلى ضرب حلفاء "ألمانيا" في شرق البحر المتوسط، بالأساس "تركيا". فالشرق الأوسط أثبت أنه من إحدى البقاع القليلة المفيدة للحلفاء عام 1917، فيما الثورة العربية بقيت محدودة النطاق والمجال، وشهدت الجبهة الخاصة ببلاد الرافدين نتائج مهمة، لأن "تركيا" وجدت أنه من الصعب بشكل متزايد أن تستبدل خسائرها الثقيلة في القوقاز وفي "جاليبولي". يبدو أن "لويد جورج" أدرك أن الشرق الأوسط يمتلك قدرة على توفير انتصارات رخيصة مقارنة بحالة الجمود في "بلجيكا". في مارس عام 1917، بعد عامين من الصراع والعديد من الانتكاسات، استولى البريطانيون في النهاية على "بغداد"، وبالتالي فإن وزارة الحرب البريطانية استأنفت عملها، حتى شهر يوليو عام 1917، ولأن عملها تمثَّل في تنسيق آراء الإدارات التي تملك مصالح مع بلاد الرافدين، وإخضاعها لإدارتها المستقبلية. ترأسها "اللورد كرزون"، رئيس المجلس وعضو وزارة الحرب، مع "اللورد ميلنر" وبوصفه عضوًا، حاولت "بريطانيا" - ولكن ليس بنجاح تام - أن تحكم بلاد الرافدين(117).

(117) See Helmut Mejcher, 'British Middle East Policy 1917-21: The Inter-Departmental Level', Journal of Contemporary History, Vol 8, No 4 (Oct 1973)pp 81-101.

في تلك الأثناء، بدأ الرجال البارزون في الحكومة البريطانية قضاء جزء مهم من فصل الصيف والخريف لعام 1917 في الاهتمام بمقترح راديكالي لتبني القضية الصهيونية، ودعم فكرة إنشاء وطن قومي لليهود في "فلسطين". وزير الخارجية "أرثر بلفور" كان صديقًا لـ"حاييم وايزمان"، وهو كيميائي روسي يهودي، أقنعه بمزايا الصهيونيّة عام 1906. لاحقًا، قام "سي. بي. سكوت"، محرر جريدة "مانشيستر جارديان"، بتعريف "وايزمان" على "لويد جورج"، الذي أعجبه اقتراح "وايزمان". كذلك "هربرت صامويل"، وزير يهودي إنجليزي، وافق على الاقتراح بحماس. ومع "أسكويث" رئيسًا للوزراء، لم يكن هناك المزيد من التحمس لقطع وعود أخرى مثل هذه. والآن، ومع "لويد جورج" رئيسًا للوزراء، و"بلفور" وزيرًا للخارجية، تمت إعادة النظر في القضية الصهيونية. كان الاثنان مؤيدين للحركة بشدة. زاد التأكيد على تأييد الحكومة البريطانية للقضية الصهيونية مع الاتفاق الذي تم بين "مارك سايكس"، و"جورج بيكو". ومع حلول يونيو عام 1917، وافقت الحكومة الفرنسية على مضض أن تنتقل "فلسطين" من الحماية الدولية إلى الحماية البريطانية، كما لم يعترضوا على وجود مستوطنة يهودية تحت الحكم البريطاني[118]. الحصول على موافقة الحكومة البريطانية. الوزير الرئيسي اليهودي "إدوين مونتاجو"، وزير الداخلية الخاص بـ"الهند"، كان معارضًا لإقامة "جيتو" يهودي في الشرق الأوسط، وهو ما سيؤثر على وضع اليهود في أوروبا. بعدها، وفي أكتوبر عام 1917، أيّد الرئيس الأمريكي "وودرو ويلسون"، الفكرة، موضحًا لـ"لويد جورج" قوة الحركة الصهيونية في

(118) Fromkin, A Peace to End All Peace, pp 292–4.

الولايات المتحدة الأمريكية[119]. في 31 أكتوبر عام 1917، وافقت وزارة الحرب، بعد إجراء بعض التعديلات لتوفير المزيد من الحماية للفسطينيين العرب، على إعلان ما عُرف فيما بعد باسم وعد "بلفور".

ليس الهدف هنا هو إعطاء شرح مفصل عن وعد "بلفور"، ولكن، استنتاجات كثير ممن قام بدراسته، أكدت أن السبب في إعلان وعد "بلفور" لم يكن مدفوعًا بالتعاطف مع القضية الصهيونية، ولكن بمفاهيم "السياسة الواقعية"، لأن الوعد سيساعد في تأييد الطموحات الإمبريالية البريطانية في الشرق الأوسط[120]. من الناحية الجوهرية فإن تبني إقامة وطن قومي لليهود سيسمح لـ"بريطانيا" أن تصبح قوة سائدة في "فلسطين" على حساب الفرنسيين. وجهة نظر "اللورد لويد جورج" هي أن الصهيونية ستكون قوة لتوسيع الإمبراطورية البريطانية في الشرق الأوسط، والنقطة الأهم ضد هذا التفسير بالطبع هي أن البريطانيين أمضوا الثلاثين عامًا التالية وهم يحاولون التحايل من أجل التحلل من هذا الوعد. اقترحت بعض الدراسات الحديثة أن أصول وعد "بلفور" يمكن العثور عليها في المؤسسة البريطانية المناهضة للسامية. "لويد جورج" وباقي الوزراء النافذين الآخرين، وأيضًا الموظفين، مثل، "مارك سايكس"، آمنوا بأن اليهود سيطروا

(119) Tom Segev, One Palestine Complete (John Murray, London: 2001).

(120) Leonard Stein, The Balfour Declaration (Simon and Schuster, New York: 1961); Mayir Vereti, 'The Balfour Declaration and its Makers', Middle Eastern Studies, vi (1970) pp 48-76; Friedman, The Question of Palestine; Ronald Sanders, The High Walls of Jerusalem: A History of the Balfour Declaration and the Birth of the British Mandate for Palestine (Holt, Reinhart and Winston, New York: 1983); David Vital, Zionism: The Crucial Phase (Clarendon Press, Oxford: 1987); and Fromkin, A Peace to End All Peace, Chapters 31-35.

ويسيطرون على عجلات التاريخ من خلال سيطرتهم على التمويل وعلى الثورة العالمية، ولذلك وجبت تهدئتهم عن طريق تبنٍّ صريح للصهيونية[121].

وفي يونيو عام 1917 نُصِّب "اللنبي" قائدًا للقوات البريطانية في "مصر"، وأخبره "لويد جورج" بأنه أراد أن يتم احتلال القدس بحلول عيد الميلاد لتحسين الروح المعنوية على الجبهة، ومع هذا فإن "اللنبي" كان يفتقر إلى المصادر الأساسية والقوات التي سيقودها الجنرال السير "ويليام روبرتسن"، رئيس الحرس الإمبراطوري، لكن مع إصرار وزارة الحرب، و"لويد جورج"، أجبر "اللنبي" الحريص على التقدم لاحتلال القدس في أوائل ديسمبر عام 1917.

"حسين" ووعد "بلفور"

لم يحصل الإعلان العام لوعد "بلفور" على أي استجابة من "الشريف حسين"، وعلى الرغم من أن العديد من النبلاء السوريين اشتكوا من الوعد، فإن "حسين" بقي صامتًا، وأمر أبناءه بتهدئة مخاوف أتباعهم حيال النيات البريطانية[122]. حينما تواصل "هوجارث"، وهو رئيس المكتب العربي، الملك في 4 يناير عام 1918، كي يعرف رأيه بالوعد، أكد "حسين" "بحماسة" على الاستقرار الصهيوني في "فلسطين"، وبدا "غير مهتم" بوعد "بلفور" وبالنيات

(121) See Mark Levene, 'The Balfour Declaration: A Case of Mistaken Identity', The English Historical Review, Vol 107, No 422 (Jan 1992) pp 5477.

(122) Antonius, The Arab Awakening, p 269.

الصهيونية[123]. بدا الأمر مثيرًا للفضول، فسابقًا ظل "حسين" يجادل بشأن كون "فلسطين" جزءًا من المنطقة العربية المستقلة، وعلاوة على هذا، فإن مهمة "هوجارث" لـ"حسين" اتضح أنها قللت من أهمية الوعد وركزت على الالتزامات التي قام بها البريطانيون للصهيونية، والتي وجب أن "تتوافق مع حرية العرب اقتصاديًا وسياسيًا..."[124]. ويمكن أن نجادل أن "حسين" لم يتبنَّ أية وسيلة لإنشاء دولة يهودية أو حتى وطن مستقل لليهود، ومع هذا اتضح أنه كان أعمى حيال تبعات وعد "بلفور".

واتضح أيضًا أنه بدا جاهلًا بما يدور حوله أو ادَّعى الجهل، وخاصة وجود أي مستوطنة محتملة بعد الحرب، والتي ستؤثر بشدة على حكم الحكومة الفرنسية في "سوريا". وفي شهر أبريل عام 1917، قام "مارك سايكس"، ومعه "بيكو" بزيارة "حسين" والإدلاء بتفاصيل حول الاتفاقية، ولا يعرف أحدٌ حتى الآن حجم التفاصيل التي أعطياها له[125]. كان الأمر معرضًا للنزاع حول كيفية منح المعلومات لـ"حسين"، ولو أنَّه ركز انتباهه وشك في فحوى المعلومات، فإن جريدة "مانشستر جارديان" Manchester Guardian نشرت كل شيء بشكل مفصل في يومي 26، و28 عام 1917، وأتبعها تسريب للمعلومات من الحكومة البلشفية في "روسيا"، ثم نشرها "جمال"، الحاكم التركي، وعلى الرغم من كل تلك الأدلة، فإن "حسين" بقي ينكر الأمر. كتب "رينجالد ونجيت"، المفوض السامي البريطاني في "مصر"، أنه: "من الواضح أن الملك "حسين" لم يبطل ادعاءاته الأولى، خاصة تلك التي تتعلق بـ"سوريا"،

(123) Kedourie, In the Anglo-Arab Labyrinth, pp 190–1.
(124) Friedman, Question of Palestine, p 328.
(125) Fromkin, A Peace to End all Peace, pp 288–9.

ومن الواضح أنه تزعّم الوهم الخاص بأنه من خلال النيات الطيبة لحكومة جلالة الملك، سيتم تنصيبه سيدًا للمنطقة". جادل "ونجيت" بشأن عدم استغلال "حسين" لتلك الفكرة لأنه ربما يتخلى عن منصبه[126]. "حسين" على ما يبدو اعتقد أنه ما إن تنتهي الحرب في الشرق الأوسط مع حالة التنافس التقليدية بين "فرنسا" و"إنجلترا" فإنه سيعيد إثبات نفسه مرة أخرى وسيكون الإنجليز في صف العرب.

أقنع "لورانس" "فيصل" "أن قراره هذا يهدف إلى مساعدة البريطانيين لدرجة أنه بعد عقد اتفاقية السلام لن يتمكنوا، بسبب الخزي، من إجباره على الالتزام بها، بينما لو أن العرب - مثلما انتوى هو - قاموا بما أراده، فلن تكون هناك أحاديث جانبية بشأن إسقاطه. توسلت إلى "فيصل" ألا يثق في وعودنا كما فعل والده، بل أن يثق في أدائه القوي فقط"[127]. بعبارة أخرى، كان من الهام لـ"فيصل" أن يحرز تقدمًا عسكريًا دالًا على توكيداته على أن القضية العربية ستصبح مسموعة مع انتهاء الحرب، ومثلما اتضح لنا فإن "جمال" سعى إلى تفكيك الحلف الإنجليزي الهاشمي عبر استخدام اتفاقية "سايكس بيكو" كدليل على الخيانة البريطانية. تلقى "فيصل" اتصالات من "جمال" و"لورانس"، ووافق على أنه يجب أن يقوم برد فعل. أدرك "لورانس" أن "بريطانيا" كانت تدخل في مفاوضات سرية مع العناصر المحافظة في القيادة التركية، ولم يجد سببًا منطقيًا لعدم قيام "فيصل" بالمثل، أيضًا ربما سمح "لورانس" بوجود مراسلات، لأنه من الأفضل أن تتم بمعرفته عوضًا عن حدوثها سرًا.

---

(126) Teitelbaum, 'Sherif Husayn ibn Ali and the Hashemite vision of the post-Ottoman order', p 109.

(127) Lawrence, Seven Pillars of Wisdom, p 551.

استمر "فيصل" في التواصل مع "جمال"، وفي صيف عام 1918، صارت مقترحات "جمال" أكثر جدية، وبدا مستعدًا لمنح الاستقلال للدولة العربية و"سوريا" مقابل تغيير العرب لحلفائهم. شعر "لورانس" بالقلق من المراسلات في يونيو عام 1918، التي أشارت إلى شروط "فيصل" للاقتراب من الأتراك، والتي تتضمن تسليم "عمّان"، وكذلك الحجاز لـ"حسين"[128]. شعر "لورانس" بالقلق من هذه المراسلات بيس "جمال" و"حسين"، فأرسل تلغرافًا تحذيريًا لـ"حسين"، الذي أمر بإنهاء المراسلات.

انهيار العثمانيين

لم تصل الثورة العربية بعد إلى ما كان "حسين" يريده. مع هذا، وبحلول ربيع عام 1918، قُتل أو أُسِر ما يقرب من 13000 قوة عثمانية، كما كان لها تأثير أخلاقي على القوات العربية التي تضمها صفوف الجيش العثماني، خاصةً القوات التي تواجه الجنرال "اللنبي" في "فلسطين"، وأيضًا العرب المقيمين في "فلسطين" و"سوريا" بدوا مرحبين بالبريطانيين أكثر ممّا كانوا سيرحبون بهم لو أن "حسين" ظل مواليًا للعثمانيين. على أي حال، ظل التأثير العسكري للعرب على حاله، على سبيل المثال، في فبراير عام 1918، فشلت القوات العربية في الاستيلاء على "الأردن" ذات الأهمية الاستراتيجية، ونتيجة لهذا فإن جزءًا من القوة الاستكشافية المصرية الخاصة بالجنرال "اللنبي" أصبحت مكشوفة بطريقة خطرة ووجب أن تهجر "عمان"؛ أقوي مدينة في "وادي الأردن".

---

(128) Wilson, Lawrence of Arabia, pp 469–70, 511–12.

بعد استيلائه على القدس في ديسمبر عام 1917، أُجبر "اللنبي" على تأجيل هجومه من جديد، لأن الألمان شنُّوا هجومًا كبيرًا على الجبهة الغربية في ربيع عام 1918. مع نهاية فصل الصيف، كان في وضعٍ يسمح له بإعادة تجديد هجومه. كان متقدمًا على الجيش العثماني بأربع فرق عسكرية في المقدمة مقابل فرقة واحدة فقط للجيش العثماني. كان هجوم "اللنبي" في بداية سبتمبر ناجحًا بما لا يدع مجالًا للشك. هكذا، تفرّق الجيش العثماني خلال بضعة أيام، بينما تقدمت القوات البريطانية إلى بلاد الشام وبدأت الهجوم عليها بمساعدة كتيبة أسترالية. أما في الجناح الأيمن لقوات "اللنبي"، اجتاحت قوات "فيصل" العربية "وادي الأردن"، الذي هجره الأتراك، وهناك أثبتوا جدارتهم في إبعاد ما تبقى من القوّات العثمانية، على الرغم من نجاحهم هذا، فإنه كانت توجد شكاوى بسبب استخدام العنف المفرط ضد الأتراك الذين تم أسرهم. في الوقت نفسه، فإن سكّان "فلسطين" و"سوريا" بدأوا يثورون ضد قوات الأسطول الحربي التركي. كما بدأ سباق بين القوات الأمامية البريطانية والعرب على من سيدخل "دمشق" أولًا. أقنع "لورانس" القائد الأسترالي، الجنرال "شوفيل"، بالسماح لـ"فيصل" والمحاربين العرب بشرف دخول "دمشق" أولًا. ويبدو أن التطور المفاجئ النهائي هذا أكد أن قضية العرب جذبت انتباه العالم. كان فعلًا سياسيًا من الدرجة الأولى، وزعم "إيلي كودري" أن قرار منح "فيصل" وأتباعه شرف دخول "دمشق" يعتبر واحدًا من أهم التأثيرات على الأحداث في الشرق الأوسط في السنوات التي تلت عام 1918[129].

(129) Kedourie, England and the Middle East, p 122.

منحت الحكومة البريطانية "اللنبي" تعليمات بأن يتعامل، فيما تسمح به الحدود العسكرية، مع الأراضي التي أسرها العرب باعتبارها "أراضي حليفة تتمتع بحالة من الاستقلال أو هي عبارة عن كونفيدرالية من العرب الودودين... وألا يتعامل معهم على أنهم أعداء الإنجليز الذين سيقومون باحتلالهم عسكريًا لفترة مؤقتة..."[130]. وحينما التقى "اللنبي" مع "فيصل" في "دمشق" أخبره بأنه – أي "فيصل" - هو من سيدير "سوريا"، لكن تحت الحماية الفرنسية، أمّا المناطق الساحلية من "فلسطين" التي تقع على "خليج الإسكندرونة"، ستكون تحت حكم مباشر من الفرنسيين. عارض "فيصل" هذا الأمر بشدة، فهو لا يريد أن يحميه أو ينصحه الفرنسيون. أمّا "لورانس" الذي أخبروه بأن اتفاقية "سايكس بيكو" لم يعد لها وجود، فقد وجد أنها على العكس تمامًا، موجود ومفعلة تمامًا[131].

في تلك الأثناء بدأ الفرنسيون القدوم لبلاد الشام، ومع هذا فإن الأعداد الفرنسية بدت قليلة مقارنة بالأعداد البريطانية - فقط بضعة آلاف من الجنود مقابل قرابة مليون بريطاني وقوات إمبريالية. كانت "بريطانيا" صاحبة الكلمة العليا في الشرق الأوسط، وهو ما كان يدركه "لويد جورج" جيدًا، وبناءً على هذا، قام بإبلاغ وزارة الحرب في أكتوبر عام 1918، بأن اتفاقية "سايكس" لم تعد فاعلة في ظل الظروف التي تثبت الإسهام البريطاني الكبير في غزو الشرق

(130) Wilson, Lawrence of Arabia, p 566.

(131) See Wilson, Lawrence of Arabia, pp 566–8.

الأوسط[132]. اعتمد تأثير "فرنسا" في الشرق الأوسط أساسًا على المعاناة البريطانية. فالغزو البريطاني لبلاد الشام ووعد "بلفور" ضمنا بشكل أو بآخر أن الطموحات الفرنسية في "فلسطين" لن تتم تلبيتها، فبحلول صيف عام 1918، كان هناك رأي في المكتب الأجنبي الفرنسي مفاده أن "فلسطين" ضاعت وعلى "فرنسا" أن تسعى لتجد تعويضًا لها في مكان آخر. ثم ظهر ما أضر بالسياسة الفرنسية والبريطانية، وهي اللغة الدبلوماسية الجديدة للرئيس "ويلسون"، والتي أنذرت الطرفين بالشؤم. حين دعا الرئيس الأمريكي إلى الحق في تحقيق المصير، والدبلوماسية المفتوحة، جعل من وجود صفقات سرية في الشرق الأوسط أمرًا بالغ التعقيد.

نتيجة لهذا، أصبح "فيصل" - مبدئيًا - في وضع قوي في "سوريا". في 30 سبتمبر عام 1918، أنشأ الحلفاء سلسلة من المناطق في الأراضي التركية المحتلة: إدارة منطقة العدو الجنوبية، والمكون من "فلسطين" والذي سيطر عليه البريطانيون، ومنطقة العدو الغربية المحتلة، وتشمل ساحل "سوريا" و"لبنان" وتديرها القوات الفرنسية، والأراضي المحتلة في الشرق، والمكونة من "سوريا"، والتي سُمح للعرب التابعين لـ"فيصل" بالسيطرة عليها بمشاركة القوات البريطانية[133]. بالطبع، كان الجنرال "اللنبي" يبسط سيطرته، الديكتاتورية، على القطاعات الثلاث. عمليًا، أثناء سيطرته على القوات العسكرية، لم يكن في وسع "فيصل" أو الفرنسيين اتخاذ أي قرار من دون الرجوع إلى "اللنبي" والحصول على موافقته. على أي حال، كان "اللنبي" قلقًا بشدة من المشاكل المحتملة التي قد تنتج عن الطموحات التنافسية للعرب والفرنسيين، حيث أسرّ في رسالة إلى رئيس

(132) TNA UK, CAB 23181482, War Cabinet Meeting, 3 October 1918.

(133) Fromkin, A Peace to End All Peace, pp 338-9.

القوات الإمبريالية الجديد، الجنرال السير "هنري ويلسون"، أنه أعتقد أنه لو يمتلك الفرنسيون الذكاء التكتيكي الكافي لاستطاعوا اكتساب العرب لصفوفهم. كما توقَّع أن السياسة في الأراضي المحتلة، خاصة في "فلسطين"، و"سوريا" ستكون صعبة بسبب الادعاءات التنافسية لليهود والعرب والأوروبيين وباقي الأقليات الأخرى(134). مرفق بتلك الرسالة مذكرة من "دي. جي. هوجارث" من المكتب العربي، يزعم فيها أنه مسرور لترك "سوريا" للفرنسيين، وحذَّر من أن الرأي العربي يرى أن الأمر لا يتماشى مع الاستقلال السياسي، وأن "بريطانيا" ستُتهم بأنها خدعت العرب ودفعتهم إلى خيانة الإسلام (أي الخليفة، سلطان "تركيا"). "بريطانيا" ستكون معرَّضة أيضًا لتهم النفاق في الإعلان المتكرر لحق تقرير المصير للأمم الصغرى(135).

سرعان ما تصاعدت الأزمة الأولى. مع انهيار المقاومة التركية، بدأت القوات العربية بالاندفاع من "دمشق" لـ"بيروت" عاصمة "لبنان" وباقي المدن الساحلية مع بداية أكتوبر. تسلمت حكومة عربية مقاليد الحكم في تلك المناطق. أمَّا الفرنسيون الذين خُصِصَ لهم "لبنان" في 30 سبتمبر عام 1918، فقد تملكهم الغضب الشديد، فبالنسبة لهم، ما حدث هذا يعتبر خرقًا للاتفاقيات التي وُقعت وقت الحرب، وبالطبع كل ما حدث أشعل الشكوك في طبيعة العلاقة بين "فيصل" والبريطانيين. أُجبر "اللنبي" على الإسراع في إرسال قواته إلى "بيروت" قبل وقوع صدام فرنسي - عربي، حيث حاول إقناع "فيصل" بالانسحاب، أمَّا "فيصل" فحذَّر من أنه ربما يتم إجباره على التنازل إذا لم

(134) 3o5h.nSFeieshJer, 'Syria and Mesopotamia in British Middle Eastern Policy in 1919', Middle Eastern Studies 34:2 (Apr 1998) p 130.

(135) Fisher, 'Syria and Mesopotamia', p 131.

يحصل على ضمانات بأن الانسحاب سيكون مؤقتًا فقط، ولن يتضمن أي تنازل من طرف العرب أو الهاشمية عن حقوقهم في "لبنان". تم التأكيد لـ"فيصل" أن تقسيم المناطق المحتلة ما هو إلا حل مؤقت حتى يصل مؤتمر السلام إلى قرار، وهو ما سمح لـ"فيصل" بترك الفرنسيين يسيطرون على "بيروت" وباقي المدن الساحلية[136].

مشكلات "فيصل" لم تتقيد ببساطة بالقوى الكبرى، فعند احتلاله لـ"سوريا" و"لبنان" عانتا من المجاعة في السنتين السابقتين للحرب. وهناك شهود عيان تحدثوا عن الأطفال الجوعى الذين يموتون من الجوع في شوارع "بيروت"[137]. شعر أصحاب النفوذ من أهل "دمشق" بالشك والضيق من فرض "فيصل" عليهم بقوة السلاح. فالأقليات المسيحية الكبرى في كلٍ من "لبنان" و"سوريا" نظروا للأسرة الهاشمية بعين الكراهية، حيث نجد تقريرًا أمريكيًا حول "سوريا" أشار إلى أن البلد بدت منقسمة بين من رغبوا في الحكم الفرنسي، وبين المسلمين الذين آمنوا أن العرب يستطيعون التطور سياسيًا من دون الحاجة إلى معاونة أو تدريب من الفرنسيين، وهؤلاء إذا لم تنتبه لهم "فرنسا"، فسينضمون إلى معسكر الأتراك[138]. "فيصل" وأتباعه حاولوا أن يحوزوا على قلوب وعقول سكّان الريف عبر إعادة الرفاهية التي وفرها لهم العثمانيون في السابق. كما استثمروا أيضًا بعض مخصصاتهم البريطانية في

(136) Meir Zamir, 'Faisal and the Lebanese Question, 1918– 20', Middle Eastern Studies 27:3 (Jul 1991) pp 404–26.

(137) Zeine N Zeine, The Struggle for Arab Independence: Western Diplomacy and the Rise and Fall of Faisal's Kingdom in Syria (Khayats, Beirut: 1960) p 33.

(138) Zeine, The Struggle for Arab Independence, pp 213–14.

شراء ولاء النبلاء السوريين، وعلى الرغم من هذا، فإن سلطة "فيصل" في "سوريا" كانت محدودة[139].

البريطانيون لم يسهلوا مشكلات "فيصل" عبر الطلب منه البقاء في دور عسكري بدلًا من الاشتراك في السياسة المحلية، ولذلك فإن البريطانيين نصّبوا قائدًا سياسيًا "سوريا"، وهو "علي رضا باشا"، حاكمًا على كل الأراضي المحتلة، وهو كرجل - امتاز بحس استقلالي - لم يشعر بأي ولاء لـ"بريطانيا" أو "فرنسا"، أو "فيصل"، كما بدأ في التدخل في المناطق اللبنانية التي احتلها الفرنسيون. لم يعترض "فيصل" لأنه كان يعرف أن السوريين يحبون أن يحكمهم واحد منهم، ومع هذا، فإن الأمر أثّر على قدرة "فيصل" على التعامل مع الفرنسيين. أدرك البريطانيون خطأهم وأزالوا "رضا باشا" في نهاية شهر أكتوبر، ثم نقلوا سلطاته إلى "فيصل" ومع هذا، بقي الأمير حاكمًا "صوريًا، تتلاعب فيه المنظمات القومية لأغراضهم الخاصة"[140]. من المؤكد أن تلك المنظمات مالت إلى تقييد سلطاته باستخدام سياسة المساومة. ومن ناحيته، كان عليه أن يحافظ على سيطرته على الوضع في "سوريا"، وأن يمثّل العرب أيضًا في مؤتمر السلام، الذي بسببه أمضي وقتًا طويلًا من عام 1919 في أوروبا. أمّا رعاياه في "سوريا"، الذي بدوا غير مدركين للواقع السياسي، فقللوا من شأنه بالسعي للحصول على التقدم السياسي بسرعة كبيرة.

استمر البريطانيون والفرنسيون في تهدئة الرأي العربي في آخر شهرين من عام 1918. في العام نفسه، أصدر البريطانيون إعلانين يخصان العرب، ربما السبب في إصدارهما هو سقوط البريطانيين في أعين العرب بعد إعلان اتفاقية

(139) See Gelvin, Divided Loyalties, pp 27-8.

(140) Anderson, The Eastern Question, p 378.

"سايكس بيكو"، والغضب الذي انتشر بين العرب بسبب وعد "بلفور"، وحاجة البريطانيين إلى الإثبات للأمريكيين بأنهم ملتزمون بدبلوماسية حق تقرير المصير الجديدة. أمّا الإعلانان فأولهما كان "إعلان السبعة" " The Declaration to the Seven"، وهو عبارة عن لجنة صغيرة من القوميين السوريين الذين كانوا على اتصال بالبريطانيين، وهكذا أعلنه "مارك سايكس" بعد موافقة الحكومة البريطانية في منتصف عام 1918، وفيه اعترافٌ باستقلال العرب في شبه الجزيرة العربية. شعر "سايكس" أنه لا يستطيع الاستمرار أكثر من هذا من دون موافقة الحكومة الفرنسية[141]. وبعد مناقشات تمت بين "لندن" و"باريس"، تم الإعلان عن قرار مشترك بين الحكومة الإنجليزية والفرنسية في 9 نوفمبر عام 1918، وفيه نجد أن الحكومة البريطانية والفرنسية التزمتا صراحّة "بإتمام التحرير المحدود للشعوب التي لطالما شعروا بالإضطهاد من الأتراك وتأسيس الحكومات القومية والإدارات التي تستمد سلطاتها من المبادرة ومن الخيار الحر للشعوب الأصلية"[142]. تجنب الإعلان بحرص استخدام كلمات مثل "الاستقلال". ومثلما علق أحد المعلقين، "الإعلان لم يناقض اتفاقية "سايكس بيكو"، بل أخفى أهم تفاصيلها فقط"[143]. بالفعل، الإعلان بالنسبة للوزراء البريطانيين لم يمثل حوارًا لمبدأ حق تقرير المصير، ولكنه عبارة عن قرار صعب للتوازن التقليدي للقوى، وفي تلك الحالة يمكن استخدامه لإضعاف القضية

(141) Fromkin, A Peace to End All Peace, p 341.

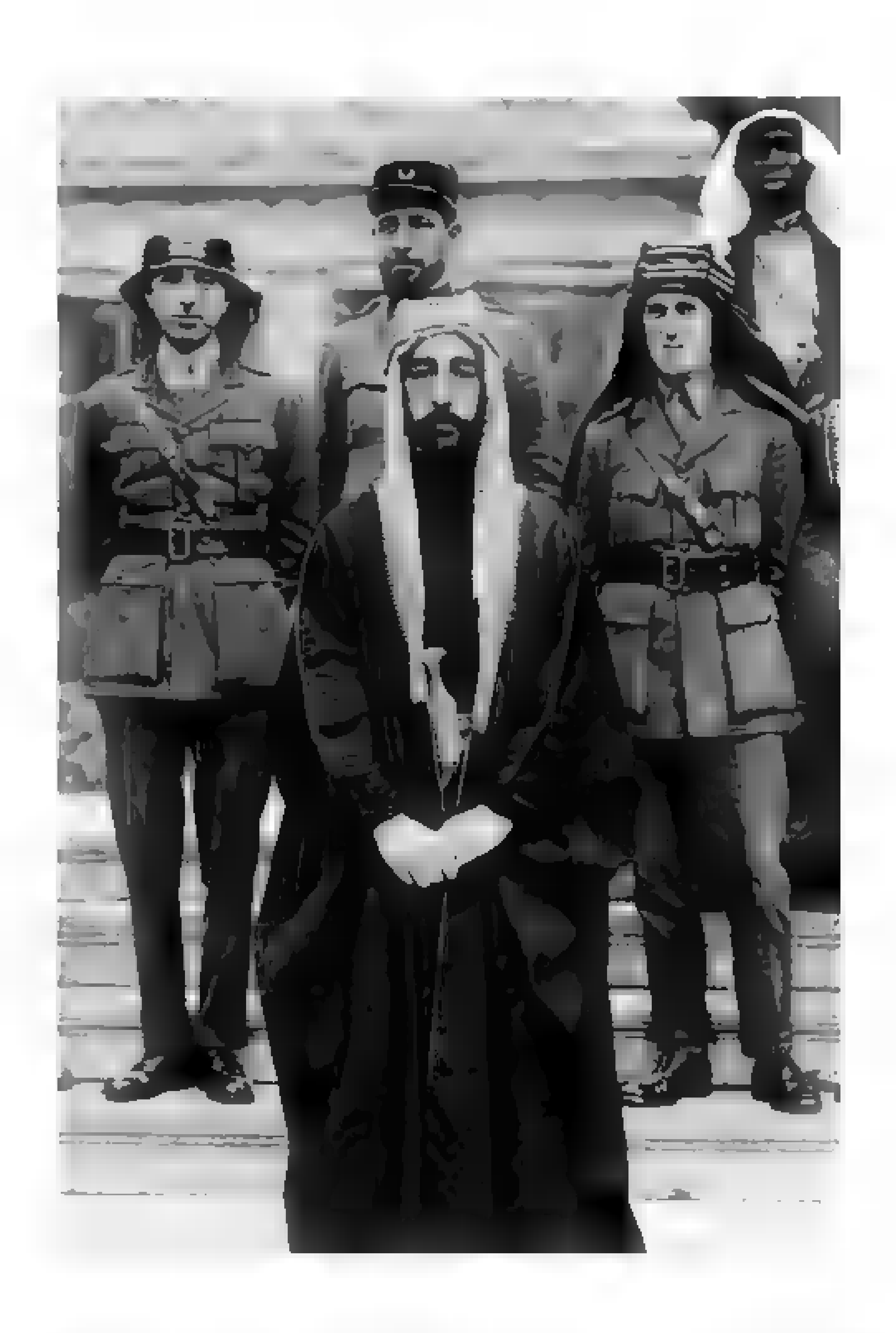
(142) The text is in Cmd. 5974, Report of Committee set up to consider certain correspondence between Sir Henry McMahon and the Sherif of Mecca in 1915 and 1916, pp 50–1.

(143) Nevakivi, Britain France, and the Arab Middle East, p 82.

الفرنسية في أراضي الشرق الأوسط[144]. ولذلك فإن القضية العربية باتت في وضـع قـوي جدًا عشية رحيل الأمير "فيصل" لحضور مؤتمر السلام، وحينما اتضح أن تلـك الوعـود لم تتحقق، شعر العرب أنهم تعرَّضوا للخيانة والخديعة.

---

(144) John Darwin, Britain, Egypt and the Middle East: Imperial Policy in the Aftermath of War, 1918-1922 (Macmillan, London: 1981) p 155.



"فيصل" وموفداه ومستشاراه في مؤتمر السلام في "باريس" في عام 1919 ووراءه من اليسار لليمين العميد "نوري السعيد" والعقيد "بيساني" من "فرنسا" والكولونيل "توماس إدوارد لورانس" أو "لورانس العرب".

(الجزء الثاني)

مؤتمرات السلام


المكتبة الإلكترونية العراقية

5

الأمير "فيصل" ومؤتمر السلام

الأمير "فيصل" يغادر متجهًا إلى أوروبا

أدرك "فيصل" أنه من غير المحتمل أن يحوز بسهولة على ولاء المسيحيين في "سوريا" و"لبنان" في حال ربط الهاشميين والقضية العربية بالإسلام. لذلك في 11 نوفمبر 1918، في يوم انعقاد الهدنة في أوروبا تحدّث في حشد كبير في مدينة "حلب". استنكر القواعد التي قام بها العثمانيون وأوضح أن الثورة التي قادها لم تكن مدفوعة بأي توسع شخصي أو أسري. وأنه لم يكن أبدًا أداة في يد القوى الغربية، وبالإشارة إلى الإعلان الإنجليزي الفرنسي فقد لاحظ أن الاستقلال سيأتي حتمًا لو نظّم العرب أنفسهم بشكل مناسب في ظل حكومة مستقرة. وأهم ما ركّز عليه في الحديث تمثّل في إعلانه أنه عربي قبل أي شيء آخر، فقد أدان علنًا الطائفية الدينية وأعلن أن كل الأديان متساوية أمام القانون. ففي السنوات العشر التالية ظل "فيصل" يزور "سوريا" و"لبنان" وتلقى عمومًا ترحيبًا يتسم بالود، ولكن في بيروت، التي يقطنها سكان أغلبهم

من المسيحيين، فإن المسلمين فقط هم من رحبّوا به بحماسة، وهو ما دلل على أن هناك مشكلات تلوح بالأفق[145].

في 21 نوفمبر عام 1918، غادر "فيصل" متجهًا إلى أوروبا على متن سفينة حربية بريطانية، فالحكومة البريطانية حسب ما قاله "لورانس"، اقتنعت أن مصالح البريطانيين تتمثل في دعوته إلى حضور مؤتمر السلام[146]. كما سيهتم "فيصل" بنفسه بالقضية العربية وحق تقرير المصير وتلك القضية ستوفر له الفرصة لاجتذاب الدعم الأمريكي.

عاد "لورانس" إلى أوروبا في نهاية شهر أكتوبر، ووافق الملك "حسين" على أن "فيصل" سيتصرف بصفته مبعوثًا مفوّضًا لا حدود لصلاحيته في مؤتمر السلام، وصحب "فيصل" مجموعة صغيرة من الوفد المكون من العرب، ومن ضمنهم "نوري السعيد" وتصرُّف "لورانس" بصفته مستشار "فيصل" الرئيسي، ولم يُسرّ الفرنسيون من قرار "بريطانيا" بتقديم دعوة للأمير "فيصل" لحضور مؤتمر السلام، أدركوا أنه كان يريد أن يستولي على "سوريا" كلها، ولذا بدوا متلهفين على إبعاده وأدركوا أيضًا أن "فيصل" ربما سيكون رجلًا جذابًا للأمريكيين، وخصوصًا حملتهم لحق تقرير المصير، وبعد محاولة فاشلة لمنع "فيصل" من الحضور، جرّبوا سياسة التهدئة ولدى وصوله إلى "مارسيليا" مُنِحَ وِسام جوقة الشرف قبل جولة في ميادين الحرب للجبهة الغربية وعومل على أنه ضيف مميز، ولكن ليس مبعوثًا له صلاحيات واسعة يحق له التحدث باسم الأمة العربية.

---

(145) Zeine, The Struggle for Arab Independence, pp 49-51.

(146) Wilson, Lawrence of Arabia, p 586.

إبعاد "فرنسا" عن "سوريا" هو بالتحديد ما أراده الكثيرون في الحكومة البريطانية، وليس أكثر مما أراده اللورد رئيس المجلس "لورد كورزن"، وهو مَن أدار المكتب الأجنبي عام 1919، لأن "أرثر بلفور" انشغل بالمعاهدات، فصار "كرزون" وزير الخارجية في أكتوبر عام 1919، عاكسًا للرأي الشائع داخل دوائر الحكومة البريطانية بأن "فرنسا" يجب ألا يُسمح لها بإعاقة مسارات خطوط الاتصال البريطانية للهند البريطانية في الشرق الأقصى. ومع التمكن من تدمير الطموحات الألمانية، لم تعد الرابطة الأساسية بين البريطانيين والفرنسيين موجودة، وبدلًا من هذا، فإن العلاقات الإنجليزية الفرنسية ربما لا تعود حرة أو مرنة مرة أخرى لما كانت عليه وقت حادثة "فاشودة". وحينما نشب نزاع استعماري في "السودان" عام 1899، جلب القوتين لحافة الحرب. كان يوجد مناصرون آخرون لفكرة استخدام العرب وإبعاد الفرنسيين عن الشرق الأوسط ومن ضمنهم المكتب العربي في "القاهرة" وموظفو المكتب الأجنبي، مثل "أرنولد توينبي"[147]، ممن أتيحت لهم العديد من الفرص لعرض حالتهم.

توجّه "توماس إدوارد لورانس" لدى عودته من الشرق الأوسط في نوفمبر عام 1918، إلى اللجنة الشرقية في الحكومة البريطانية، وقدَّم مقترحًا جريئًا لإدارة الشرق الأوسط أعقاب الحرب - فنجد مثلًا أن "فيصل" استطاع أن يدير "سوريا"، وبلاد الرافدين التي تصوَّر الجميع أنها لا بد أن تنفصل إلى منطقتين تحت قيادة "زيد" و"عبد الله"، وبدا أن مكتب الحرب والمكتب الأجنبي يدعمان خطة "لورانس" الكبرى، ومع هذا فإن مكتب "الهند"، الذي رفض ما اعتبره

(147) Kedourie, In the Anglo-Arab Labyrinth, p 213.

تدليل للهاشميين من زملائهم البريطانيين، بدا معارضًا للأمر بشدة[148]. وهناك نسخة غير كاملة من تلك الخطة ظهرت عام 1922)راجع فصل 7) - والذي بحلوله، سيكون الهاشميون والقشية العربية قد خسرا "سوريا".

في تلك الأثناء، كان "لويد جورج" يفكر كثيرًا في الشرق الأوسط. كان يعتبره مساحة فارغة يمكنه الرسم عليها كيفما يشاء. المطالب اليونانية في أسيا الصغرى يمكن تحقيقها، وأيضًا المطالب اليهودية لإنشاء وطن قومي لهم في "فلسطين"، وبما أن الأرمن والأكراد سيخططون لأنفسهم إنشاء دولًا قومية والدول العربية ستؤسس تحت وصاية البريطانيين. ستصير "مصر" مملكة تحت الإشراف البريطاني، والدول المحلية العميلة يمكن شراؤها بثمن بخس تحت مظلة السيطرة البريطانية. وفقًا لهذا السيناريو، لن نجد سوى قوات صغيرة مطلوب منها الحفاظ على القوة البريطانية ونفوذها في المنطقة، وأي دور يمكن لـ"فرنسا" أن تلعبه في هذا السياق بقي أمرًا غير واضح بالمرة.

لطالما أحب الانجليز إبعاد الفرنسيين من اتفاقيات الشرق الأوسط تمامًا. مع هذا، فإن هذا الأمر أثبت أنه مستحيل. فتورط "فرنسا" في الشرق تم حدُّه بسبب حاجتها للتركيز في جهودها العسكرية على الجبهة الغربية. فلماذا يجب اعتبار التضحيات الفرنسية ضد الألمان في معارك "المارن" و"فيردين" و"شمباين" أقل استحقاقًا من الانتصارات السهلة التي يحققها البريطانيون في الشرق الأوسط؟ البريطانيون، خاصة "لويد جورج"، أدركوا مثل هذا الزعم،

(148) Timothy J Paris, 'British Middle East Policy-Making after the First World War: The Lawrentian and Wilsonian Schools', The Historical Journal, Vol 41, No 3 (Sep 1998) p 773.

ورغم أن "بريطانيا" تحملت القتال العنيف في الجبهة الغربية من منتصف عـام 1917، إلا أن الأمر لم يكن بهذه الأهمية. ومع هذا فإن مستقبل السلام في العالم اعتمد بشـكل أكثر على العلاقات الودية بين "بريطانيا" و"فرنسا" أكثر من الحفاظ على القضية العربية في "في حال جيدة". اضطر "لويد جورج" أن يمضي أول عشرة أشهر من عام 1919 ممزقًا بين رغبته في إعادة تقسيم الشرق الأوسط بأكمله وفق الشروط البريطانية، وبـين إبقـاء "فرنسا" حليفته. أحيانًا، لم يكن واضحًا أي الأمرين له الأولوية.

في 1 ديسمبر عام 1918، التقى كل مـن السـيد "لويـد جـورج"، و"جـورج بينجـامين كليمانصو" في "لندن" وعقدا اتفاق شرف مـن شـأنه أن يـدعم حقـوق "فرنسـا" في بـلاد الشام وفي "سوريا". وفي المقابل فإن السيد "لويد جـورج" أمـن مكاسـب بريطانيـا. أصر على أن نصيب "بريطانيا" في الشرق الأوسط يجب أن يكون أكبر، خصوصًـا بعـد الأرواح والأموال التي بذلتها "بريطانيا" لتأمين الشرق الأوسط. كانت توجد أكثر من مليون قـوة عسـكرية تابعـة للمملكـة البريطانيـة في الشرق الأوسـط في نهايـة عـام 1918. وتقـدم "اللنبي" نحو "سوريا"، كان واحدًا من انتصارات "بريطانيا" المجيـدة في الحـرب. أوضـح "لويد جورج لكليمانصو" أنه أراد أن يسيطر عـلى "فلسـطين" وعـلى المنطقـة الموجـودة حول "الموصل"، و"الموصل" كانت مرغوبة بسبب مستودعات النفط الكبـيرة فيهـا، مـن أجل تأمين مـوارد الـنفط المسـتقبلية، لهـذا صـارت هـدفًا مهـمًا مـن أهـداف السياسـة البريطانية، رغم أنه لا يعد بأي وسيلة من الوسائل هدفًا بعيدًا[149].

(149) See the discussions in Marian Kent, Oil and Empire: British Policy and Mesopotamian Oil, 1900–1920 (Macmillan, London: 1976) pp 124–6, and Darwin, Britain, Egypt and the Middle East, pp 258–65.

"كليمانصو" بدا متسامحًا مع مثل تلك المطالب البريطانية مع الاعتراف بوجود مشكلات ربما انتابته مع اللوبي الاستعماري الخاص به، وأجاب القائد الفرنسي بفتور على مطالب "لويد جورج" بقوله: "ستحصل عليها". حقيقة لم يكن "كليمانصو" مهتمًا نهائيًا بتوسعات الإمبراطورية الفرنسية، لأن اهتمامه الأساسي، وربما الوحيد، تمثّل في الإبقاء على الدعم البريطاني المقدم لـ"فرنسا" ضد الألمان، وخضوعه إلى مطالب "لويد جورج"، كان مقابل دعمه الواضح لمطلب "كليمانصو" لإدارة فرنسية موحدة على "سوريا"، وهناك أيضًا وعود بالسيطرة على آبار النفط في الشرق الأوسط. لم نجد أي وثيقة رسمية توضح الخطوط الأساسية بـ"اتفاق الشرف" هذا. "كليمانصو" أراد أن يتأكد من أن طموحات "فرنسا" في الشرق الأوسط لن تنتهي تمامًا[150]. ومع هذا فإن "لويد جورج" والحكومة البريطانية وجب أن يستمرا في اللعب بكارت "فيصل"، وإبعاد الفرنسيين. وربمًا شجع العرب على العناد في التعامل مع الفرنسيين أكثر مما تمليه الحكمة.

في 4 ديسمبر، اجتمعت اللجنة الشرقية وحضر "لورانس" مرة أخرى ولكن، اعترض "كارزون" على اتفاقية "سايكس بيكو"، والتي اعتقد الآن بأنها فاقتها تمامًا أو سبقتها حقائق جديدة على أرض الواقع. أدرك أن الاتفاقية تُدَخِّرَ المتاعب في المستقبل مع الرأي العربي، ومع هذا فإن وزير الخارجية "آرثر بلفور" كان يدرك، دون شك، باتفاق "لويد جورج" السري مع "كليمانصو"، وأعلن أن

(150) There is no actual oftcial government note of this conversation. See S W Roskill, Hankey, Man of Secrets Vol 2, 1919-1931 (Collins, London: 1972) pp 28-9. In August 1919 Clemenceau relied on the meeting to accuse Britain of perfidy in Doc 242 of DBFP I/4. See also Lloyd George, The Truth about the Peace Treaties, p 1038.

"بريطانيا" لن تراجع أو تعدِّل في بنود اتفاقية "سايكس بيكو". كان يرى أن الاتفاقية لن تُفعّل إلا إذا ضغط الأمريكيون على هذا الأمر وألحوا عليه، ومثلما لاحظ كاتب السيرة الذاتية لـ"لورانس"، فإن نتائج هذا الاجتماع تمثَّلت في أن الوزارة البريطانية: "لم تكن مستعدة لإعطاء "فيصل" أي شيء سوى التعاطف"[151].

من دون شك، اعتبرت الحكومة البريطانية تعاليم الرئيس "ويلسون" بشأن حق تقرير المصير القومي، أداة مفيدة لإبعاد الفرنسيين عن "سوريا"، كما ناسب الأمر السياسة البريطانية في الوقت الحالي - على الأقل - بما أن "فيصل" حصل على مساعدات من الأمريكيين، وليس من البريطانيين؛ حيث تمثلت سياستهم في "دعم "فيصل" والعرب طالما استطعنا، ولكن من دون إبعاد الفرنسيين"[152]. "جورج كرزون"، أدرك أيضًا أن تمكين الأسرة الهاشمية في "سوريا" بدلًا من بلاد الرافدين أو "فلسطين" سيكون في صالح الطموحات البريطانية في الشرق الأوسط[153]. وفي الوقت نفسه، فإن الموقف الفرنسي في "سوريا" كان يسوء، فالفرنسيون أوضحوا أنهم أرادوا ألا يكون هناك مناقشات بريطانية مع "فيصل" فيما يتعلق بـ"سوريا"، و"سوريا" - على قدر ما سمح به الموقف - هي الآن تقع تحت مسؤولية "فرنسا" وليست خاضعة لنتائج مؤتمر السلام. وحينما زار "بلفور" "فيصل" في 12 ديسمبر، فإن الأخير حذَّره من أن العرب سيدخلون في حرب مع "فرنسا" من أجل

---

(151) Wilson, Lawrence of Arabia, p 591.

(152) Paris, 'British Middle East Policy-Making after the First World War', p 779. See also Timothy J Paris, Britain, the Hashemites, and Arab Rule, 1920-1925: The Sherifian Solution (Frank Cass, London: 2003).

(153) John Fisher, Curzon and British Imperialism in the Middle East 1916-19 (Frank Cass, London: 1999) p xv.

"سوريا"، حتى ولو بدت فرص النجاح ضد قوى عظمى مثل "فرنسا" ضئيلة. أكّد له "بلفور" أن شكوكه التي تتعلق بالخطط الفرنسية لا أساس لها في الواقع[154].

كما التقى "فيصل" بـ"حاييم وايزمان" حينما كان في "لندن". كانا قد التقيا من قبل في يونيو عام 1918، وأكد له "وايزمان" أن الصهاينة لم يريدوا تأسيس حكومة يهودية في "فلسطين" ووعد أيضًا بتدفق المال اليهودي والمساعدات للمنطقة. من المثير للجدل أن "وايزمان" استخدم الخداع كي يضمن الإذعان العربي للطموحات الصهيونية، أي الهجرة اليهودية الجماعية إلى "فلسطين"، وفي الوقت نفسه منع العرب من معارضة البريطانيين. بقي "فيصل" خاضعًا لوعد "بلفور"، رغم أن نظرة العرب والصهاينة له بدت مختلفة إلى حد كبير، وتشجّع "فيصل" بدافع قلقه لتأمين مساعدة من اليهود للضغط على الولايات المتحدة للتحدث باسم المطالب العربية في "سوريا". أدرك "وايزمان" أن إذعان العرب لوعد "بلفور" هو مفتاح تفعيله، كما شعر "فيصل" بالانجذاب لوعد "بلفور" لعدة سنوات، وسقط في فخ الاستثمار اليهودي واسع المجال في "فلسطين". ووفقًا لوصف "وايزمان"، فإن "فيصل" لم يتوقع حدوث أي مشكلات في مستقبل العلاقات العربية اليهودية، ومع هذا لا نرى أي نوع من أنواع الأدلة على أن "فيصل" دعم أي نوع من أنواع تأسيس الدولة اليهودية في "فلسطين"[155]. في الأيام الأخيرة من شهر ديسمبر عام 1918، بدأ كل من "فيصل" و"لورانس" في تدوين إذعان يتم تقديمه في مؤتمر

---

(154) Wilson, Lawrence of Arabia, pp 592–93.

(155) Charles D Smith 'The Invention of a Tradition: The Question of Arab Acceptance of the Zionist Right to Palestine during World War I', Journal of Palestine Studies, XXII, 2 (Winter 1993) pp 56–7.

السلام باسم العرب. بدا من الواضح أن أمل العرب الأخير لنيل الاستقلال في "سوريا" تمثَّل في الولايات المتحدة الأمريكية.

بقيت الحكومة الفرنسية مصممة على استثناء "فيصل" من مؤتمر السلام، فقط اعترفت به على أنه ضيف يمكن احترامه، ولكن ليس كموفد، والسبب تمثل في أنهم أرادوا من "فيصل" أن يعتمد عليهم تمامًا. وفي قسم من مذكراته الشخصية، كتب "لورانس" أنه في يناير عام 1919، في الفقرة التي تتعلق بتقبل "فيصل" كموفد، حينما اقترح "بلفور" ترشيح وفد من الحجاز، فإن "ستيفان بيشون"، وزير الخارجية الفرنسي، اعترض. وصف "توماس إدوارد لورانس" الأمر كالتالي: "قبل (كليمانصو) حضور أحد الموفدين، وصرَّح "بيشون" أنه لا يحق لهم أي شيء آخر لأنهم لا يزالون قومية وليدة، وليسوا دولة مستقلة". اعترض "بلفور" و"لويد جورج" بحدة على البيان القائل إنهم و"فرنسا" اعترفوا باستقلالهم. هذا وقد زار الموظف الفرنسي في وزارة الخارجية "جان فيو"، الأمير "فيصل" وأنذره ألا يبعد عن "فرنسا". استمر وصف "لورانس" كالتالي: "صرَّح أن "فرنسا" بلد قوي، وأنه في اللحظة التي يتوقف "فيصل" فيها عن الاستماع لمثيري القلاقل في بلاد الرافدين و"سوريا"، الذين يعملون ضد المصالح الفرنسية، سيصبح كل شيء أفضل بالنسبة له. كما لم يعترفوا بوجود جيش عربي في "سوريا"، ولو أن الجنرال "اللنبي" صرَّح بهذا، فهو كاذب. وهكذا فإن "فيصل" اعترف أن تمثيله للعرب في مؤتمر السلام محل نزاع وأمضى ليله تعسة جدًا. وجدته يتجوَّل في غرفة الفندق في

الساعة الثانية فجرًا. عندما ربحنا، اعتبر الأمر بشرى خير لكل المعارك التي سيواجها في المستقبل. بدا سعيدًا جدًا"[156].

النفط وفق الاستراتيجية البريطانية في مفاوضات السلام

قبل اندلاع الحرب، أشار "ونستن تشرشل"، لورد البحرية الأول، أن البحرية الملكية ستتوقف عن استخدام الفحم وستبدأ في استخدام النفط كوقود للسفن، وحازت على كميات من النفط من بلاد فارس وبلاد الرافدين. أمّا خلال الحرب، فقد اعتمدت "بريطانيا" على الولايات المتحدة في توفير الموارد التي تحتاجها، ولكن البحرية بدت قلقة حيال عدم سيطرة الإمبراطورية البريطانية، التي يجب أن تسيطر على الأقل على بعضٍ من احتياطات النفط العالمية. أخبر الكابتن "رينجالد هول" من المخابرات البحرية "جرترود بيل" عام 1915، "أن النجاح الكامل للحرب يعتمد على ما قمنا به هناك"، وهو يشير إلى خريطة بلاد الرافدين[157]. ومع هذا فهناك دليل على أن النفط بقي اهتمامًا جانبيًا للمفاوضات البريطانية في "باريس"، ومن الصحيح أيضًا القول إن الحكومة البريطانية حينما أرادت الانسحاب من "العراق" في العامين 1921 و1922، كانت لا تزال تعتبر البصرة أكثر أهمية من "الموصل"، فـ"البصرة" منطقة منتجة للنفط. من هنا بدأ اهتمام الحكومة البريطانية بالنفط يزداد في فترة ما

---

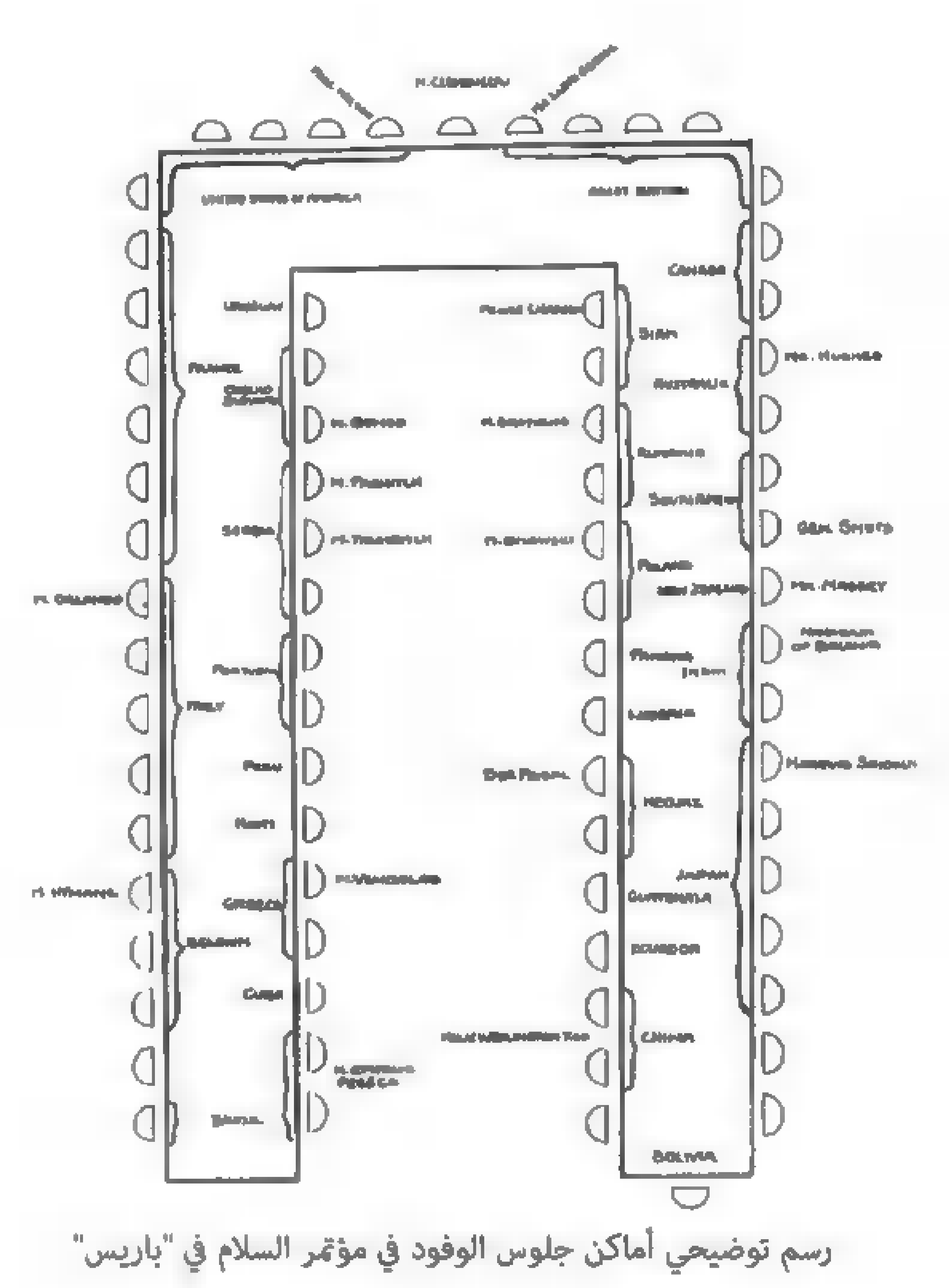
(156) Diary of the Peace Conference Jan 1919, in Garnett (ed), Letters of T.E. Lawrence, pp 273-4.

(157) Quoted in V H Rothwell, 'Mesopotamia in British War Aims, 1914-1918', The Historical Journal, Vol 13, No 2 (Jun 1970) p 287.

بعد الحرب، وبدأ النفط يحتل أولوياتها. لم ترتفع أهمية النفط إلا عند اندلاع الحرب العالمية الثانية عام 1945. كانت هناك أولوية قومية ساحقة للنفط من قبل الحكومة البريطانية.

أكثر الحضور تبجيلًا واحترامًا بمؤتمر السلام

بدأ مؤتمر السلام في "باريس" في منتصف يناير عام 1919؛ حيث اقترحت "بريطانيا" أن الأراضي العربية التي تم الاستيلاء عليها من "تركيا" ستخضع إلى ما أطلق عليه "النصح والمساعدة" من سلطة الانتداب حتى تستطيع أن تقف على قدميها، ووافق مجلس العشرة على المقترح. وهكذا فإن السكّان الأصليين سيكون لهم حق اختيار سلطة الانتداب التي ستحكمهم.



رسم توضيحي أماكن جلوس الوفود في مؤتمر السلام في "باريس"

سلطة الانتداب كذلك ستخضع لإشراف عصبة الأمم. "بيشون"، الوزير الفرنسي للشؤون الخارجية، اقترح في فبراير أن "فرنسا" تريد توسيع دائرة نفوذها والمناطق التي تقع تحت سيطرتها المباشرة، بموجب اتفاقية "سايكس بيكو"، أي أن تخضع المناطق المخصصة للسلطة الفرنسية فقط. جادل "بيشون" أن مركز "فرنسا" الاقتصادي وصلاتها وعلاقاتها الثقافية مع المنطقة جعلها أصلح دولة للانتداب. كما عبَّرتْ "فرنسا" أيضًا عن استعدادها للعمل مع "فيصل" في حالة قبوله درجة أكبر من السيطرة الفرنسية على حكومته. كان واضحًا أن الفرنسيين قد قرروا أن نظام الانتداب لم يختلف كثيرًا عمّا كان أثناء ممارساتهم الاستعمارية في المغرب.

عرض "فيصل" قضيته في 6 فبراير عام 1919[158]. بحلول هذا الوقت، كان قد ترك انطباعًا جيدًا، وحاز على إعجاب العديد من الوفود الحاضرة. كتب "روبرت لانسينج"، وزير الخارجية الأمريكي، بعدها بعدة سنوات مادحًا ومفرطًا في مدحه لفيصل، وعلّق مُوفدٌ آخر قائلًا: "كان أكثر الحضور تبجيلًا واحترامًا بمؤتمر السلام"[159]. "لويد جورج" كان مؤمنًا بأن "فيصل"، "بعينيه اللامعة وطبيعته العقلانية المفكرة، كان ليترك انطباعًا جيدًا في أي مؤتمر يحضره"[160]. وأعلن الصحفي الأمريكي "ستيفان بونسال"، أن الأمير

(158) Unless otherwise stated, this is based on Papers Relating to the Foreign Relations of the United States, 1919: The Paris Peace Conference (13 vols, Washington, D.C.: 1942-7) Vol 3 (1919) pp 889-94, hereafter FRUS PPC (1919).
(159) 1Ja5m. SeisrHeadlam-Morley, A Memoir of the Paris Peace Conference, 1919 (Methuen, London: 1972) pp 30-1.
(160) Lloyd George, The Truth about the Peace Treaties, p 1038.

"فيصل"، و"نوري باشا"، و"لورانس"، كانوا "أكثر الحضور تألقًا في المؤتمر. "فيصل" لم يأتِ متسولًا حقوق شعبه، لكن جاء يطالب بها، ويطالب بتنفيذ الاتفاقيات التي عقدت أثناء الأزمة، ثم تم تناسيها بعد انتهائها"[161].

أدرك "فيصل" جيدًا أن قضيته يجب أن تكون قوية كي تجتذب تعاطف الولايات المتحدة على وجه الخصوص. ووجب أن يثبت أن خطط قوات التحالف في الشرق الأوسط خلال فترة الحرب، تضر العرب وحقهم في تقرير المصير. كما وجب عليه أن يثبت أن الأسرة الهاشمية هي التي تقود العرب في قضيتهم. كان عنيدًا بخصوص تلك النقطة الأخير، حيث قال: "يتمتع والدي بميزة وسط العرب لكونه كبير أعظم عائلة عربية، وبوصفه شريف مكة. وهو مقتنع بالنجاح التام لفكرة الوحدة، وإن لم تتم أية محاولة لإعاقتها أو عرقلتها عبر تقسيم المنطقة كغنائم حرب بين القوى العظمى"[162].

كانت مطالب "فيصل" مباشرة، ألا وهي الاستقلال لكل العرب، بدءًا من "لواء الإسكندرونة" وحتى "إيران" جنوبًا. أساس هذه المطالب هو أن تلك المنطقة كانت مناسبة لتنفيذ حق تقرير المصير القومي. فكل السكّان يتحدثون اللغة العربية وهم من العرق السامي، كما أن هناك القليل من الأمم التي تبدو متناغمة جدًا. علاوة على هذا، فإن العرب قاتلوا مع الحلفاء، ونفّذوا نصيبهم من الصفقة، والآن كان دور قوّات التحالف لتنفيذ ما عليهم. عرض "فيصل" لقضيته لم يحتوِ على أي مبالغات. لكن، المئة ألف جندي عربي الذي زعم أنهم

---

(161) Stephen Bonsal, Suitors and Supplicants: The Little Nations at Versailles (Prentice-Hal inc, New York: 1946) p 32.

(162) Bonsal, Suitors and Supplicants, p 33.

شاركوا في الحرب، لم يكن لهم وجود من الأساس. في الوقت نفسه، وجد "لويد جورج" بعض الثغرات في حقيقة مشاركة العرب وإسهامهم عسكريًّا في الحرب، مقارنة بالتزام "بريطانيا" بتقديم أكثر من مليون من قوّاتها، لكنه بقي إيجابيًا بشكل كبير حيال القضية العربية. أمَّا محاولة "بيشون" في التأكيد على الدور الهام الذي لعبته "فرنسا" في حملة الشرق الأوسط، فقد أدحض "فيصل" زعمه هذا بألطف طريقة ممكن، حيث أشار إلى حقيقة الأعداد التي لا يُعتد بها للقوَّات الفرنسية التي قاتلت في الشرق الأوسط.

قضية الأمير "فيصل"[163]

في مذكرة 29 يناير عام 1919، في مؤتمر السلام، طالب "فيصل" بالحصول على الاستقلال لكل الشعوب المتحدثة باللغة العربية في "آسيا" ومن "لواء الإسكندرونة" - "ديار بكر" جنوبًا.

استند في طلبه على النقاط التالية:

1- تلك المنطقة كانت مهد حضارات هامة، وشعوبها تملك القدرة على لعب دور مهم في العالم.

2- كل سكانها يتحدثون اللغة العربية.

3- المنطقة لها حدود طبيعية تؤمِّن وحدتها ومستقبلها.

(163) FRUS PPC (1919), Vol. 3, pp 889–90.

4- سكانها من عرق واحد وهو العرق السامي - والأجانب لا تبلغ نسبتهم سوى 1%.

5- تشكِّل المنطقة وحدة اجتماعية واقتصاديَّة، ومع كل تطور لسبل الاتصالات فإن وحدتها صارت أقوى، كما أن هناك أممًا قليلة في العالم متناغمة إلى هذا الحد.

6- الشعوب التي تتحدث العربية انضمت إلى صفوف الحلفاء عندما احتاجوا إليهم وأوفوا بوعودهم.

7- مع نهاية الحرب، قدَّم الحلفاء وعودًا بالاستقلال. هم قد فازوا الآن بالحرب. والشعوب التي تتحدث العربية، آمنت بحقها في نيل الاستقلال، وهم يستحقونه بالفعل، وهو ما بدا متوافقًا مع المبادئ التي أرساها الرئيس الأمريكي "ويلسون" وقبلها الحلفاء.

8- الجيش العربي كافح لنيل حريته، وكلفه الأمر الكثير؛ حوالي 20000 رجل قُتلوا. "اللنبي" اعترف بخدمات الجيش العربي في رسائله، كما بدا الجيش معبرًا عن العرب، حيث تكوَّن من الشباب السوريين، واللبنانيين، وأهل الحجاز، وبلاد الرافدين، والفلسطينيين، وأهل اليمن.

9- دماء الجنود العرب، والمذابح وسط المدنيين، والدمار الاقتصادي في البلدان التي تعرضت للحرب، تستحق الاهتمام.

10- في "دمشق"، و"بيروت"، و"طرابلس"، و"اللاذقية"، وباقي الأقاليم السورية الأخرى، أعلن الشعب استقلاله، ورفع العلم العربي أمام قوات الحلفاء قبل وصولها. أمر قائد قوَّات الحلفاء فيما بعد على تنكيس العلم، لأنه سيتم

تأسيس حكومة أجنبية مؤقتة، لحسن انتهاء مؤتمر السلام وتأمين مستقبل البلد. لو أن العرب علموا بأمر الاتفاقية السرية التي كان يتم طبخها، لما سمحوا له بالدخول وتولية حاكم أجنبي عليهم.

11- السوريون الذين انضموا لجيش الشمال، اعترف الحلفاء بهم على أنهم أمم متحاربة أو معادية وطالبوا عبر الوفد الحالي باستقلالهم.

القسّ "هوارد إس. بليس"، رئيس الكلية البروتستانتية في "بيروت"، خاطب مجلس العشرة بعد أسبوع من لقاء "فيصل". كان القسّ سوري المنشأ؛ لكن من أصول أمريكية، جادل اللجنة من أجل إرسال لجنة إلى "سوريا" للسماح للسوريين "بالتعبير عن آرائهم السياسية بشكل مثالي وشكل الحكومة التي يرغبون فيها، وأي سلطة - إن وُجدت - يجب أن تكون سلطة الانتداب الحامية لهم"[164]. "كليمانصو" بدا عدائيًا؛ فالفرنسيون نظّموا حضور الوفد المسيحي اللبناني الذي رفض أي محاولة لوجود أمير بدوي قائدًا للأعراق المتطورة في "سوريا"، حيث حضر "شكري أنور"، رئيس اللجنة السورية الفرنسية المركزية، ليحاول المجادلة بشأن احتياج "سوريا" اليائس إلى الوصاية الفرنسية[165]. جادل "غانم" لصالح انفصال "سوريا" عن شبه الجزيرة العربية لأنها بلدٌ مختلف، وأنه من أجل "ربط "سوريا" بشبه الجزيرة العربية، فإن هذا الأمر سيتسبب في حالات عنف في الأراضي التي يعيش بها هذا العرق"[166]. حذّر الوفد من مخاطر السماح للمتعصبين بالسيطرة على

(164) FRUS PPC (1919), Vol. 3, p 1016.
(165) FRUS PPC (1919), Vol. 3, pp 1024-38.
(166) FRUS PPC (1919), Vol. 3, p 1029.

"سوريا"، بسبب أن تعدادها السكاني اعتمد على السوريين المسلمين الذين يُعتبرون من أوائل مؤسسي المملكة المسلمة (لا العربية) القديمة، والتي لم يديرها الحجاز". فرضًا لصالح البريطانيين، تمت الإشارة إلى أن بعض المسلمين على وجه الخصوص كانوا يسعون إلى تأسيس إمبراطورية للإسلام، تمتد إلى "أفريقيا" و"الهند""[167]. غانم كانت له وجهة نظر؛ مختلف الفصائل المسيحية المتمركزة في "لبنان" هي التي كانت قلقة من حكم الأسرة الهاشمية، وحقًّا فإن الأمة العربية التي تحدث عنها "فيصل" بأنها مُوحدة، كانت أكثر تنوعًا مما زعم هو. حاول "فيصل" باستمرار استمالة المسيحيين اللبنانيين منذ أن سيطر على دمشق، حيث عرض على المسيحيين البارزين مناصب عالية المكانة ومناصب دبلوماسية. ورغم جهود "فيصل" فإنه لا يسعنا سوى القول بأن محاولته استمالة المسيحيين اللبنانيين، والسوريين لم تنجح. فقط مجموعة صغيرة من المسيحيين هي التي أيدت القضية الهاشمية[168].

على الرغم من هذا، لم يرضَ الفرنسيون بالاكتفاء بحماية تلك الأقليات، فهم أرادوا "سوريا" كلها. غير أن "ويلسون" تم إخباره خلال عرض تلك القضية، أن شهادة "السيد غانم" لا يمكن الاعتداد بها، لأنه أقام في "فرنسا" لمدة تزيد على أكثر من ثلاثة عقود، وكان رد فعل "ويلسون" الوحيد هو دورانه حول نفسه في غرفته"[169]. كان منبهرًا بالقضية العربية وبـ"فيصل" على وجه الخصوص أكثر من أي شيء آخر. سمعه بونسال وهو يقول في نهاية شهر

(167) FRUS PPC (1919), Vol. 3, p 1030.
(168) Meir Zamir, 'Faisal and the Lebanese Question, 1918– 20,' Middle Eastern Studies, 27:3 (Jul 1991) p 408.
(169) See M MacMillan, Peacemakers: the Paris Peace Conference of 1919 and its attempt to end war (Murray, London: 2001) p 402.

فبراير: "الاستماع إلى الأمير جعلني أشعر بأنني أستمع إلى صوت الحرية، وهو صوت غريب، وأخشى أنه صوت تائه آتٍ من آسيا"[170].

استمرت المجادلات في التفاقم بين البريطانيين والفرنسيين والأمريكيين. تعامل السكرتير الاستعماري البريطاني، اللورد "ميلنر" مع أغلب المفاوضات التي أجريت مع الطرف الفرنسي، وسعى "ميلنر" لجعل الفرنسيين يتفاوضون مع "فيصل". أشار إلى أنه من المستحيل فرض الانتداب الفرنسي على عرب "سوريا" في مؤتمر السلام الذي يتبع مبدأ حق تقرير المصير. وهكذا فإن "كليمانصو"، الذي كان منفصلًا تمامًا عن اللوبي الاستعماري الفرنسي، بدا موافقًا على إجراء نوع من أنواع الصفقات مع "فيصل". فسّر "ميلنر للويد جورج" في 8 مارس عام 1919، أن الوضع البريطاني يمكن أن يهدف إلى وضع المزيد من الضغط على الجانبين للتوصُّل إلى حلٍ منصف. وفي خطابٍ إلى "لويد جورج"، اقترح "ميلنر" حلًا لحالة الجمود بين "فرنسا" و"فيصل"، ستحصل "فرنسا" على الانتداب على "سوريا"، ولكنه "لن يكون قويًا كفاية"، الشعب هو من سيحكم بقوة أكبر. "فرنسا" ستسيطر على السياسة الأجنبية والتطور. لم يكن "ميلنر" واثقًا من أن الفرنسيين سيقبلون بأقل من "الملكية الافتراضية لسوريا"[171].

---

(170) Bonsal, Suitors and Supplicants, p 45.

(171) Lloyd George, The Truth about the Peace Treaties, pp 1048–9.

تأسيس لجنة الفحص والتقصي في "سوريا"

انعقد الاجتماع النهائي في 20 مارس عام 1919. سعى الرئيس "ويلسون"، و"بيشون"، و"لويد جورج"، و"اللنبي"، و"كليمانصو" إلى قلب موضوع "سوريا" على كل الوجوه. ظل الفرنسيون على رأيهم بأن اتفاقية "سياكس بيكو" ما زالت قائمة، وأنهم يجب أن يحصلوا على كلٍ من "لبنان" و"سوريا"، وعلى "فيصل" أن يتقبَّل الوضع ويتأقلم معه. أمَّا "لويد جورج" فكان يرى أن كل ما يحدث ما هو إلا بسبب سوء فهم للاتفاقية. فقط "لبنان" هي التي ستخضع إلى السيطرة الفرنسية المباشرة، وعلى هذا فـ"فرنسا" ملزمة أولًا بقبول دولة عربية مستقلة في "سوريا"، أي إن "لويد جورج" لن يقبل وجود سيطرة فرنسية مباشرة في "سوريا"، فعلى حسب قوله، وُعد العرب بأخذ "سوريا"، وأن القوّات البريطانية هي التي انتصرت في الحرب في الشرق الأوسط بمساعدة العرب. حذّر "اللنبي" من أن العرب سيثورون لو سعى الفرنسيون إلى احتلال "سوريا"، وهو ما سيهدد الوضع البريطاني في "فلسطين"، وبلاد الرافدين، و"مصر". تدخّل "ويلسون" الآن، وأعلن أن اتفاقية "سايكس" لم تعد فاعلة، لأن أحد أطرافها؛ الإمبراطورية الروسية، لم يعد لها وجود. كان مؤيدًا لاقتراح "بليس" بتشكيل لجنة من قوات التحالف كي يتم إرسالها إلى "سوريا" لاستشارة السكان. أُجبر "كليمانصو" على قبول المقترح، لأنه لن يقدر على خطر إغضاب الأمريكيين. كما اضطر إلى أن يؤيد مبدأ حق تقرير المصير بالكلام فقط، لكنه وافق على اللجنة التي سيتم إرسالها للاهتمام برغبات شعوب بلاد الرافدين و"العراق"، غالبًا وافق بغرض مضايقة

البريطانيين[172]. ومع هذا، ظل "كليمانصو" غاضبًا من البريطانيين، وفي اليوم التالي، استمرت المناقشات الحادة بخصوص القضية السورية، وفي إحدى المناقشات وصل الخلاف لدرجة أن القائد الفرنسي تحدّى "لويد جورج" لمبارزة بالسيف[173]. لم تقع تلك المبارزة أبدًا، ولكن "لويد جورج"، الذي كانت لديه ورقتان رابحتان: التواجد العسكري البريطاني الضخم في الشرق الأوسط، وحاجة "فرنسا" اليائسة لضمان الأمن من "بريطانيا" ومن الولايات المتحدة الأمريكية، وبسبب هذين العاملين تمكن من الفوز في حرب الكلمات. وهكذا، تم وضع شروط تكوين لجنة تقصي في 25 مارس. ركزت الشروط على الحاجة إلى معرفة مشاعر السوريين، وأوصت بوجود أقسام من الأراضي التي تساعد على ترقية عملية السلام والتطور في "سوريا"، و"فلسطين"، وبلاد الرافدين[174]. في 29 مارس، أسّر "فيصل" لمستشار "ويلسون" المقرّب، الكولونيل "هاوس"، أن فكرة تكوين لجنة تقصٍ هي أفضل فكرة سمعها في حياته، كما سأله إذا كان ممكنًا أن تكون الولايات المتحدة هي سلطة الانتداب في "سوريا"، ولكن "هاوس" بدا متشككًا في أن "أمريكا" ستقبل الانتداب[175].

---

(172) This meeting is described in Lloyd George, The Truth about the Peace Treaties, pp 1057-73 and FRUS PPC (1919), Vol 5, pp 1-14.

(173) Christopher M Andrew and Alexander Sydney Kanya- Forstner, France Overseas: The Great War and the Climax of French Imperial Expansion (Thames and Hudson, London, 1981) p 197.

(174) FRUS PPC (1919), Vol 7, p 747.

(175) 31. Notes of a conversation between Colonel House and Emir Feisal, 29 March 1919, in Garnett, Letters of T.E. Lawrence, p 275.

انتهاك "فيصل" للاتفاق مع الفرنسيين

لم يشعر البريطانيون بالسرور تمامًا من لجنة الفحص، ولمّا كان من الممكن أن تم اكتشاف أن الوجود البريطاني في بلاد الرافدين وفي "فلسطين" غير مرغوب فيه، فقد بدا السير "أرنولد ويلسون" عدائيًا تجاه كل من تيار القومية العربية والأسرة الهاشمية. كان قد أجرى بالفعل استفتاءً، مشكوكًا فيه، حيث أظهرت نتيجته أن الحكم البريطاني المباشر هو الخيار المفضل، وأن القليلين في بلاد الرافدين يدعمون الأسرة الهاشمية. كما سعى "لويد جورج" إلى استثناء بلاد الرافدين من لجنة الفحص على هذا الأساس بدءًا من 27 مارس[176]. اتضح لنا وجود ضغط على "فيصل" من قبل الفرنسيين كي يتوصلوا إلى اتفاق سيزيل الحاجة إلى وجود لجنة تقصٍّ. اقترح "ميلنر" الاعتماد على معادلة "انتداب مخفف". على الرغم من أن الفرنسيين كانوا قلقين من أن "فيصل" ليس مجرد وكيل مفوض للإنجليز، فإنهم لم يكن لديهم أي خيارات تتعلق بمثل هذا الأمر. أمّا من وجهة نظر "فيصل"، فإنه قد أقدم على خطأ تكتيكي كارثي. فعن طريق "لورانس"، وتحت الضغط البريطاني، أخبر الفرنسيين أنه ينوي قبول الانتداب الفرنسي، وأنه سيقبل المساعدة الفرنسية والناصحين والمستشارين الفرنسيين، وكذلك سيتنازل عن سيطرته على السياسة الأجنبية. كل هذا مقابل ضمه "لبنان" إلى "سوريا". السبب وراء مطلبه هذا هو تشككه من أن المسيحيين

(176) P Mantoux, The Deliberations of the Council of Four, March 24-June 28, 1919. Notes of the Official Interpreter, Paul Mantoux. Vol. I: To the Delivery to the German Delegation of the Preliminaries of Peace. Vol. II: From the Delivery of the Peace Terms to the German Delegation to the Signing of the Treaty of Versailles (Princeton University Press, Princeton, N.J.: 1992) Vol I, pp 41-57.

اللبنانيين سيخبرون اللجنة أنهم يريدون الحماية الفرنسية، فإذا حدث هذا، سيحصل "فيصل" على مملكة حبيسة، وهو ما كان يخشاه.

بدأ الفرنسيون الآن في رؤية فائدة لـ"فيصل"، لأن وجوده إلى جانبهم سيطور العلاقات الإنجليزية الفرنسية، والأهم من هذا أن "فيصل" منح "فرنسا" دورًا في "سوريا" كلها وليس فقط في المنطقة الساحلية. قدّر الفرنسيون أنه ما إن يشقوا طريقهم نحو "سوريا" فسيصعب جدًّا التخلص منهم، وما إن يتم وضع القوات الفرنسية في مكانها فإن "فيصل" إما أن يصير دمية أو يتم طرده في الوقت الذي يختاره الفرنسيون. قدمت "فرنسا" اقتراحاتها المعاكسة. بما أن "فرنسا" على استعداد لمنح "فيصل" حكم اسمي لـ"سوريا" الكبرى، إذًا يجب أن تكون هناك فيدرالية مكونة من القبائل ومختلف الجماعات الدينية التي تخضع إلى نصيحة المستشارين الفرنسيين والجنود[177]. ظنّ الفرنسيون أنهم يستطيعون التلاعب بالقبائل والطوائف السورية، أي تمكنهم من ممارسة سياسة "فرّق تسُد".

وهكذا تقابل "كليمانصو" و"فيصل" في 23 أبريل عام 1919. أخبر الأول "فيصل" بأن "فرنسا" على استعداد للموافقة على استقلال "سوريا"، فقط إذا وافق "فيصل" على دخول القوات الفرنسية "دمشق". رفض "فيصل"، لأنه اعتقد أنها مجرد حيلة، وأنه ما إن تدخل القوات الفرنسية، فلن يكون من السهل إخراجها. قرر "فيصل" العودة إلى "سوريا" في اليوم التالي. أدرك أنه سيضطر إلى الاعتماد على لجنة التقصي لحماية استقلال "سوريا". ضغطت "بريطانيا"

(177) Tanenbaum, 'France and the Arab Middle East, 1914– 1920', pp 29–30.

على "فيصل" لكي يساوم الفرنسيين، لكنه لم يتمكن من الوثوق في الفرنسيين. كان يؤمن بأنهم سيخونونه ما إن تستقر قواتهم العسكرية في "دمشق".

ظل الفرنسيون على اعتقادهم بأن "فيصل" مجرد لعبة في يد البريطانيين. وبقوا على رأيهم هذا ولكن ليس من دون تبرير، فحلفائهم "سابقًا" نكثوا الاتفاق الذي جرى بين "لويد" و"كليمانصو" في ديسمبر عام 1918، متحججين بدعمهم لحق العرب في تقرير مصيرهم. كما لاحظ الفرنسيون أن البريطانيين لم يتلهفوا على السماح بتطبيق حق تقرير المصير في المناطق التي يتحكمون بها في الشرق الأوسط. كما اعتبروا "فيصل" قوميًا عربيًا خطيرًا يريد أن يقتطع مساحة كبيرة للغاية من الشرق الأوسط ليؤسس مملكته. وهكذا اشتكى "كليمانصو" للكولونيل "هاوس" من أن "لورانس" أثر على قرار "فيصل" برفض الاتفاقية، وأن القوميين العرب كان يخططون لمذبحة للمسيحيين في "سوريا""[178]. شاهدت الوفود الأمريكية المذكَّرة الفرنسية حول "سوريا"، وفيها أوضح الفرنسيون أنهم يتوقعون دعم اللجنة للأهداف الفرنسية، وأن الشرق الأوسط يجب أن يتم تقسيمه بموجب اتفاقية "سايكس بيكو". علَّق أحد الموظفين الأمريكيين الرسميين: "الشرق الأدنى هو الغنيمة الكبرى للحرب". الصراع حول مسألة الانتداب يجب أن ينتهي هنا في "باريس"، وكلما كان هذا أقرب، كان أفضل"[179]. على أي حال، استمر المؤتمر لسنة أخرى قبل التوصُّل إلى قرارات نهائية بخصوص استقرار الشرق الأوسط.

---

(178) Colonel House Diary, 14/4/1919 in Woodrow Wilson and Arthur Stanley Link, The Papers of Woodrow Wilson (Princeton University Press, Princeton, N.J.: 1986-92) Vol 57, pp 334-5, hereafter Wilson Papers.

(179) Westerman memo c. 17/4/1919 in Wilson Papers, Vol 57, p 444.

6

انهيار مملكة "فيصل" في "سوريا"

هموم الأمير "فيصل"

قبل عودته إلى "سوريا" في أبريل عام 1919 كتب "فيصل" لـ"كليمانصو"، ولكـن رفـض "روبير دو كيه"، وهو موظف فرنسي رفيـع المسـتوى معـروف بـآراءه المؤيـدة للاسـتعمار، خطاب "فيصل" الأول، والذي حدد مطالب الشعب السوري، والأسس التي بناءً عليها كان ينوي الوصول إلى اتفاق مع "فرنسا"[180]. وفقًا للأنباء البريطانيـة، فإن الفرنسـيين تعرَّضـوا لمشكلات بسبب ما اعتبروه خيانة بريطانية لهم في "سوريا". وهكذا فإن "كـرزون" قـرر بندم وجود "انفعال عاطفي" أراد الفرنسيون أن يلحقـوه بـ"ادعـاءاتهم السـورية"[181]. كما اهتم "فيصل" أيضًا، بطريقة مقبولة، بالموقف. حيـث أرسـل برقيـة إلى "اللنبـي" في أواخر شهر مايو ليتأكد من الشـائعات حـول إلغـاء اللجنـة الدوليـة، وأن هنـاك جيشًـا

---

(180) E L Woodward and Rohan Butler, Documents on British Foreign Policy 1919-39. First Series, Vol. IV, 1919, Chapter II Introductory note p 253, hereafter refered to as DBFP, First Series Vol. IV. All further references to DBFP volumes are to Document Number not page number.

(181) Doc 173, DBFP, First Series Vol. IV.

فرنسيًا كبيرًا في طريقه إلى "سوريا". كما حذره من أنه لن يكون مسؤولًا عما سيحدث في مثل هذا الأمر وأن الدم سيراق. وكنتيجة لهذا، أبرق "اللنبي" إلى "لندن" محذرًا رؤساءه أنه إذا لم يؤكد لـ"فيصل" أن اللجنة ستتقدم في أعمالها، فهو متأكد من أنه "فيصل" سيدفع العرب إلى الثورة ضد الفرنسيين والبريطانيين. وهو ما يهدد الوضع كله في "سوريا" و"فلسطين"، فـ"اللنبي" لن يقدر على التعامل مع الموقف بالقوات التي تحت يديه[182]. تلك المخاوف انعكست في برقية من "كلايتون" في "القاهرة" إلى "كرزون"، حذَّره فيها من أن هناك "اضطرابات محلية عنيفة ربما تتضافر في حركة عامة مناهضة للمسيحيين ومناهضة للأجانب"[183]. أمَّا في بلاد الرافدين التي يحتلها البريطانيون، بدا الموقف مختلفًا. فوجود لجنة دولية أعتُبر مبادرة خطرة، فقدومها "سيقلل من الوضع الفعلي للقوات الأوروبية في الشرق الأوسط، حيث العسكرية ليست قوية تمامًا كي تستطيع مواجهة مشاعر العامة الغاضبة"[184].

وضع "فيصل" ثقته كاملةً في سلطة لجنة الفحص كي توفر له السيطرة على كل "سوريا". كما أنه بالغ في تقدير المخاطر التي كان الأمريكيون والبريطانيون على استعداد لتحملها لحمايته من الفرنسيين، رغم أنه أحيانًا كان يصيبه اليأس بسهولة حول مصير "سوريا". ومن ضمن الأفكار الهامة المتكررة لديه هو أنه لكي يتمكن من فهم "سبب خشية "إنجلترا" إلى هذا الحد من القيام بأي شيء من شأنه أن يتسبب بالضيق لـ"فرنسا"، والتي من المنطقي أن تكون مستعدة للقيام بأي

---

(182) Doc 174, DBFP, First Series Vol. IV.

(183) Doc 183, DBFP, First Series, Vol. IV.

(184) TNA F0141158 119130/3 Political Oftcer Baghdad to High Commissioner Egypt, 30 May 1919.

تضحية لتجنب إبعاد "إنجلترا". والنتيجة، مثلما صرّح أحد المراقبين البريطانيين، كانت متمثلة في الشك الكامن في عقل الأمير أن "العرب تمت خيانتهم"[185].

قام "اللنبي" بالذهاب إلى "دمشق" لمقابلة الأمير "فيصل" في 12 مايو. وهناك، تم الترحيب به بمجموعة منظمة من أطفال المدارس والوطنيين الذين تظاهروا لنيل الاستقلال، في محاولة منهم لإقناع "اللنبي" بشعبية الوطنية السورية. خاطب "فيصل" مجموعة من البارزين في "سوريا" الذين دعموا برنامج الاستقلال ومنحوه صوتهم من أجل إعطائه السلطة كاملة. كما أشار "فيصل" إلى التخطيط لعقد مؤتمر لدعم "سوريا"، وفيه سيعلن الاستقلال من دون الإشارة إلى مؤتمر السلام. أقنعه "اللنبي" ألا يقوم بمثل هذا الأمر. ووفقًا إلى جندي الاتصال البريطاني "لورانس"، "نرى السياسيين لديهم فقط رأيان مقتنعين بهما، أولًا؛ هم يديرون الاستقلال وثانيًا، هم لا يديرون "فرنسا"، فالمشاعر المعادية للفرنسيين مشاعر قوية بشكل مدهش وسط الشعوب المهمة، كما أنه من المشكوك فيه تمامًا أنه سيتم السماح لفيصل بعقد تصالح، حتى ولو أراد هذا"[186].

---

(185) Doc 189, Annex B, DBFP, First Series, Vol. IV.

(186) Doc 182, Enc. 1 DBFP, First Series, Vol. IV.

لجنة "كينج - كراين"

لم تصل لجنة الفحص تقريبًا إلى أي شيء، وبسبب قلق "كليمانصو" المتزايد على الحامية العسكرية في "سوريا"، فقد طالب بأن تسيطر القوات الفرنسية على الوضع بدلًا من البريطانيين قبل حضور اللجنة. رفض "لويد جورج" الأمر على أساس أنه سيؤدي إلى انتشار المشكلات في "سوريا". ومع هذا ولمنع الانهيار الكامل في العلاقات الإنجليزية - الفرنسية، وأيضًا إذا أمكن تأخير اللجنة عن فحص حالة الحكم البريطاني في بلاد الرافدين، وافق على أن تنسحب "بريطانيا" من اللجنة في حال انسحاب "فرنسا"[187]. أمّا الرئيس الأمريكي "ويلسون" الذي اقترح الفكرة بدايةً، فقد "نسي الأمر تمامًا" وفقًا لأحد المصادر[188]. لكنه على أي حال وبعد مناشدة من "فيصل"، أمر السفير الأمريكي "هنري سي كينج"، وهو رئيس جامعة، و"تشارلز كراين"، وهو رجل أعمال، وفريق العمل الخاص بهما بتكوين اللجنة.

اتضح أن الفرنسيين اعتبروا اللجنة بلا فائدة حتى قبل رفع تقريرها؛ حيث أسرّ "بيكو" للجنرال "كلايتون" في "القاهرة" أن ما يحدث مجرد تمويه "لإبقائه (أي فيصل) في الظلام بينما يتم الإعداد سرًا لتقسيم "سوريا""[189]. لاحقًا، قام "بيكو" بإخبار "فيصل" أن اللجنة لا علاقة لها بمؤتمر السلام وأنها مجرد مبادرة شخصية من الرئيس "ويلسون". رفض "فيصل" أن يقبل هذا التفسير[190]. بدا

(187) Doc 176, DBFP, First Series, Vol. IV.

(188) L Gelvin, 'The Ironic Legacy of the King-Crane Commission' in David W Lesch, The Middle East and the United States: A Historical and Political Reassessment (Westview Press, Boulder, Colo.: 1996) p 16.

(189) Doc 181, DBFP, First Series Vol. IV.

(190) Doc 192, DBFP, First Series Vol. IV.

أن "كينج" و"كراين" يميلان إلى دعم المطلب الفرنسي لفرض الانتداب، وإبلاغ "ويلسون" أن الحاجة إلى التناغم بين "بريطانيا" و"فرنسا" أهم بكثير من "إرادة الشعب السوري"[191].

وهكذا أمضت اللجنة شهري أبريل ومايو في جمع المعلومات التي تتعلق بالمنطقة قبل الوصول أخيرًا إلى "يافا" في "فلسطين" في منتصف شهر يونيو عام 1919، وبعدها استكملت سفرها عبر "فلسطين" و"سوريا" خلال الستة أسابيع التالية. ثم اتجهت إلى "القسطنطينية" في 21 يوليو[192]. حيث تم إبلاغ البريطانيين أنهم يجب أن يجعلوا فترة إقامتهم قصيرة على قدر الإمكان، و"تتوافق مع التحقيق المناسب للمشكلات التي تواجههم"[193]. بذل "فيصل" وحلفاؤه السوريون جهودًا كبرى لإقناع اللجنة بالقضية العربية. فمنذ تأسيس الحكومة العربية في "سوريا" في نهاية الحرب، كانت النخب القومية المؤلَّفة من النبلاء الحضريين، والطبقة الوسطى من المفكرين، وضبَّاط الجيش، والمحترفين، معتادين على فكرة حكم "فيصل" لـ"سوريا". وقاموا بإعداد طرق للترحيب بلجنة "كينج وكراين"، من أجل تقديم "صورة عن أمة معقدة تتلهف إلى الاستقلال ومستعدة له". وعلى الرغم من هذا، يجادل البعض بأنهم فشلوا في الفوز بدعم الشعب[194]. هكذا تم عقد مؤتمر سوري سريعًا، الهدف منه إظهار رفض عرب "سوريا" القاطع للحكم الفرنسي. بدا المؤتمر بطريقة ما غير مثالي وغير معبِّر عن الشعب. كما تحكمت الوفود القادمة من "فرنسا" في مناطق

---

(191) Gelvin, 'The Ironic Legacy of the King-Crane Commission', p 16.

(192) The full itinerary is in FRUS PPC (1919), Vol 12, pp 753–4.

(193) Doc 199 DBFP, First Series Vol. IV.

(194) Gelvin, Divided Loyalties, p 35.

الأقليات الـذين لم يستطيعوا حضـور المـؤتمر، ولم يـتم تمثيـل الأقليـات مـن الشـيعة، والمسيحيين.

وعلى الرغم من هذا فإن لجنة "كينج وكراين"، والوفـود الخاصـة بهـم، انـتشروا في الريف السوري والفلسـطيني يجمعـون الأخبـار مـن النـاس. زاروا أكـثر مـن 30 مدينـة وتلقوا آلاف الالتماسات والتفويضات من القـرى. لم يكـن هنـاك أي غمـوض في الـدليل المفروض على اللجنة، كل الفئات كانت معادية للفرنسيين. الأصوات المعارضة للوجـود الفرنسي، مثل المسيحيين المارونيين من "لبنان"، كان رفضهم مدفوعًا بخوفهم من الحكم الفرنسي. وهكذا وضح للجنة أنه لا أحد يرغب في وجود انتداب فرنسي في "سوريا". كما اعتقدت أيضًا أنه يوجد في "سـوريا"، "فرصـة أفضـل لإقامـة دولـة، وهـو مـا لم تـتمكن الولايات المتحدة من تحقيقه في "الفلبين"[(195)]. وقالوها صراحة: "من خلال رؤيتنا للأمـر، فإن طلب وجود انتداب فرنسي على "سوريا" كلها سيساهم في نشوب حرب بين العـرب والفرنسيين، مما سيجبر "بريطانيا" على اللجوء إلى بديل أكثر خطورة"[(196)]. وعـلاوة عـلى هذا فإن "إنجلترا ستضطر إلى الاختيار بين العرب والفرنسيين، مع وجـود "مصر" و"الهنـد" في الخلفية". الدعم الوحيد الذي جاء في صف الانتداب الفرنسي، جاء من "أحزاب لبنانيـة قوية وهي الأحزاب نفسها التي طالبت بانفصـال "لبنـان" الكامـل بمعاونـة (فرنسـا)". لم تشك اللجنة للحظة أن "فيصل" هو الشخص الرئيسية: "الأمـير "فيصـل"، رغـم محدوديـة تعليمه، صار رمزًا مهمًا قادرًا على تقديم خدمات جليلة للسلام العالمي. فهـو قلـب العـالم

(195) Wilson Papers, Vol 61, p 442.
(196) FRUS PPC (1919), Vol 12, p 749.

الإسلامي ويتمتع بمكانة وشعبية كبيرة، كما يؤمن بقدرات العرق الأنجلو - ساكسوني، وهو محب حقًا للمسيحيين والديانة المسيحية، والدين الإسلامي ويتوق لتحقيق السلام"[197].

يُقال أن تلاعب "فيصل" باللجنة من أجل استبعاد الآراء المعارضة له، كان خطًا تكتيكيًا. وعلاوة على هذا، ولأنه وضع الكثير من إيمانه في اللجنة، مع استبعاده احتمالية تعاونها مع "فرنسا"، فإن "فيصل"، وفقًا لأحد المعلقين، "أضاع حلمه الإمبريالي بنجاح"[198]. إيمان "فيصل" بقوة تأثير اللجنة على مؤتمر السلام، شجعه عليه البريطانيون غالبًا، لأنهم أرادوا تأخير المشكلات التي سيتسبب بها "فيصل" والقوميون السوريون لهم[199].

قدمت اللجنة تقريرًا لمؤتمر السلام في 28 أغسطس عام 1919. وكانت اقتراحاتها بمثابة مشكلة خطيرة لسياسات القوى العظمى. كما أوضحت أن هناك القليل جدًا من الآراء المؤيدة للانتداب الفرنسي، واقترحت أن يكون الانتداب أمريكيًا لو لم ترغب في أن يكون "بريطانيا" وجادلت أيضًا أن البرنامج الصهيوني في "فلسطين" يجب أن يتغير تمامًا.

---

(197) FRUS PPC (1919), Vol 12, p 750.

(198) Karsh and Karsh, Empires of the Sand, p 278.

(199) See Doc 178 DBFP, First Series Vol. IV, and Karsh and Karsh, Empires of the Sand, p 279, who are critical of Feisal's illusions and the British role in encouraging them.

التوصيات الأساسية للجنة "كينج - كراين"[200]

المفوضون باللجنة قدموا لمؤتمر السلام التوصيات التالية لعلاج الوضع في "سوريا":

1- نوصي، أهم شيء، وبتناغم صارم مع تعليماتنا، أنه في حال وجود أية إدارة أجنبية (سواء لقوة واحدة أو أكثر) في "سوريا"، فهي لن تأتي بوصفها سلطة استعمارية بالمعنى القديم لهذا المصطلح، ولكن بوصفها انتدابًا تحت إشراف عصبة الأمم وبوعي واضح أن "تطور ورخاء" الشعب السوري هو الأمر المهم بالنسبة لها.

2- نوصي، في المقام الثاني أنه يجب الحفاظ على وحدة "سوريا"، بالتعاون مع الالتماسات الجادة للأغلبية من الشعب السوري.

3- نوصي، في المقام الثالث أن يتم وضع "سوريا" تحت سلطة انتداب واحدة، كإحدى السبل الطبيعية لتأمين وحدة واقعية كافية.

4- نوصي، في المقام الرابع أن الأمير "فيصل" يكون رئيسًا للدولة السورية الجديدة والموحدة.

5- نوصي، في المقام الخامس بإجراء تعديلات جادة للبرنامج الصهيوني المتطرف للهجرة غير المحدودة لـ"فلسطين" من اليهود والذي يهدف إلى جعل "فلسطين" وطنًا أو دولة يهودية.

---

(200) 21. FRUS PPC (1919), Vol 12, pp 787–97 for recommendations.

يوصي المفوضون، مثلما هو وارد في منطق الحقائق، أن الولايات المتحدة الأمريكية سيطلب منها التعهد بانتداب وحيد لكل "سوريا"، وفي حال لم يتم منح الانتداب على "سوريا" لأمريكا، فإن المفوضين يوصون بالتناغم مع التعبير عن رغبة الأغلبية من الشعب السوري أن يُمنح الانتداب لـ"بريطانيا" العظمى والجداول توضح وجود نحو 1073 التماسًا في كل "سوريا" لتعيين "بريطانيا" سلطة انتداب، في حال لم تقم أمريكا بتلك الخطوة، والأمر نفسه ينطبق على "فرنسا".

تدهور مكانة "فيصل"

دعوى لجنة كينج - كراين لوجود انتداب أمريكي على "سوريا" لم يكن ببساطة في مجال السياسة العملية. ومع نهاية صيف عام 1919، بدا من الواضح تمامًا أن بسبب إبعاد "ويلسون" لمعارضيه السياسيين، سيواجه صعوبة بالغة في جعل مجلس الشيوخ الأمريكي يصدِّق على معاهدة فرساي، لأن مجلس الشيوخ الأمريكي تسيطر عليه أغلبية من الحزب الجمهوري المعارض منذ انتخابات نوفمبر 1918. لم يترك ويلسون سوى القليل من رأس المال السياسي. عاد في يوليو عام 1919 إلى واشنطن، وفي سبتمبر بدأ حملة قومية للترويج لمعاهدة فرساي وعصبة الأمم. وفي 26 سبتمبر عام 1919 وفي وسط جولة غير عادية روَّج فيها للعصبة وللمعاهدة، عانى من أزمة قلبية أصابته بالشلل. انتهى نفوذه السياسي رسميًا. ولسخرية القدر، وصل تقرير لجنة "كينج - كراين" إلى البيت الأبيض بعد يومٍ واحدٍ من إصابته بالأزمة. من

غير المحتمل أن يكون "ويلسون" قد اطّلع عليه. كما بدأت الموجة العالمية المؤيدة لـ"ويلسون" بالاختفاء من المشهد. وفي نوفمبر عام 1919 ومارس عام 1920، رفض مجلس الشيوخ معاهدة فرساي. كما رفضوا فرض الانتداب على "أرمينيا"، أمّا فكرة "سوريا" وفرض انتداب أمريكي عليها، لم يتم مناقشتها أبدًا في الكونجرس الأمريكي. ونجد الجنرال "تاسكر بليس"، وهو الموفد الأمريكي لحضور مؤتمر السلام، توصّل في نوفمبر عام 1919 إلى نتائج مفادها أن التحكيم الأمريكي للمشكلات التركية والشرق الأوسط "لا جدوى منه"[201]. أمّا بالنسبة لتقرير لجنة "كينج - كراين"، فلم يهتم به أعضاء مؤتمر السلام ولم يتم الإعلان عنه حتى عام 1922[202].

الآن، كان أقوى الكروت التي تتمسك بها "بريطانيا" من أجل الدفاع عن "فيصل" - تأكيدًا على مبدأ "ويلسون" بحق تحقيق المصير - أصبح عبارة عن رسالة لا أهمية لها. ومن غير المدهش أن خريف وشتاء عام 1919 شهدا على التراجع البريطاني في مواجهة المطالب الفرنسية المتزايدة على "سوريا". وما شجع الأمر كانت مطالب رئيس القوّات الإمبريالية، سير "هنري ويلسون"، ووزير الدفاع "وينستون تشرشل"، و"لويد جورج" وواقعيته في العلاقات العسكرية[203]. ولكي نبسّط الأمر، "بريطانيا" لن تستطيع المحافظة على احتلالها لـ"سوريا". ووزير الخارجية "أرثر بلفور" في 19 أغسطس وقبل توصيات لجنة "كينج - كراين"، تحسّر على تأثير القضية السورية على

---

(201) Wilson Papers, Vol 64, p 27.

(202) Harry N Howard, The King-Crane Commission: An American Inquiry in the Middle East (Khayats, Beirut: 1963) p 258.

(203) Darwin, Britain, Egypt and the Middle East, p 171.

العلاقات الإنجليزية - الفرنسية، على الرغم من إنكار "بريطانيا" المعلن عن أي اهتمام لفرض انتدابها على سوريا[204]. أمّا الصحافة الفرنسية فقد استمرت في استنكار ما اعتبرته محاولات بريطانية لإنكار حقوق "فرنسا" في "سوريا".

شعر "فيصل" بالاضطراب أيضًا حينما أوضحت "بريطانيا" له أنها سوف تفرض الانتداب على "فلسطين" وتطبّق وعد "بلفور". وجادل "فيصل" أن هذا الأمر بمثابة عودة إلى الاتفاقية غير العادلة لعام 1916 أي اتفاقية "سايكس بيكو"[205]. حيث جادل بأن أغلبية العرب طالبوا بفرض انتداب منفرد على بلاد الرافدين و"سوريا"، وحذّر من أنه في حال وجود "أي إمكانية لاتخاذ مؤتمر السلام قرارًا معاكسًا لمثل تلك الرغبة والتي تتضمن تقسيم دولة، فإنه لا يسعه البقاء في وضعه الحالي ما يجعله معرضًا للإتهام بموافقته على تدمير بلده"[206].

قرر البريطانيون، اعتمادًا على سياسة واقعية، التقليل من خسائرهم وسحب دعمهم لـ"فيصل". فمنذ بداية العام، كانت أكثر المشكلات إلحاحًا بالنسبة للحكومة البريطانية، هي نفقات القوات العسكرية الهائلة التي نشروها في كل من أوروبا والشرق الأوسط. فقد كانت هناك اضطرابات في "مصر" و"الهند" و"بلاد الرافدين" و"أيرلندا"، جعلت "بريطانيا" تواجه أزمة إمبريالية حقيقية. وهو ما كان يعني أن "سوريا" مثلت أولوية أدنى بكثير من تلك الأقاليم. ثانيًا، فإن البريطانيين أرادوا فرض انتدابهم بالقوة على "بلاد الرافدين". وكيف إذن، مثلما لاحظ "بلفور" في 9 سبتمبر، يمكن لـ"فيصل"

(204) Doc 242, DBFP, First Series Vol. IV.
(205) Doc 236, DBFP, First Series Vol. IV.
(206) Doc 256, DBFP, First Series Vol. IV.

أن يتوقع مقدار أكبر من الاستقلال من الفرنسيين؟ وأضاف: "أيٌّ منا لا يريد أقل من بسط السيطرة الاقتصادية والسياسية التي تمارس دون شك - على الأقل في حالتنا - عبر اللجوء كملاذٍ أخيرٍ إلى التعاون الودي والمتواضع مع العرب"[207]. استشار "لويد جورج" الجنرال "اللنبي"، وأكثر وزراء الحزب المحافظ تأثيرًا، "أندرو بونار لاو"، في سلسلة من اللقاءات في "دوفيل" بـ"فرنسا" من 9 إلى 11 سبتمبر عام 1919. وتم الاتفاق على ترحيل القوّات البريطانية من الساحل السوري وصولًا للخط المتفق عليه في اتفاقية "سايكس بيكو" غربًا، حيث سيتم تخفيض الإعانات البريطانية لـ"فيصل" إلى النصف، بينما ستتولى "فرنسا" الباقي. وسيتم تنفيذ كل هذا في 1 نوفمبر عام 1919. كما تم تكليف "فيصل" بالذهاب إلى "فرنسا" على الفور[208]. تم إبلاغ الأمر لـ"كليمانصو" في لقاء عُقِدَ في 15 سبتمبر. وتلقى "فيصل" الأنباء شخصيًا من "لويد جورج" في 10 داونـنج ستريت بعدها بأربعة أيام. حذَّر "فيصل" من أن تبعات الأمر ستتسبب في إراقة الدماء[209].

كان "فيصل" يائسًا لإيجاد وسيلة لتجنب الاحتلال الفرنسي. وعلى هذا، فقد اقترح ثلاثة بدائل على البريطانيين: 1- أن يبقي "اللنبي" مسيطرًا على المناطق التي تم تحديدها، أو 2- وجود لجنة عالمية تهتم بالتحضير المؤقت للأحداث حتى يتم البت بشأن نتائج أو قرارات مؤتمر السلام، أو 3- يتوصل مؤتمر السلام إلى قرار مفاجئ حول مصير "سوريا". كما فكَّر في إرسال وفد إلى الولايات المتحدة الأمريكية. وعلى الرغم من أن الرأي العربي، وفقًا لأغلب

(207) Doc 265, DBFP, First Series Vol. IV.
(208) Doc 278, DBFP, First Series Vol. IV.
(209) Doc 283, DBFP, First Series Vol. IV.

التقارير البريطانية وللجنة "كينج - كراين"، يرفض بشدة وجود أي مستوطنة يهودية في "فلسطين"، لكن التقى "فيصل" مرة أخرى مع "وايزمان"، والذي اقترح أنه في مقابل دعم "فيصل" للمشروع الصهيوني، فإن الحركة الصهيونية ستوفر له المستشارين والأموال التي تحتاجها الحكومة العربية. مال "فيصل" إلى قبول الاتفاقية، ظنًا منه أن الصهاينة سيقفون مع العرب ضد الفرنسيين، ولكن "وايزمان" عارض الانفصال عن الفرنسيين، بحجة أنه يمكن إبعادهم إلى الأطراف الساحلية السورية"[210].

كان من الحتمي أن "فيصل"، وتحت الضغط البريطاني، سيلجأ مرة أخرى إلى الفرنسيين. طلب السير "لويد جورج" من "كليمانصو" أن يتجنب التعامل مع "فيصل" والمشكلة العربية بيدٍ عليا. فلو أن هذه هي حقًّا سياسة الحكومة الفرنسية، فإن الحكومة البريطانية تخشى من أنها حتمًا ستقود إلى سلسلة طويلة وخطيرة من الإضطرابات الجادة والمطولة في الأراضي العربية، والتي من الممكن انتشارها بسهولة للعالم الإسلامي كله[211]. اهتم "كليمانصو" بآراء "لويد جورج" وبدأ في تعديل صيغة الأهداف الفرنسية. بقي الهدف متمثلًا في حماية المصالح الإمبريالية الفرنسية، ولكن الآن، توجد محاولة حاسمة لإرضاء "فيصل" والبريطانيين. اللافت للنظر، أن "كليمانصو" منع القائد الفرنسي في "سوريا"، "جنرال جورو"، من احتلال "وادي البقاع""[212]. على أي حال، عندما تقابل "فيصل" و"كليمانصو" في شهري أكتوبر ونوفمبر، لم يتفقا حول قضية السيادة على "سوريا". وبدا "كليمانصو" مصممًا على أن

(210) Doc 295, DBFP, First Series Vol. IV.
(211) Doc 334, DBFP, First Series Vol. IV.
(212) Doc 383, DBFP, First Series Vol. IV.

القوات الفرنسية ستحتل "سوريا"، وأن المديرين الفرنسيين سيتاح لهم تفويض مطلق بإدارة البلد مثلما يرغبون. رفض "فيصل" هذا المقترح.

ومع هذا، قرر "كليمانصو" والفرنسيون القيام بتنازلات كبرى، وتم عرض مقترحات جديدة على "فيصل" في 16 ديسمبر. الآن، وفي مقابل احتكار الفرنسيين لإمدادات المستشارين العسكريين والمدنيين المسؤولين عن الحكومة السورية واعتراف "فيصل" لـ"فرنسا" بوصفها تمثّل سلطة انتداب، ستحصل "سوريا" على برلمان مستقل يحق له فرض الضرائب وسن القوانين، وسيتم الاعتراف بـ"فيصل" رئيسًا للدولة السورية الجديدة. إضافة إلى هذا، فإن "فرنسا" وافقت على ألا تضع قواتها في الجزء العربي من "سوريا" من دون موافقة الحكومة. وافق "فيصل" على هذه الشروط في 6 يناير عام 1920. لكن، وجب على "فيصل" أن يقوم بتأمين الدعم الشعبي في "سوريا" للانتداب الفرنسي قبل أن يتم تسليم "لبنان"[213]. بقي الاتفاق سريًا. الموظف الفرنسي الذي قام بنقل الشروط للبريطانيين، زعم أن الفرنسيين "قلقين بخصوص ما إذا كان "فيصل" يستطيع الحفاظ على كرسيه في حال عودته إلى "سوريا"، ولهذا السبب فإن الاتفاق وجب أن يبقى سريًا، أمّا "فيصل" فسيعود خالي الوفاض"[214].

من دون شك، لم يسعد "فيصل" بهذه الاتفاقية. فقد أدرك بشكل مؤكد أنه من الصعب أن يقتنع به القوميون الراديكاليون، الذين يتزايد نفوذهم في

(213) Karsh and Karsh, Empires of the Sand, p 281; Sachar, The Emergence of the Middle East, pp 272-3.

(214) Doc. 412, DBFP, First Series Vol. IV.

"سوريا" بشكل ثابت. أمّا "جورو"، فعلى العكس تمامًا من "فيصل"، فقد اعتبر الاتفاقية بمثابة هزيمة لـ"فرنسا"؛ حيث توقَّع أن يتم فهم الاتفاقية من العرب على أساس أنها ستمنحهم الاستقلال التام من دون أي تدخل من الفرنسيين.

الموقف في "سوريا"

تأثير "فيصل" السياسي في "سوريا" لم يكن بالقوة الكافية. حيث كانت هناك تيارات خفية محلية لم يستطع "فيصل" السيطرة عليها إلا بشكل محدود. ورحلته الثانية إلى أوروبا في نهاية عام 1919 قللت من نفوذه المحدود هذا أكثر. وقد لاحظت "جيرترود بيل"، وهي عضو في المكتب العربي، بعضًا من تلك المشكلات حينما زارت "سوريا" في أكتوبر عام 1919. حيث كانت على اقتناعٍ بأن الأمور تتداعى بسبب رفض الحكومة العربية الحصول على المساعدة أو النصح من الفرنسيين، بينما في الوقت نفسه لم يكن في استطاعة البريطانيين المساعدة خوفًا من الإضرار بالعلاقات مع الفرنسيين. ولهذا نجدها تقول: "إنهم يتبعون طريقهم الخاص، وهو طريق نهايته ليست جيدة"[215]. تمثلت مراكز القوة في ثلاث جماعات قومية: (النادي العربي الفلسطيني)، و(حزب الاستقلال العربي)، وهو حزب سوري عربي، وحزب (الأحد)، الذي تكوَّن من عراقيين كانوا في الجيش العثماني وارتدوا عنه لينضموا للثورة العربية. عملت هذه

---

(215) Gertrude Bell to Family 12 Oct 1919. Gertrude Bell's Diaries and letters have been digitized by the University of Newcastle and are available at http://www. gerty.ncl. ac.uk/.All references to Bell's Diaries and Letters are to that source.

الجماعات - أحيانًا - سويًا من أجل القضية العربية. ولكن غالبًا ما كان ولاؤها لمصالحها القبلية والإقليمية. وفي مثل هذا المناخ التحزبي كان هناك أيضًا ميل لتلك الجماعات كي تزايد على بعضها البعض، في ظل وجود روح الحماسة القومية التي قلصت مساحة "فيصل" للمساومة مع الفرنسيين.

بقية الرجال الذين بقوا في مركز السيطرة مع "فيصل"، والذين تمكنوا من التحكم في أخيه "زيد"، كانوا أساسًا من حزب الأحد، ورمزه الأساسي هو "ياسين باشا الهاشمي"[216]. وبحسب وجهة نظر "جيرترود بيل"، فهم "قوميون يتسمون بالعنف ومتحمسون لاستقلال "سوريا" و"بلاد الرافدين" عن أي سيطرة أجنبية"[217]. حيث إن ملخصها لحالة الآراء من "دمشق" تمثلت في أن "فيصل" فقد مكانته[218]. وفي رسالة كتبتها بنهاية زيارتها لاحظت أن هناك حسًا متناميًا باليأس حيال المستقبل في العاصمة السورية. "الدمشقيون قلقون بشدة بشأن الاحتمال الكامن أمامهم. ففي نهاية العام، ستتوقف الإعانات المادية المقدمة للشريف حسين، والوضع المالي للحكومة العربية سيصبح متزعزعًا، ولكن حتى لو أمكنهم التخطيط لإبقاء وضعهم كما هو، والنجاح في منع أي اضطراب صريح، فإنه من المتوقع أن الفرنسيين في الأقاليم الساحلية سيزيدون من حالة الاضطرابات، إمَّا عبر الاستمرار في الدعاية ضد الدولة العربية أو عبر التصرفات التحريضية تجاه المسلمين في المنطقة الواقعة تحت إدارتهم وهذا الأمر تم في الانتهاك الأول للسلام حيث عبرت القوات

(216) Bell Diary, 8 Oct 1919.
(217) G. Bell to Family, 12 Oct 1919.
(218) Bell Diary, 13 Oct 1919.

الحدود بحجة استعادة الأمن[219]. وحينما عاد "فيصل" بتلك الصفقة، وجد أنها تلقت دعمًا قليلًا من القوميين. وهناك مشكلة أخرى تمثَّلت في استقالة "كليمانصو" من منصب رئيس الوزراء الفرنسي بعد تنفيذ الاتفاقية. وهكذا فإن الانتخابات الفرنسية في نهاية عام 1919 انتخبت أغلبية محافظة لم تهتم كثيرًا بتهدئة الرأي العام العربي، حيث رأى رئيس الحكومة الجديد "ألكسندر ميلران" أن الفرنسيين منحوا الكثير لـ"فيصل". كانت هناك أيضًا مشكلة تمثلت في أن القوميين السوريين وقطَّاع الطرق كانوا يقومون بشن هجمات على القوات الفرنسية وهو ما أغضب الحكومة الفرنسية. وهكذا فإن "جورو" لم يثق بـ"فيصل" واعتقد بأنه في أيدي أكثر العناصر القومية المتطرفة في "سوريا". كان البريطانيون فرحين بالاتفاقية، ولكنهم لم يروا أي احتمال أو إمكانية في تنفيذ "فيصل" لها. وكما أشار "لويد جورج" في أحد مؤتمرات قوات الحلفاء في فبراير عام 1920، أن "فيصل" لم يكن "في حال تسمح له بتقبل الأمر"[220].

أكدت الأحداث على هذه التخمينات التشاؤمية؛ لأن "فيصل" كان عالقًا بين مطالب الفرنسيين من ناحية، ومطالب القوميين السوريين من ناحية أخرى. وسعى بيأس للحصول على مزيد من التنازلات من "ميليراند". حيث أراد الحصول على استقلال متزايد في السياسة الأجنبية مع تقليص حجم الدولة اللبنانية، ولكن "ميليرلاند" رفض هذا المقترح. وعلى العكس فإن رئيس الحكومة الفرنسية أراد تعديل معاهدات 6 يناير كي تُمنح "فرنسا" تأثيرًا

(219) 40. TNA F0371/ 4152: 'Syria in October 1919', Nov 1919.

(220) Doc 12, DBFP, First Series Vol. VII.

وسيطرة أكبر في "سوريا". وكان يفضِّل تقسيم "سوريا" إلى مناطق إثنية وقبلية، تاركًا "سوريا" من دون مركز قوة. "فيصل" الآن ليس أمامه سوى القليل من الخيارات؛ فهو إمَّا يضطر إلى اللجوء الكامل للفرنسيين، ويستعين بقواتهم لسحق القوميين السوريين، أو يتخلص من كل تعاملاته معهم ويتجه للمعارضة النشطة. لاحظت التقارير البريطانية الضغط الهائل الذي كان يتعرض له من المتطرفين من جهة، ومن والده "حسين" من جهة أخرى - ربما بدافع من الغيرة من نجاحات "فيصل" - حذره والده من إنكار أي اتفاق مع "فرنسا" لا يضمن الاستقلال العربي.

أمَّا "ياسين باشا الهاشمي"، الذي كان له تأثيرٌ كبيرٌ على "فيصل"، عارض بشدة إبرام أي اتفاقية مع الفرنسيين، كما قاد مظاهرات الشوارع في يناير عام 1920 ضد اتفاقية "فيصل" - كليمانصو. وقوبلت مناشدات "فيصل" للاعتدال بالتجاهل التام. وهكذا، فإن القضية القومية منحت كل قومي وكذلك كل قاطع طريق رخصة لتنفيذ الهجمات، وخاصة في المناطق الساحلية[221]. ونتيجة لهذا عاش المسيحيون والأقليات الأخرى في "دمشق" في خوف من أن يتم قتلهم. أُجبِر "فيصل" على استدعاء المجلس السوري الذي تشكَّلَ بسبب زيارة وفد "كينج - كراين"، لجنة التقصي الأمريكية، في 6 مارس عام 1920. بقي المجلس مصممًا على آرائه القومية تمامًا. أعلن مجلس الشيوخ السوري أن اتفاق "فيصل" مع الفرنسيين لاغٍ وباطل، كما أعلن انفصاله عن "فيصل" بوصفه رئيس الدولة، واعتبر "فلسطين" جزءًا من المملكة الجديدة. لاحقًا، تم

(221) Malcolm ■ Russell, The First Modern Arab State: Syria Under Faysal, 1918–1920. (Bibliotheca Islamica, Minneapolis: 1985) pp 166–8.

تنصيب "عبد اللـه"، أخو "فيصل" الأكبر، ملكًا على بلاد الرافدين. وكـما حـذّر "فيصـل" البريطانيين، اضطُر إلى مسايرة الوطنيين، وإلا أطاحوا به[222].

تم تقديم الاستئنافات لحكومات أخرى من أجـل الاعـتراف بالحكومـة السـورية. اعتـبر الفرنسيون الإعلانات الأخرى التي قام بها القوميون السوريون دليلًا حاسمًا على أن "فيصل" أيّد آراء المتطـرفين. وفي "لبنـان"، قامـت الجماعـات المسـيحية ودون شـك - بتشـجيع مـن الفرنسيين - أعلنت استقلالها عن الدولة السورية الجديدة. والبريطـانيون أيضًا اقترحـوا أن الدعم الذي قدّمه "فيصل" في دمشق للمسيحيين والـدروز كـان ضـعيفًا إلى حـد كبـير[223]. صمّم "ميليرلاند" على أن قرارات المجلـس السـوري لـن تسـتمر. حينهـا، كـان البريطـانيون متساوين مع الفرنسيين، ومع هذا فإن "لورد كرزون"، وزير الخارجيـة منـذ خريـف 1919، أخبرهـم أن القرارات التي أخذها المجلس السوري، كانت "غير مضـمونة ولا يمكـن السـماح بها". كما استغل الفرصة لتعنيف الفرنسيين على الاعتراف بحـق البريطـانيين والفرنسـيين في الشرق الأوسط عبر "إجبار أنفسهم على الاتجاه إلى المناطق التي لا يكـون فيهـا الفرنسـيون مُرحبًا بهم من قِبَل السكان"[224]. بدا البريطـانيون مهتمـين عـلى وجـه الخصـوص بمطالـب المجلس السوري في "فلسطين" وفي بلاد الرافدين، وعلى الرغم من هذا فـإن "لويـد جـورج" بدا ميالًا إلى الفكرة، أمّـا "اللنبـي" فقـد جـادل بـأن "بريطانيـا" و"فرنسـا" يجـب أن يعترفـا

---

(222) Doc 214 in Rohan Butler, J P T Bury and M A Lambert (eds), Documents On British Foreign Policy, 1919-1939 - FIRST SERIES Volume XIII The Near and Middle East January 1920 - March 1921 (London: 1963) hereafter DBFP First Series Vol. XIII.

(223) Doc 219, DBFP First Series Vol. XIII.

(224) Doc 221, DBFP First Series Vol. XIII.

بـ"فيصل" ملكًا على الكونفيدرالية السـورية، و"فلسـطين"، وبـلاد الرافـدين، مـع وجـود إدارة بريطانية وفرنسية. ورغم هذا فإن "كرزون" شعر أن تلك الخطة بدت غير واضحة وأن الاستشارات في بلاد الرافدين في عام 1919 اقترحت أنه لم يعـد هنـاك الكثـير ممـن يرغبون في أن يحكمهم أحد من الأسرة الشريفية[225].

يبدو أن "فيصل" لم يكن مهتمًا كثيرًا بالتحذيرات التي أصدرتها "فرنسا" و"بريطانيا"، وبدلًا من هذا، فقد تم إخبار الفرنسيين بشكل فـظ أنهـم يجـب أن يعترفـوا باسـتقلال "سوريا" ويسـحبوا قـواتهم مـن "لبنـان" قبـل أن يعـود إلى أوروبـا مـرة أخـرى. بشـكل سطحي، فإن وضع "فيصل" ظل قويًا، وبدا أن الفرنسيين لديهم مـا يكفـي مـن القـوات على الأرض لإبعاد القوميين. ظل البريطانيون صامتين حول الهجـوم عـلى "فيصـل"، كـما كان الفرنسيون يعانون من مشكلة "فيليقية" في شمال "سـوريا"، والتـي بـدأ "مصـطفى كمال أتاتورك" والقوات التركية القومية "الكماليون" في تهديـدها. وفي أوائـل عـام 1920 تم قطع الطريق على فرقة عسكرية فرنسية، وحتـى يـتم حـل تلـك المشـكلات لم يكـن هناك أي أمل في التحرك ضد "فيصل".

ومع هذا، كان "فيصل" في الواقع أضعف مما بدا. وفقًا لشهادته الشخصـية، كان مجبرًا بشكل أو بآخر على الموافقة على الإعلان المستقل أو مواجهـة خسـارة التاج الملكي. بالفعل كان يأمل أن يرضي هذا الإعلان الـرأي العـام في "سـوريا"، لكي يترك له الفرصـة مـن أجـل التفـاوض عـلى عقـد صـفقة مـع البريطـانيين

(225) Martin Gilbert, Winston S. Churchill, Vol. 4 – Jan 1917– March 1921; Companion documents, Part 2 (Houghton Mifflin Company, Boston MA: 1978) p 1050, hereinafterChurchill Companion IV, 1917–1922 and Docs 217, 223, 224, DBFP First Series Vol.XIII.

والفرنسيين. كان يوجد العديد من الناس الذين كانوا على استعداد للانضمام إلى أتباع "أتاتورك"[226]. علاوة على هذا، كان وضعه العسكري والاقتصادي يُرثى له[227]. في الوقت نفسه، كانت هناك حالات شغب في "حماة"، بعد أربعة أيام فقط من إعلان الاستقلال، وهكذا فإن النقص في الغذاء وارتفاع الأسعار وحدوث مشكلات أخرى خاصة، تحولت كل هذه المشاكل إلى منحى خطر. سياسيًا، بدا وضع "فيصل" ضعيفًا، لأنه فقد قدرته على المساومة مع الفرنسيين، بسبب القوميين المتطرفين الذين رفضوا وجود أي نوع من أنواع المساومات.

"جيرترود بيل" (1808 - 1920)

هي رحّالة وعالمة آثار ومستعربة ودبلوماسية وعضو في أسرة "دوهارم" الثرية. سافرت بيل بشكل منتظم إلى الشرق الأوسط قبل الحرب العالمية الأولى، وفي عام 1915 التحقت بالمكتب العربي ولاحقًا اعتنقت فكرة أن العرب قادرون على حكم أنفسهم بأنفسهم وصارت مؤثرة بشكل كبير في عملية صنع القرار البريطاني في الشرق الأوسط، خاصة في التسوية اللاحقة المحتملة للعلاقات البريطانية مع "العراق" وبقيت تعمل مستشارة للحكومة العراقية حتى قبل وفاتها ورغم أن تأثيراتها على مجريات السياسة البريطانية كان قد بدأ في الأفول.

(226) Russell, The First Modern Arab State, pp 138-9.
(227) Russell, The First Modern Arab State, pp 142-6.

مؤتمر "سان ريمو"

اختفى الشرق الأوسط تمامًا من جدول أعمال مؤتمر السلام بعد مايو عام 1919. لكن، بدأت تسويات أخرى أكثر إلحاحًا في الظهور، مثلًا في يونيو عام 1919، تم توقيع اتفاقية فرساي مع "ألمانيا"، ثم معاهدات أخرى تم توقيعها بالتتابع مع "النمسا"، (سان جرمان في 10 سبتمبر عام 1919)، وبلغاريا (نويللي 27 نوفمبر عام 1920). انتهى مؤتمر السلام في "باريس" في 21 يناير عام 1920 بانعقاد أول لقاء للكيان القومي الجديد الذي يهدف إلى المحافظة على السلام - عصبة الأمم. في عام 1920 تم توقيع اتفاقيات أخرى مع المجر (ترايانون في 4 يونيو 1920) والإمبراطورية العثمانية (سيفري في 10 أغسطس 1920).

وهكذا فإن لقاء مؤتمر السلام الذي عُقِد في أواخر أبريل عام 1920 في "سان ريمو" في إيطاليا كان بهدف التعامل مع الانتداب في الشرق الأوسط، ووضع أسس معاهدة سلام مع "تركيا". حيث اعتبر الفرنسيون اللقاء أيضًا بمثابة وسيلة لتذليل المعوقات التي تتعلق بالتدخل ضد "فيصل"، وبالفعل تم حل جزء كبير من الخلاف مع بريطانيا. أمَّا "كرزون" فقد حاول الوقوف لصالح "فيصل"، حيث اقترح أنه لو أتى "فيصل" لمؤتمر السلام ووافق على قبول انتداب مناسب والتوصل إلى اتفاق نهائي مع الفرنسيين والبريطانيين فيما يتعلق بـ"سوريا" و"فلسطين"، فعلى الخلفاء حينها الاعتراف به ملكًا على "سوريا"، لكن لم يعجب هذا الاقتراح "ميلران"، فهو رفض أن يكون في "فرنسا" انتداب ضعيف في "سوريا"، بينما "بريطانيا" تتمتع بحرية أكثر في "فلسطين" وفي بلاد الرافدين، فاقترح إعادة النظر في وضع "فلسطين"، مقترحًا إعادة الرقابة الدولية مرى أخرى على "فلسطين". وافق "كرزون" على

أن "بريطانيـا" سـتعترف بالانتـداب الفـرنسي في المنـاطق السـورية وفي "لبنـان" مقابـل اعترافهم بالانتداب البريطـاني في "بـلاد الرافـدين" وفي "فلسـطين"، حيـث إن "بريطانيـا" عهدت لـ"فرنسا" بالتعامل مع "سوريا" مثلما ناقشنا من قبل. أمّا "فيصـل" فقـد رفـض الذهاب إلى "سان ريمو"، وأرسل رئيس وزرائه "نوري السعيد"، بدلًا منه، لكن "نوري" لم يبدُ قادرًا على التأثير على مجريات الأمور في المؤتمر.

"نوري السعيد" (1888 - 1958)



ضابط جيش وسياسي عراقي، وافـق على الانضمام للثورة العربية عام 1916، وصار رئيس وزراء الأمير "فيصل". أمضى فـترة طويلـة مـن الوقـت في أوروبـا في مؤتمرات السلام في "باريس" وفي "سـان ريمو". بعد عزل "فيصـل" في يوليـو عـام 1920، لعـب دورًا مهـمًا في مسـاعدته عـلى تأسـيس جـيش عراقـي. صـار "نـوري" رئيسًـا للـوزراء عـام 1930، ومنـاصرًا قويًـا للعلاقات المتناغمة والقريبة مع "بريطانيا"، وبمنتصف عام 1940، صار رمزًا قويًا وبـارزًا في السياسة العراقية، ومع هذا فإن اقترابه من "بريطانيا"، جعلـه رمـزًا كريهًـا للقـوميين العرب الراديكاليين. قُتِل بوحشية عام 1958 في الثورة العراقية.

نهاية مملكة "فيصل"

بعد انتهاء مؤتمر "سان ريمو"، بدأ "ميلران" الإعداد لشن الهجوم على "سوريا"، وأمر الجنرال "جورو" بتشجيع حركة الاستقلال المحلي في البلاد. كما قام "جورو" بإرسال "روبير دو كيه" للتفاوض مع "مصطفى كمال أتاتورك". تم تأمين إيقاف إطلاق النار في نهاية شهر مايو، وهو ما منح "جورو" الحرية لتركيز قواته ضد "فيصل" والسوريين. كانت الخطة الفرنسية بسيطة، سيتم إعطاء "فيصل" إنذارًا نهائيًا لإيقاف الهجمات التي تشنها الجماعات العربية على الفرنسيين. وفي حال لم يتم الالتزام بهذا الأمر على الفور، فإن القوّات الفرنسية ستحتل "دمشق" و"حلب" وسيتم نزع السلاح من القوّات السورية، والإطاحة به. كان واضحًا أن "ميلران" ينتهز الفرصة لإنهاء الأمر نهائيًا. تم إرسال امدادات عسكرية إلى "لبنان" في حال احتاجوا إلى التدخل عسكريًا. كان جورو كذلك متحمسًا لإنهاء تلك "الحرب الزائفة". قام عملاء فرنسيون سريون بتجنيد عملاء لهم من السوريين، فقد كان يوجد عدد من الجماعات في "سوريا" الذين يريدون رؤية نهاية لحكم "فيصل"؛ الدروز والجماعات المسيحية كانوا أكثر الجماعات تعاونًا مع الفرنسيين.

في 18 مايو، توقف "كرزون" عن أي تظاهر بدعم "سوريا"، لكنه ظل يطالب الفرنسيين بمعاملة "فيصل" بنزاهة، خوفًا من أن يقوموا بتسليمه للقوميين الأتراك. لأنه اتضح أن "فرنسا" هي أفضل من يحكم بشأن "التدابير العسكرية" للتعامل مع الموقف المحلي، مما يعني امتلاكهم الحق في اتخاذ أي

تدابير تراها مناسبة[228]. في اليوم التالي قررت الحكومة الفرنسية أن تسحق "فيصل" والقوميين السوريين بالقوة، وتم إصدار الأوامر للجنرال "جورو" في 22 مايو، وتم وعده بتعزيزات هائلة ستصل في الوقت المناسب لشن ضربة عسكرية في يوليو[229]. تلخصت كل أهداف "فرنسا" الأخرى في الشرق الأوسط في إحكام السيطرة على "سوريا". تلقى "جورو" أوامر كي يتنازل عن الحقوق الفرنسية في "فيليقية" لتأمين الجيش من هجمات الأتراك، وعقدت هدنة مع "كمال أتاتورك" في 1 يونيو. ومع نهاية شهر يونيو، جمع الفرنسيون ما يكفي من القوات الموجودة في بلاد الشام لضرب دمشق.

أدرك "فيصل" الآن أن القوات الفرنسية تسعى لإيجاد حلفاء وسط السوريين وقادة القبائل، ومرة أخرى سعى إلى التوصل إلى هدنة والبدء في تقليل أنشطة حرب العصابات، وبالمثل فإن الصحف الدمشقية والأحزاب السياسية وقعت تحت إشراف صارم. هذا الإشراف كان ضروريًا حتى لا يكن للفرنسيين أي حجة يستخدمونها لدخول "دمشق"[230]. كما قام بإرسال "نوري السعيد" للتحاور مع "جورو".

جورو ومعه قوّاته المتلهفة على دخول دمشق، أراد عزل "فيصل" فيها. فقد خشي أن يقوم "فيصل" بمنع أي هجوم عن طريق عقد صفقة مع "باريس" أو الحصول على مساعدة البريطانيين، أي من هذين الاحتمالين سيقفان عقبة في طريق ما يريد تحقيقه. أرسل "جورو"، "نوري" مرة أخري إلى "دمشق" في 11

---

(228) Doc 251, DBFP First Series Vol. XIII.

(229) Dan Eldar, 'France in Syria: The Abolition of the Sharifian Government, April-July 1920', Middle Eastern Studies 29:3 (Jul 1993) pp 487–504, esp pp. 492–5.

(230) Russell, The First Modern Arab State, pp 179–80.

يوليو ومعه مطالب جديدة وتتضمن الاحتلال الفرنسي لطريق سكة حديد "الرياق - حلب"، والقبول بالانتداب الفرنسي، وإنهاء التجنيد العسكري. رفض "فيصل" تلك المطالب، وكرد فعل على تعزيز القوّات العربية على حدود المنطقة الفرنسية، قام "جورو" بتحريك قواته ودخل "الرياق" في 14 يوليو، ثم أرسل إنذارًا نهائيًا لفيصل مطالبًا إياه بقبول شروط 11 يوليو ومحددًا كيف أن "فيصل" والقوميين السوريين قد فشلوا في الالتزام بالاتفاقيات السابقة، وترك لفيصل خمسة أيام للرد أو يجابه بغزو واحتلال عسكري فرنسي. وهو ما دفع "فيصل" إلى القيام بمحاولة أخيرة ويائسة لإقناع البريطانيين بالتدخل. كان البريطانيون يتعاملون مع الفرنسيين بحذر، لكن اللورد "هاردنيج"، السكرتير المساعد الدائم في المكتب الأجنبي، لاحظ أنه من المستحيل لـ"بريطانيا" أن تتدخل نتيجة لاتفاقيات "سان ريمو"، فمن وجهة نظره، أنه في حال أدت معاملة الفرنسيين لفيصل لحدوث مشكلة في المستقبل، فمن الأفضل أن تقع المسؤولية بالكامل عليهم، وألا يكون البريطانيون متورطين بأي شكل من الأشكال[231].

اجتاحت حمى الحرب الأطراف غير المحتلة في "سوريا". وعلى الرغم من ترك العديدين للجيش، فإن من بقي حول "فيصل" كانوا كثيرين ومصرين على القتال. على أي حال، كان جيشًا بالاسم فقط، فهم كانوا بحاجة يائسة إلى أسلحة ثقيلة، أمّا بنادقهم الكثيرة، فلم تكن لها ذخيرة كافية. محاولات "فيصل" للتفاوض مع "جورو" نتجت عنها بعض التنازلات القليلة، لكن القائد الفرنسي كان ما يزال يطالب بمعاقبة المتطرفين، ومن بينهم موظفون من ذوي المناصب العليا في الجيش. وافق "فيصل" بالفعل على الإنذار الفرنسي،

(231) Doc 284, DBFP First Series Vol. XIII.

وبـدأ في الإعـداد لاتخـاذ قـرارات صـارمة ضـد المتطـرفين ممـن عارضـوا بشـكل مؤكـد استسلامه. كما أخضع المجلس السوري حينما عارض قبوله للشروط الفرنسـية وهـو مـا أدى إلى اندلاع العراك في الشارع في "دمشق"، والتي واجهتها القوّات المخلصة لـ"فيصل" بقوة قاسية.

على أي حـال، اتضـح أن "جـورو" كـان يهـادن "فيصـل"، ففـي 20 يوليـو، أعلـن أن "فيصل" لم يلتزم بشكل كافٍ بالمطالب الفرنسية رغم جهوده اليائسة للالتزام بها، وعلى هذا تقدمت القوات الفرنسية لدخول "سوريا" بعد منتصـف الليـل في هـذا اليـوم. أمّـا "فيصل"، بعد محاولة أخيرة وعقيمة للمفاوضة، قرر أن يقف ويقاتل. حاولـت القـوّات العربية إعاقة تقدم الفرنسيين نحو "الموصل" قرب "دمشـق"، لكـن الفرنسـيون لـديهم قوات أكثر، ومركبات قوية وذخيرة. كانت النتيجة هزيمة القوات العربية. وعاد "فيصل" إلى "دمشق". "جورو" والفرنسيون لم يعودوا في حاجة إليه، وأخبروه بأن عليـه الرحيـل. في 1 أغسطس، غادر "فيصل" وحاشيته إلى أوروبا عبر "حيفا"، بينما أصبحا "سوريا" الآن في أيدي الفرنسيين تمامًا. استخدم "جورو" اسـتراتيجية "فـرّق تسُـد" عـبر إنشـاء أقـاليم مستقلة في "سوريا"، تركز على الانقسامات القبليـة والدينيـة والعرقيـة لتسـهيل إحكـام قبضة الحكم الفرنسي. وبدا أن حلم إقامة المملكة العربية في "سـوريا" قـد تبـدد للأبـد واتضح أن "فيصل" مجرد قومي آخر لم تعد القوى الغربية في حاجة لاستخدامه، فأصبح مصيره أن يُنسى تمامًا.



الملك "عبد الـلـه" إلى اليسار، ملك إمارة "شرق الأردن" وضيفه، وهو في الوقت نفسه عدوه اللدود، الملك "عبد العزيز آل سعود"، ملك "المملكة العربية السعودية" سويًا في الرياض في 29 يوليو عام 1948.

(الجزء الثالث)

الإرث


المكتبة الإلكترونية العراقية

7

تقلبات الحظ (1920-1925)

بعد هزيمته في "سوريا"، لم يكن مدهشًا ألا يسمع العالم عن "فيصل" مرة أخرى. ومع هذا وخلال عام، فإن الحكومة البريطانية خلصت إلى أن "فيصل" هو المرشح الوحيد والمحتمل ليكون حاكمًا على "العراق"، الذي مزقه النزاع الطائفي، وهكذا تم انتخابه حاكمًا للعراق. هذا التغيُّر المدهش في الحظ، كان مدفوعًا بحاجة "بريطانيا" إلى وضع أسس حكم في "العراق" تساعدها على إعادة سيطرتها هناك بأقل خسائر ممكنة. في الوقت نفسه، سمحوا لـ"عبد الله" أن يصبح أميرًا على "شرق الأردن"، لوجود قيود مالية يعاني منها البريطانيون، وحاجتهم إلى خطة للتحكم في المنطقة الصحراوية الشرقية في "الأردن"، التي كانوا يخططون سابقًا لجعلها جزءًا من مملكة "فيصل" في "سوريا". بحلول منتصف عام 1920، تم تنصيب "فيصل" و"عبد الله" حاكمين تحت إدارة الانتداب البريطاني على "العراق" وإمارة "شرق الأردن". ومع هذا، فإن "حسين" الذي راودته آمال أنه سيكون حاكمًا على الكيان العربي الأوسع في الشرق الأوسط، كان يخسر المملكة التي أسسها في الحجاز، ويقضي ما تبقى من حياته في منفاه المرير بقبرص.

المملكة الهاشمية في شبه الجزيرة العربية

في أكتوبر عام 1916، قام العلماء المسلمون في مكة، بإعلان "حسين" ملكًا على الأمة العربية، ورئيسًا للمسلمين، حتى يتوصل المسلمون إلى رأي واحد فيما يتعلق بمصير الخلافة الإسلامية. لم يكن ما قام به "حسين" من استحواذ على قيادة العرب مقبولًا من قِبل العديد من العرب، أو من قِبَل الحكومة البريطانية، الراعي الرسمي له. شعر البريطانيون بالضيق من مطالب "حسين" المتعالية، واعتبروه ملكًا على الحجاز فقط.

خلال الثورة العربية، بدأت السلطة تتسرب من أيدي "حسين" وتنتقل إلى "فيصل"، الذي بدأت نجاحاته في إصابة "حسين" بالغيرة منه، وفي أغسطس عام 1918، تشاجر "حسين" و"فيصل"، الذي هدد بالاستقالة من منصبه كقائد عسكري، فقط محاولات "لورانس" هي التي منعت الأمور من التطور إلى أزمة شاملة. خلال الأزمة السورية في أوائل عام 1920، قلل "حسين" من أهمية مساعي "فيصل" للمساومة مع الفرنسيين وبدا غير مدرك لحقائق الموقف.

في الحجاز نفسه، لم يكن وضع "حسين" قويًا كفاية. جعلت الحرب منافسيه الآخرين في شبه الجزيرة العربية، خاصة "عبد العزيز آل سعود"، أكثر قوة. صعد نجم "آل سعود" على الساحة عام 1902، عندما قاموا بالاستيلاء على مدينة "الرياض" في وسط شبه الجزيرة العربية من "ابن رشيد". هذا النجاح سمح لـ"ابن سعود" بتنصيب نفسه أميرًا على نجد. استمر بتوسيع أراضيه، وبحلول عام 1914، أصبح أقوى سلطة في شبه الجزيرة العربية، واستقل عن العثمانيين. كان "آل سعود" يتبعون الطائفة الوهابية المتزمتة السُنَّة، التي

أسسها في القرن الثامن عشر، "محمد عبد الوهاب" (1703 - 92)، والذي شكل حلفًا مع السعوديين. وبحلول عام 1806، تم الاستيلاء على أغلب أراضي شبه الجزيرة العربية، من ضمنها مكة والمدينة. لكن، في النهاية، قامت قوّات من "مصر" بهزيمة السعوديين والوهابيين هزيمة ساحقة. لم ينهض السعوديون من آثار هذه الهزيمة حتى بدايات القرن العشرين، عندما شن "آل سعود" موجة من الفتوحات.

الحماسة الدينية للوهابيين ساعدت على وجود ترابط اجتماعي في نجد. كما كانوا جميعًا رافضين قبول الرشاوى والإعانات المادية التي يرسلها "حسين"، فلم يكن لها وجود في الحجاز. أسس "آل سعود" أيضًا أداة جديدة لتساعده في بناء الدولة والسلطة العسكرية، وهي للجماعة الدينية شبه العسكرية "الإخوان". "الإخوان"، معظمهم من البدو السابقين، أقاموا المدارس الدينية في "نجد"، واهتموا بالزراعة. ومع هذا، فإنهم سرعان ما تحركوا لتهديد مصالح "آل سعود" وأعدائهم الخارجيين[232]. بدا أن "حسين" و"عبد الله" مدركين تمامًا للتهديد المتنامي الذي يمثّله "آل سعود". وبينما كان "آل سعود" يأخذون إعانات مادية بريطانية خلال الحرب، قام "حسين" بتوزيع المزيد من الأموال والعطايا للثورة العربية ولرشوة القبائل للابتعاد عن "آل سعود". كما يبدو أن عدم مشاركة "عبد الله" في الثورة العربية يعود جزئيًا إلى ما يمكن

(232) For background on Ibn Saud see Yapp, The Making of the Modern Near East, p 60.

تفسيره بأنه خوف من أن "آل سعود" قد يستغلون التزام "حسين" تجاه الثورة لتوسيع سلطته[233].

معركة الخرمة[234]

عام 1914، تحوّل الأمير "خالد"، من قبلية "عتيبة" في منطقة "الخرمة" شرق "جدة"، إلى الوهابية، لكنه ظل تحت تأثير "حسين" السياسي واشترك في الثورة العربية. مع هذا، وفي عام 1917 اختلف "خالد" مع "عبد الله" وبدأ في التعبير عن استقلاليته برفض المشاركة في معارك أو دفع الضرائب، كما سعى للحصول على العون من "آل سعود"، الذين لم يقدموه له. أمّا "حسين" فقد كان قلقًا للغاية من تشجيع "بريطانيا" لـ"آل سعود" على مهاجمة الداعم العثماني، "ابن رشيد"، الذي اعتبره تهديدًا لوضعه المتفوق وسط العرب. أسباب هذا كله بدت متمثلة في رغبة "حسين" في إخراج "آل سعود" من الحرب ضد العثمانيين، لأنه أراد أن يعتمد البريطانيون عليه هو فقط اعتمادًا كليًا، لكنهم في الوقت نفسه الذي كانوا يعتمدون فيه على "حسين"، أرادوا أن يحافظوا على "آل سعود" كحلفاءٍ لهم، واستمروا في إمدادهم بالمساعدات.

(233) Teitelbaum, The Rise and Fall of the Hashemite Kingdom of Arabia, p 103.

(234) This section leans heavily on J Kostiner, 'Prologue of Hashemite Downfall and Saudi Ascendancy: A New Look at the Khurma dispute', in A Susser and A Shmuelevitz (eds), The Hashemites in the Modern Arab World: Essays in Honour of the Late Professor Uriel Dann (Frank Cass, London: 1995) pp 47–65.

كان "حسين" مصرًا على فرض إرادته على "الخرمة" مستخدمًا القوة العسكرية. صد "خالد"، والقوّات المحلية محاولته الأولى في يوليو عام 1918. كما بدأ محاربو "الإخوان" في التوجُّه إلى "الخرمة" لمساعدة زملائهم، وساعدهم "آل سعود" لدعم استقلالهم عن "حسين". وهكذا تطورت القيادة في شبه الجزيرة العربية في أوائل القرن العشرين خارج "برميل البارود". إذا لم يستطع السيطرة على القبائل المتمردة، مثل قبيلة "عتيبة" في "الخرمة"، ففي نهاية الأمر ستفشل مطالب "حسين" للسيادة. وفي مايو 1919، وبعد استسلام الحامية العثمانية في المدينة، أُرسل "عبد الله" مع جيش من الحجاز لمحاولة كبت "الخرمة" مرة أخرى. لم يتجه "عبد الله" شمالًا إلى "سوريا" مع "فيصل"، لأنه رأى أن طموحات الأسرة الهاشمية في شبه الجزيرة العربية أهم من تلك الطموحات الموجودة في "سوريا" و"بلاد الرافدين". واستنتج أيضًا أن نهاية العداء مع العثمانيين ما هي إلا وقفة قبل أن يبدأ الصراع المستقبلي مع "آل سعود" للتفوق في شبه الجزيرة العربية. ومع هذا، في 25 مايو عام 1919، هُزم جيش "عبد الله" المتفوق عسكريًّا المُكوَّن من 3000 رجل، حيث تم الهجوم على معسكرهم ليلًا في "تربة"، على يد المحاربين "الإخوان". تفرق الجيش، وفر "عبد الله" بحياته[235].

تقلصت سلطة "حسين" في شبه الجزيرة العربية إلى حد كبير، وما منع "آل سعود" من الاستمرار في انتصاراتهم الضغط البريطاني فقط. كما بدأ البريطانيون في إعداد خطط طوارئ في حال احتاجوا للتدخل. و"آل سعود"،

(235) Mary C Wilson, King Abdullah, Britain, and the Making of Jordan. Cambridge Middle East Library (Cambridge University Press, Cambridge: 1987) p 37.

كالمعتاد، قاموا بعرض قواتهم العسكرية، ولكن لم يقدموا على أي خطوة تجاه النهاية المعروفة، فهم كانوا متلهفين على إبقاء علاقتهم طيبة مع البريطانيين. فكما ورد في مذكرة تابعة للحكومة البريطانية بعدها بعامين، قالت: "لا شك في أن "آل سعود" يريدون مكة والحجاز"[236]. "فيصل" كان يسيطر على "سوريا" في هذا الوقت. كان يخشى أنه لو أسرع لمعاونة والده، فستستغل "فرنسا" الفرصة وتدخل "سوريا". أصبح "حسين" أكثر قلقًا بعد معركة "تربة"، ولم يرد ربط "سوريا" بالحجاز، لأن وضع الحجاز كمملكة مستقلة كان أمرًا مشكوكًا فيه دومًا. كانت محدودية قوة الهاشميون، وافتقار "حسين" لخصال القيادة، واضحين بشدة في قضية الخرمة.

رأى البريطانيون أن فشل "حسين" في التفاوض مع "عبد العزيز" ما هو إلا دليل على أنه المسبب الرئيسي لمشكلاته. الآن اعتبر اللورد "كرزون" حليف "بريطانيا" السابق "إزعاجًا مدللًا ومثيرًا للمتاعب"[237]. أمَّا أبناؤه، خاصة "عبد الله" و"فيصل"، كانا غريبين عنه، "فيصل" بسبب نجاحه، و"عبد الله" نتيجة الكارثة التي حدثت في "تربة"، وابنه الأكبر، "علي"، الذي ظل إلى جانب والده في مكة. اعتقد أن سلوك والده المزاجي يزيد من عزلته، وهو ما كان يشكل خطرًا متزايدًا على القضية العربية[238].

نتائج الهزيمة في "تربة" تضاعفت بفضل الأزمة المالية المتنامية لـ"حسين". فمنذ عام 1916، أصبح "حسين" معتمدًا كليًا على المخصصات المالية

(236) War Oftce 32/5619, Paper on proposed kingdom of Mesopotamia and the advantages and disadvantages of making Emir Faisal first King.

(237) Busch, Britain, India, and the Arabs, 1914–1921, p 333.

(238) Teitelbaum, The Rise and Fall of the Hashimite Kingdom of Arabia, p 198.

البريطانية، التي أصبح خطرها بمثابة "كعب أخيل" إضافي له، ومع هـذا، وبسـبب كـثرة الرشاوى التي كان يعطيها للقبائل، فإنه أنشأ توقعًا أن مثل هذا الكرم سيستمر للأبـد، لكن تلك الرشاوى لم تجلب له سوى ولاءً مؤقتًا، وحينما بـدأت الحكومـة البريطانيـة في تقليل المخصصات، اكتشف "حسين" أن تأثيره عـلى القبائـل، والمنـاطق المجـاورة بشـبه الجزيرة العربية، قد بدأ في التراجع[239]. بالفعل تسببت الأزمـة الماليـة التـي مـر بهـا في خسارة دعم الحجاز له، فهو أجبر تجّار وباعة "جدة" و"مكة" عـلى دفـع الضرائـب مـن أجل أن يستطيع تمويل نفسه. شعب الحجاز اعتاد على تلقي المال من العثمانيين وليس دفعه. وبحلول منتصف عام 1920، كان "حسين" يستلم فقـط 30000 جنيـه إسـترليني ذهبي شهريًا من البريطانيين، بدلًا من 200000 كانوا يدفعونها وقت الحرب.

في أغسطس عـام 1920 طلـب البريطـانيون مـن "حسـين" التوقيـع عـلى معاهـدة فرساي، والتحضيرات التي تم الاتفاق عليها في مؤتمر "سان ريمو" في شهر أبريل السابق، مقابل تـوفير مزيـد مـن التمويـل. رفض "حسـين" بشـكل قـاطع، وأمضى البريطـانيون السنوات الأربع التالية وهم يحاولون وضع شكلًا رسميًا لعلاقتهم مع "حسـين". التقـى به "لورانس" في شهري يوليو وأغسطس عام 1921. كلّفته الحكومة البريطانيـة بإقناعـه بتقبـل الشروط البريطانيـة. بـدا "حسـين" متناقضًـا مـع نفسـه، علّـق "لـورانس" قـائلًا: "الرجل العجـوز مغـرور إلى حـد مـا، وجشـع لا يتسـم بالـذكاء، ولكنـه ودود جـدًا، ويؤكد على حرصه على مصالحنا"[240]. كانت الحقيقة كالآتي، "حسين" لم يتوقف عـن

(239) ei8t.elTbaum, The Rise and Fall of the Hashimite Kingdom of Arabia, p 166.
(240) Wilson, Lawrence of Arabia, p 656.

إيمانه المتزايد بأن البريطانيين خذلوه بعد الحرب العالمية، خاصة في صراعه مع "عبد العزيز". وبرغم مناشدات "لورانس"، إلا أن "حسين" رفض التوقيع على أية معاهدة حتى يعترف البريطانيون بسيادته على "فلسطين" و"العراق" وأفضليته على كل الحكّام في شبه الجزيرة العربية. في النهاية، غادر "لورانس".

رفضه توقيع المعاهدة، تسبب في عدم تلقيه المزيد من الدعم المادي البريطاني. كان قرارًا أحمق، وخطأ مميتًا"[241]. فبينما أسس "آل سعود" دولة مترابطة عسكريًا واجتماعيًا في وسط شبه الجزيرة العربية، كان "حسين" يعتمد على شرعيته ومهارته الدبلوماسية وقدرته على نيل الدعم العالمي. والآن، فشله العسكري، وعدم قدرته على الحكم، ورفضه العروض التي قدمتها "بريطانيا" - داعمه المادي الأساسي - إليه، كل هذا ترك مملكته معرضة لأي هجوم يشنه عليه عدوه اللدود، "عبد العزيز".

"عبد الله" وإمارة "شرق الأردن"

من بين أبناء "حسين"، يعتبر "عبد الله" أكثر من تمتع بالذكاء السياسي ومع هذا، فإنه وبوصفه قائدًا عسكريًا، فقد أظهر موهبة أقل خلال الثورة العربية، والحملة الفرنسية، والهزيمة في "تربة" التي أنهت أي طموحات ربما راودته للاستيلاء على المملكة لنفسه في "اليمن" أو في وسط شبه الجزيرة العربية على حساب أسرة "آل سعود". "عبد الله" الآن اتجهت أنظاره إلى الشمال. ومثل والده، فقد شعر بجفاء كبير نحو "فيصل" بسبب نجاحه في

(241) Wilson, Lawrence of Arabia, pp 656, 657-61.

"سوريا". وفي عام 1920، اتجهت أنظاره نحو "بغداد"، حيث أمِلَ، لكن دون جدوى - مثلما اتضح فيما بعد - أن البريطانيين يمكن أن ينصِّبُوه ملكًا. في تلك المرحلة، كانت السلطات البريطانية في "بغداد" عدائية نحو الأسرة الهاشمية (انظر بالأسفل)[242].

في أغسطس عام 1920، عانت طموحات الأسرة الهاشمية من تراجع آخر، حينما أجبر الهجوم الفرنسي على "سوريا"، "فيصل" على الخروج منها. قرر "عبد الله" الاتجاه شمالًا مع 2000 من أتباعه للانضمام إلى بقية القوميين العرب الذين كانوا يتجمعون بغرض التخلص من الانقلاب العسكري الفرنسي. أسس "عبد الله" لنفسه مكانة في مدينة "معن" الصغيرة، ومع هذا، فقد أثبت لنفسه بأنه سيد للتكاسل، لأنه كان واضحًا للعيان أن أية حركة ضد الفرنسيين لم تكن من مخططاته على الإطلاق[243]. ولو فكَّر في مهاجمتهم، فهو لم تكن لديه أي فرصة للنجاح. المنطقة التي استقر فيها "عبد الله" وقواته كانت في المنطقة البريطانية، وتقع ضمن حدود الدولة الحديثة لـ"الأردن"، وهي منطقة أشار إليها البريطانيون باسم "إمارة شرق الأردن". أعطوها لـ"فيصل"، بعد احتلالهم لها في أواخر عام 1918. وهكذا، عندما قام الفرنسيون بالتخلص من "فيصل"، لم يريدوا أي مؤيد له، فاقترحوا الانتقال لاحتلال تلك المنطقة. حذرهم البريطانيون، وأكدوا على ملكيتهم لتلك المنطقة. فضَّل "هربرت صامويل"، المندوب السامي البريطاني في "فلسطين"، دمج تلك المنطقة مع

(242)Wilson, King Abdullah, Britain, and the Making of Jordan, pp 41-3.

(243) Kamal S Salibi, The Modern History of Jordan (I.B. Tauris, London: 1993) p 83.

"فلسطين" الواقعة تحت سلطة الانتداب، ومع هذا، فإن البريطانيين لم تُتح لهم أي سلطة عسكرية ولو محدودة على الأرض للتعامل مع القوميين العرب الذين انتقلوا إلى إمارة "شرق الأردن"، حيث ظهرت مشكلة مقلقة للبريطانيين متمثلة في "عبد الله"، الذي لم يكونوا متأكدين من كيفية التصرف معه[244]. تم اتخاذ قرار لترك "عبد الله" مسيطرًا، ولو بشكل مؤقت، على الوضع. واستمر الفرنسيون في الشكوى من التسلل المستمر للمحاربين العرب إلى "سوريا" من خلال المنطقة التي يسيطر عليها "عبد الله"، ومع إذعانه الواضح لهم. ومع هذا، فإن مصير الأراضي القاحلة في إمارة "شرق الأردن" بدت غير مهمة بشكل كبير للحكومة البريطانية مقارنة مع الأهمية الكبرى لبلاد الرافدين.

مشكلة "بلاد الرافدين"

الأراضي التي تشكّل حاليًا "العراق الحديث"، والتي يُشار إليها عادة باسم "بلاد الرافدين" حتى أغسطس عام 1921، تم ضمها إلى الإمبراطورية العثمانية في القرنين السادس عشر والسابع عشر. تم تأسيس ثلاثة أقسام إدارية؛ "الموصل"، و"بغداد"، و"البصرة". ومع هذا فإن الحكم العثماني كان ضعيفًا، ومارس السلطة نخبة عسكرية من الباشوات المماليك الذين تمتعوا بقدر بالغ من حرية التصرف.

(244) See Wilson, King Abdullah, Britain, and the Making of Jordan, Chapter 4.

هناك ثلاث ولايات تمتعن بمجموعة متنوعة من الشعوب والجماعات الدينية داخلها. كانت توجد مجموعة صغيرة من الشيعة، وقلة من المسلمين السنة الذين يتحدثون العربية. وُجدت أيضًا العديد من الديانات المختلفة بسكّان المنطقة، ففي "الموصل" وفي الشمال، شكّل الأكراد قطاعًا كبيرًا من السكّان، ومدينة "بغداد" كان بها خليط كبير من السنة والشيعة، كما كان بها أكبر تجمع يهودي بالشرق الأوسط، بينما في البصرة وفي الشمال، كان الشيعة يسيطرون على الكثافة السكانية، على الرغم من أن النخبة الحاكمة كانوا من السنة. أهم المناطق التي يقدسها الشيعة، هي "كربلاء"، و"النجف"، وهما تقعان في جنوب "بلاد الرافدين".

بدءًا من عام 1830، أصبحت السيطرة العثمانية على الولايات الثلاث أقوى بفضل ما يدعى بـ"تنظيمات" أو الإصلاحات التنظيمية، مع استبدال المماليك بالحكّام العثمانيين. وكما حدث في العديد من المناطق، اندلعت العديد من الثورات بسبب الحكم العثماني المركزي الذي هدد نظام القبائل. وهو ما أجبر العثمانيين بالطبع إلى الاعتماد على تكتيك "فرِّق تسُد" من أجل تأمين حكمهم. تأثرت تلك الولايات الثلاث كذلك بثورة "تركيا الفتاة" عام 1908، والتي ساعدت على ازدهار الأندية، والأحزاب، والجرائد، والعديد من الأجندات الوطنية واللامركزية. مع ذلك، فكما حدث في مناطق أخرى تتحدث العربية، ارتفعت آمال السكّان المحليين لاحتمالية التخلص من السياسة المركزية، والتي وضعت لها جمعية الاتحاد والترقي حلًا بعد صعودها إلى مركز القوة في السياسية في "إسطنبول".

في نوفمبر عام 1914 استولت قوة أنجلو - هندية استكشافية على البصرة، هدف الاحتلال كان حماية المصالح البريطانية في منطقة الخليج الفارسي، لكن، تم تطوير مهمة القوة الاستكشافية، فتم احتلال البصرة كلها في أوائل عام 1915، وهو ما شجع تلك القوة على التقدم نحو "بغداد"، لكن قبل دخولهم

"بغداد" بخمسين ميلًا، تمت محاصرتهم في مدينة "الكوت" العراقية، حيث استسلمت القوة وتراجعت في بدايات عام 1916. تقدَّم البريطانيون بعدها ببطء أكبر. وفي مارس عام 1917 وقبل الاستيلاء على "بغداد" والمناطق الشمالية التي تشكِّل "العراق" الآن، لم يتم الاستيلاء عليها إلا بعد انتهاء الحرب. أثناء الحرب، مثلما حدث في أغلب المناطق العربية، كان السكان في الولايات الثلاث إمَّا مؤيدين للعثمانيين أو غير مهتمين بالصراع. أهم المعلومات التي تلقاها القوميون العرب، كانت أن البريطانيين قاموا بتجنيد الأسرى العثمانيين في "بلاد الرافدين" لينضموا إلى الثورة العربية. وعلى الرغم من أعدادهم القليلة، فإنهم كان لهم تأثير فاق أعدادهم القليلة بكثير، حيث كانوا من ذوي المراتب العليا في الثورة العربية، خاصة بعدما أصبح "فيصل" قائد الثورة.

مع تقدم البريطانيون نحو "بلاد الرافدين"، أصبح ما يجب عليهم فعله مع المناطق المحتلة أكبر همومهم. منذ البداية، كان الرأي البريطاني موحدًا؛ بلاد الرافدين يجب أن تقع تحت السيطرة البريطانية. ما اختلف البريطانيون عليه هو إلى أي مدى سيمتد تحكمهم هذا. في "دلهي"، رأت الحكومة البريطانية الهندية أن المناطق قليلة السكان حول البصرة، ربما تصلح لأن تكون مستعمرة للهنود، وهي منطقة خصبة ستفيدهم حتمًا. كانوا معارضين بشدة لفكرة استقلال أي منطقة من المناطق المهزومة، ومصرين على إبعاد الهاشميين من "بلاد الرافدين". كان "بيرسي كوكس" هو المفوض السامي للأراضي المحتلة حتي مايو عام 1918، حينما تم إرساله في مهمة مُطوَّلة لبلاد فارس. قام بإرساء الهدوء في المناطق المحتلة، حيث كان يرى هو وسكرتيرته، "جرترود بيل"، أن تأسيس حكم بريطاني مباشر ودائم هو أفضل طريقة للحفاظ على

السلام والنظام. ولكن، بديل "كوكس"، السير "آرنولد ويلسون"، أيد بشدة اتجاه الحكومة البريطانية الهندية المناهضة لاستقلال تلك المناطق والمناهضة لحكم هاشمي مستقل. كذلك كان "ويلسون" معارضًا للإعلان الإنجليزي الفرنسي عام 1918، حيث رأى بأنه لن يفشل في مسعاه لإخراج الفرنسيين من "سوريا" فقط، بل وسبب صعوبات كثيرة للبريطانيين في "بلاد الرافدين".

اللجنة الشرقية لرئاسة الوزراء البريطانية، التي ترأسها اللورد "كرزون"، كانت متعاطفة مع الأسرة الهاشمية، كما قام "توماس إدوارد لورانس" بعرض آرائه التي انعكست فيها آراء المكتب العربي، بضرورة وجود حاكم هاشمي في "بلاد الرافدين" في نوفمبر عام 1918. منعت الآراء المتعارضة بخصوص هذه القضية اللجنة الشرقية من القيام بأي تحقيق جاد للقضايا المقدمة إليها، في الوقت نفسه، في "بغداد"، حاد "ويلسون" عن طريقه، وبذل كل ما بوسعه لإحباط أي محاولة تأتي بالهاشميين إلى "بلاد الرافدين". فكما أشرنا من قبل، قام "ويلسون" بعمل استفتاء للرأي في "بلاد الرافدين"، والذي انتهى إلى أن أغلبية السكّان لم يحبذوا الحكم الهاشمي، وأن الاختيار المفضل لهم هو استمرار الحكم البريطاني. اختلف الأمر في "بغداد". لا نعرف إلى أي مدى تلاعب "كرزون" بنتيجة الاستفتاء، لكنه على أي حال، تقبّل النتيجة بحماسة صادقة. أمّا "فيصل"، الذي كان بصحبة ضبّاط من بلاد الرافدين في "بغداد"، كتب إلى "كرزون" في يونيو 1919 يحذّره من خطر تجاهل عدم وجود أية محاولات بريطانية لمشاركة القوميين[245]. هكذا، كانت أفعال "كرزون"

(245) TNA FO 608/97-0008, Future government of Mesopotamia: Memorandum by Emir Faisal 23 Jun 1919.

والبروباجاندا التي يمارسها في "بلاد الرافدين" ضد "فيصل" والمؤيدين له، مثار قلق لـ"بغداد" و"لندن"[246].

بنهاية عام 1919 كانت هناك معارضة متنامية للحكم الأجنبي في "بلاد الرافدين"، حيث صار واضحًا أن "بريطانيا" أرادت إهمال الطموحات القومية. كذلك غيَّرت "جرترود بيل" رأيها حول مدى تمكن العرب من الحكم الذاتي. كانت على اقتناع تام بأنه إن لم يتم قبول مطالب العرب بالحكم الذاتي فستكون النتائج عنيفة، لكنها كانت من الأقلية في المكتب السياسي بـ"بلاد الرافدين" (اسم الإدارة البريطانية في العراق) الذين كانوا يرون هذا، حيث تم تعيينها بهذا المكتب في أواخر الحرب العالمية الأولى[247]. على الجانب الآخر، كانت توجد جماعة واحدة مقاومة للممارسات البريطانية، وهي أسرة "الصدر"، وهم من الشيعة. وهي أسرة قوية وصفتها "جيرترود بيل" بأنهم "متعصبون للإسلام، ومعادون للبريطانيين وكل من يؤيدهم"[248]. (عائلة الصدر ستكون من أكثر العائلات الشيعية مقاومة للاحتلال الأمريكي الإنجليزي بعد غزو مارس 2003 للعراق). بحلول منتصف أبريل عام 1920 شعرت "بيل" بوجود معارضة قومية قوية ضد الحكم البريطاني. وعادت للتعاطف مع القوميين[249].

تصاعدت حدة التوتر في ربيع وصيف عام 1920 بفعل القرارات التي صدرت في مؤتمر "سان ريمو"، والتي أكدت على وجود نظام الانتداب، وتقسيم العالم العربي، والهجوم الفرنسي على "فيصل"، ونشر شروط معاهدة السلام التركية،

---

(246) TNA FO 608/97-0016, Curzon to Clayton 24 Jun 1919.

(247) G Bell to her Mother, 12 Jan 1920.

(248) G Bell to her Mother, 14 Mar 1920.

(249) G Bell to her Mother, 10 Apr 1920.

والتي بدا أنها تقترح إنهاء الخلافة الإسلامية، وأن ساعة تدمير الدين الإسلامي قد حلت. وفي سلسلة من المظاهرات غير المنسقة في أوائل شهر يونيو عام 1920، تظاهر القوميون السنة في "بغداد"، وكبار الشيعة في المدن المقدسة، وقادة القبائل في بلاد الفرات. ومع هذا، في الوقت الذي شملت فيه الثورة أكبر التجمعات في "بلاد الرافدين"، وشهدت أكبر حالات عدم الاستقرار في أكثر من ثلث الريف، وتسببت في إصابة مئات من البريطانيين، إلا أنها فشلت في الاستيلاء على أي مدينة من المدن الكبرى. السبب في هذا هو طبيعة المظاهرات المتفككة والتي سمحت للبريطانيين بالقبض على زعماء المظاهرات واحدًا واحدًا. وفي النهاية، لم يتبقَ أي رمز أو قائد لتنسيق للثورة[250]، وبحلول نهاية أغسطس، كانت الثورة قد هُزِمَتْ.

فقدت رئاسة الوزراء البريطانية الثقة في المفوض السامي "ويلسون" وفي استراتيجيته، نتيجة ما تجشمته من تكلفة بشرية ومادية ضخمة في الثورة. صدرت مذكرة في شهر يوليو تطالب بطرد "ويلسون" وتأسيس التفويض الملكي للتأكد من وجود أفضل إدارة ممكنة لإدارة "بلاد الرافدين"[251]. "تي إي لورانس" هو من قاد هذه الآراء، وكذلك قام بشن هجمات قوية في الصحف البريطانية ضد السياسة البريطانية والمفوض السامي "ويلسون"[252]. والرأي القائل أن "ويلسون" لم يعد مسيطرًا، انتشر، وتم اتخاذ قرارًا بإعادة "بيرسي كوكس"، والذي عاد إلى منصبه بعد أن أنهى التزاماته الشخصية في أكتوبر عام 1920.

---

(250) D K Fieldhouse, Western Imperialism in the Middle East 1914–1958 (Oxford University Press, Oxford: 2006) p 86.

(251) Busch, Britain, India, and the Arabs, 1914–1921, p 408.

(252) Wilson, Lawrence of Arabia, pp 639–40.

استراتيجية "تشرشل"

في عام 1920، كان اللاعبون الأساسيون بالسياسة البريطانية هم، رئيس الوزراء "لويد جورج"، مستشار الخزينة العامة "أوستن تشامبرلاين"، والسكرتير الاستعماري "لورد ميلنر"، ووزير الخارجية "اللورد كرزون"، وسكرتير الدولة في "الهند"، "مونتاجو"، ووزير الدفاع "ونستون تشرشل". "تشرشل" كان أقوى معارض في الوزارة البريطانية للاستراتيجية المتبعة في "بلاد الرافدين". فمنذ نهاية الحرب، كان "تشرشل" تحت ضغط هائل للاقتصاد في النفقات البريطانية، فكانت المؤسسة العسكرية البريطانية في "بلاد الرافدين" بقواتها التي بلغت 255000 قوة في أغسطس عام 1919، هي هدفه الأساسي لتقليل نفقات الجيش[253]. لم يؤمن بقرار تقسيم الإمبراطورية العثمانية لأنه "جريمة ضد الحرية، وخيانة لهؤلاء العرب الذين قاتلوا معنا بشجاعة لا مثيل لها في الحرب". رأى أنه من الأفضل لـ"بريطانيا" استثمار أموالها داخليًا لتقوية الإمبراطورية، بدلًا من إضاعة الأموال في توسيعات استعمارية[254]. الأموال التي أنفقها الجيش لقمع المظاهرات في النصف الأول من عام 1920 كانت تزعجه بشدة، حيث بلغت تلك الأموال قرابة الأربعين مليون جنيه استرليني. تحوّل الأمر إلى قضية محلية، حينما استخدمها "البارون اللورد روثيرمير" في قضيته التي عرضها على اتحاد "مناهضة الإفراط" كدليل على كمثال على تبذير الحكومة.

(253) Churchill Companion IV, 1917-1922, Pt II, p 829.
(254) Churchill Companion IV, 1917-1922, Pt II, pp 937-9.

الضغط المتزايد على تقليل النفقات العسكرية في "بلاد الرافدين"، تطلب انتهاج سياسة مختلفة. لم يعد الحكم المباشر لـ"لندن" أو "دلهي" استراتيجية فاعلة، كما كانت توجد حاجة ملحة لوجود نظام حكم عربي يمكن الاعتماد عليه بهدف تقليل النفقات البريطانية في "العراق"[255]. في نهاية ديسمبر عام 1920، ناقش مجلس الوزراء مقترحًا من "بيرسي كوكس"، الذي استأنف وظيفته القديمة بوصفه المفوض السامي البريطاني في "بلاد الرافدين". اقترح "كوكس" أن يتم تتويج "فيصل" ملكًا على بلاد الرافدين لتهدئة المشاعر القومية والتقليل من أعداد الحامية البريطانية[256]. على الرغم من الكارثة في "سوريا"، إلا أن "فيصل" كان لا يزال يتمتع بمكانة عالية لدى المناصب العليا في الحكومة البريطانية، من ضمنهم رئيس الوزراء و"كرزون" والسكرتير الدائم بالمكتب الأجنبي "هاردينج". كان "كرزون" ليقوم بتنفيذ فكرة "فيصل ملك بلاد الرافدين" في أقرب وقت ممكن، لولا معارضة الفرنسيين[257].

البديل لتلك الاستراتيجية لم يكن مستساغًا بالمرة، وهو سحب القوّات البريطانية من البصرة وترك باقي "بلاد الرافدين" لقوّات "مصطفى كمال أتاتورك" التركية أو حتى تركها للفوضى[258]. استراتيجية "تشرشل" البديلة لتقليل النفقات تمثلت في استخدام القوّات الجوية. وقد نجح في إقناع "لويد جورج" أن القصف التقدمي (أو للدقة، المرعب) للمتمردين في قرى "بلاد الرافدين" سيسمح بالتخفيض في أعداد القوّات المطلوبة في تلك المناطق. ومع

(255) Darwin, Britain, Egypt and the Middle East, pp 39–40.

(256) Churchill Companion IV, 1917–1922, Pt II, p 1279.

(257) Paris, 'British Middle East Policy-Making after the First World War', pp 773–93.

(258) Darwin, Britain, Egypt and the Middle East, p 216.

تطبيق استراتيجية "كوكس" السياسية بوضع حكومة عربية تكتسب ولاء السكَّان، كل هذا سيسمح لـ"بريطانيا" بتقليل أعداد قوَّاتها، وتخفيض نفقاتها.

استراتيجية "تشرشل" لتقليل النفقات في "بلاد الرافدين"، جعلته الاختيار الواضح والوحيد للتعامل مع الأزمات التي تواجها "بريطانيا" في الدول الواقعة تحت انتدابها في الشرق الأوسط. لذلك، حينما أفصح "لورد ميلنر" عن رغبته في ترك منصبه الاستعماري، قرر "لويد جورج" استبداله بـ"تشرشل" في يناير عام 1921. تصرَّف "تشرشل" سريعًا، واستنتج بشكل سريع أن "فيصل" هو الرجل المناسب لحكم "العراق". كما استطاع في وقتٍ قياسي فهم عملية صنع القرار في الشرق الأوسط. كان "تشرشل" مقتنعًا بأن وجود فرع واحد فقط للمكتب الاستعماري هو أفضل حل، "وإلا ستصيبنا الفوضى، والفشل، والخزي"[259]. فمنذ عام 1917، كان البريطانيون في صراع مع كيفية تنفيذ سياساتهم في الشرق الأوسط، والتي وفقًا لـ"مارك سايكس"، ضمَّت 18 منظمة مختلفة والكثير من العملاء الذين يمدون "بريطانيا" بالمعلومات[260]. الآن، سيتحكم "تشرشل" في عميل واحد فقط، أو بالأحرى في مكتبٍ واحد فقط. أمَّا "كرزون" الذي شعر بالضيق والتشكك حيال "تشرشل" وسيطرته على الشرق الأوسط، كان يشعر حتمًا بالراحة لأن تلك المنطقة المثيرة للمتاعب أصبحت مسؤولية غيره.

بدأت إدارة الشرق الأوسط في المكتب الاستعماري مهامها في 1 مارس عام 1921، وعهد إليها بمسؤولية الدول الواقعة تحت الانتداب البريطاني في شبه

(259) Churchill Companion IV, 1917–1922, Pt II, pp 1300, 1303–6.

(260) Monroe, Britain's Moment in the Middle East, pp 35–6.

الجزيرة العربية وفي بلاد فارس. أول سكرتير مساعد هو "جـون شـوكبيرج"، وهـو مـدير المكتب الهندي، ذو الخبرة الكبيرة في شؤون الشرق الأوسط. كـما وافـق "تومـاس إدوارد لورانس" على أن يكون مستشار الشرق الأوسط لـ"تشرشل"[261]. كان كل من "لـورانس" ورئيس القسم السياسي بالإدارة الجديدة "هوبرت يانج"، مؤيدين للهاشـميين[262]. ومـع هذا، فإن تعيينها في هذا المنصب عكس الحاجة إلى وجود مـوظفين يسـتطيعون كسـب الهاشميين لصفهم، ليتمكنوا من تنفيذ الاستراتيجي البريطانية الجديدة.

بالطبع، ظل "لورانس" هو الرابط البريطاني الأساسي مع "فيصل". كان متشـككًا في البداية حيال مساعدة الحكومة البريطانية، بعد أن شعر بأن العرب تمت خيـانتهم في مؤتمر السلام. كما التقى سرًا بـ"فيصل" ليؤكد له أن آراءه لم تتغير. كـان الأمـير يرغـب في العمـل مـع البريطـانيين، لكنـه كـان قلقًـا مـن رفـض أخيـه "عبـد اللـه" ووالـده للأمر[263]. أمًا "تشرشل"، الذي نجحت استراتيجيته، قـرر عقـد مـؤتمر في أوائـل مـارس عام 1920، يحضره كل الخبراء في شؤون الشرق الأوسط البريطانيين في "القـاهرة" مـع التركيز على ما يجب القيـام بـه في "بـلاد الرافـدين" الواقعـة تحـت الانتـداب. كانـت أهدافه كالتالي: التبني الرسمي لقائد عربي لصياغة جدول زمني لتقليل حجم الحامية العسـكرية البريطانيـة، لـكي تكـون قـوة صـغيرة لا تكلـف الكثـير اقتصـاديًا، حسـاب التكلفة المادية للمساعدات التي سيتم تقديمها للانتداب، ولتقرير أي أجزاء من "بـلاد

---

(261) Wilson, Lawrence of Arabia, pp 641-2.

(262) 3a1rs.hKand Karsh, Empires of the Sand, p 308.

(263) Wilson, Lawrence of Arabia, p 643.

الرافدين" هي التي تستحق الإبقاء عليها"[264]. في طريقه للقاهرة التقى "تشرشل" بالفرنسي الثري الذي كرر على مسامعه رفض الفرنسيين لـ"فيصل" ملكًا على "بلاد الرافدين"، لكن البريطانيين لم يعودوا يهتمون بما تريده "فرنسا".

مؤتمر "القاهرة"[265]

أقيم المؤتمر في فندق "سميراميس" في 12 مارس عام 1921، واستمر لمدة 12 يومًا ولأكثر من 40 جلسة سرية، مع حضور حوالي 40 خبيرًا بريطانيًا في شؤون الشرق الأوسط، وصنّاع السياسة، من بينهم، مفوضون رفيعو المستوى، وقادة عسكريون إقليميون، وحكام مناطق مثل "الصومال". جميعهم عملوا سويًا تخطيطًا لأجندة هي التي شكلت خريطة الشرق الأوسط التي نعرفها الآن. وسرعان ما تم الاتفاق على أنه في "بلاد الرافدين" التي أُعيد تسميتها بـ"العراق"، سيصبح "فيصل" هو الملك. دعم "بيرسي كوكس" و"جيرترود بيل" الفكرة وتحمسا لها، لكنهما اقترحا أن "فيصل" لا بد أن يظهر وكأنه اختيار الشعب في "العراق" وليس مفروضًا عليهم. كما تم الاتفاق على معادلة

---

(264) Churchill Companion IV, 1917-1922, Pt II, p 1334.

(265) The best account remains Aaron S Klieman, Foundations of British Policy in the Arab World: The Cairo Conference of 1921 (Johns Hopkins Press, Baltimore: 1970).

مفادها أن "فيصل" سيُعلن نفسه ملكًا على "العراق"، والحكومة البريطانية ستعلن أنها لن تقف في طريقه[266].

تناول المؤتمر أيضًا قضية "فلسطين". كان "هربرت صمويل"، المفوض السامي، ما زال مفضلًا وجود انتداب يشمل "فلسطين" وإمارة "شرق الأردن"، مجادلًا أن وعد "بلفور" نص على هذا، وأن إنشاء مناطق انتداب مستقلة ربما يؤدي إلى المزيد من التعقيدات مع عصبة الأمم. أصبحت المسألة أكثر إلحاحًا حينما وصلت أنباء إلى المؤتمر تفيد بأن "عبد الله" تقدم لـ"عَمّان"، وبات مؤكدًا لـ"تشرشل" أنه لا بد من الاتفاق مع "عبد الله".

بعد انتهاء المؤتمر، توجه "تشرشل" و"لورانس" إلى القدس، وتقابلا مع الأمير. أخبر "تشرشل"، "عبد الله" أن إمارة "شرق الأردن" لن تكون جزءًا من "فلسطين"، وعرضا على "عبد الله" دورًا رياديًا في إمارة "شرق الأردن" ومخصصات مالية، وفي المقابل وجب أن يوقف مهاجمته للفرنسيين. كما سيتم إرسال مستشارين بريطانيين إليه، ووعدًا بالعمل الحتمي لحصوله على الاستقلال في النهاية. كما تم إقناعه بتأجيل مطالبته بـ"العراق"، مع التلميح إلى أنه في حال تصرف بشكل جيد، فإن الفرنسيين ربمًا يمنحوه دورًا في "دمشق"، إلا أن "أنطونيوس" اقترح أن تلك كانت مجرد حيلة لإسكاته[267].

أهم ما نجم عن هذا المؤتمر كان أن "الحل الشريفي" أصبح الاستراتيجية البريطانية الجديدة لإدارة الشرق الأوسط، فكما قال "آرون كليمان": "ما بدأ

(266) Sachar, The Emergence of the Middle East, p 378.

(267) Wilson, King Abdullah, Britain, and the Making of Jordan, pp 52-3.

كممارسة للبرجماتية السياسية، تحوَّل في "القاهرة" ليشـمل كـل مـا يمكـن تطبيـق هـذا المبـدأ عليـه، بـدءًا بـ"بـلاد الرافـدين"، ثـم إلى شـبه الجزيـرة العربيـة، وإمـارة "شرق الأردن"[268].

سارت الأحداث بسلاسة الآن مع سعي البريطانيين إلى تنفيذ خطتهم. قام "لـورانس" بإخبار "فيصل" بأن يشق طريقه نحو الشرق الأوسـط. وفي 15 أبريـل، دخـل الاثنـان في محادثة طويلة، وافق فيها "فيصل" على عدم الهجوم على الفرنسـيين في "سـوريا"، وأنـه سيسعى للتسوية مع "آل سعود" طالما لم يهاجم على والده في الحجاز. كما اعترف أيضًـا بأنه سيحتاج لنصيحة البريطانيين ودعمهـم في "العـراق"، لأن السـكان هنـاك لم يكونـوا مـؤهلين بعـد للحكـم الـذاتي[269]. وافـق الإنجليـز عـلى مـا اقترحـه، ورأى "تشرشـل" أن "العراق" يمكن حكمه بسـهولة وكأنـه "مقاطعـة هنديـة"[270]. اسـتعد كـل مـن "بـيرسي كوكس" و"جرترود بيل" لقدوم "فيصل"، ونظمت "بيـل" كـل شيء بـدءًا مـن تحضـيرات السفر لـ"فيصل" وصولًا إلى تصميم علم مؤقت للدولة الجديدة. خصم "فيصل" المحلي المحتمل والرئيسي، كان يسير طالب. حيث تم الإبلاغ عن تعبيره عن ضيقه مـما انتهـت إليه الأمور، فتم القبض عليه، ونفيه الدائم في "سيلان"، أو ما يعرف حاليًا بـ"سريلانكا".

وصل "فيصل" إلى "بغداد" في 23 يوليو عام 1921. صدَّق مجلـس الـوزراء العراقي على قرار تتويج "فيصل" ملكًا على "العراق"، وأجرى اسـتفتاءً شـعبيًا،

(268) Klieman, Foundations of British Policy in the Arab World, p 124.

(269) Wilson, Lawrence of Arabia, p 650.

(270) Churchill Companion IV, 1917-1922, Pt III, pp 1553-4.

تحت إشراف "كوكس"، لتتويج "فيصل" في أغسطس. أعلن حوالي 96% موافقتهم على تتويج "فيصل"، ولكن من المستحيل أن "فيصل" كانت له هذه النسبة العالية من القبول والدعم. حيث كانت هناك أعداد كبيرة من المؤيدين للأتراك، الذين أرادوا التقرُّب من "مصطفى كمال أتاتورك"، وشيعة أرادوا وجود دولة ثيوقراطية (دينية)، وأكراد أرادوا الاستقلال. من بين كل هؤلاء، كان "فيصل" هو أقل الاختيارات سوءًا. قالت "فيبي مار": "لا يوجد أي شك في أنه لا يوجد مرشح آخر يتمتع بنبل المكانة أو يمكن أن يتمتع بمنزلة تماثل منزلته"[271]. تُوِّج "فيصل" ملكًا على "العراق"، ليكون بهذا أول ملك يحكم "العراق" في 23 أغسطس عام 1921.

"الحل الشريفي" يتعرض لمشكلة

صدقَّت عصبة الأمم على الانتداب على "العراق" و"فلسطين" و"الأردن" في يوليو 1922، وأتبع هذا معاهدة إنجليزية عراقية تم التصديق عليها في أكتوبر. كان الهدف من مفاوضات تلك الاتفاقية هو توتر العلاقات بين "بريطانيا" و"فيصل" إلى حد قطعها. تعلَّم "فيصل" من خبراته السابقة منذ نهاية الحرب، وخاصة من ضعفه في مواجهة مؤامرات القوى العظمى. وعلى الرغم من هذا، بقي مصممًا على أن البريطانيين والنخبة العراقية لن يتركوه مجرد ملك شكلي على "العراق"، وأنهم بدأوا في البحث عن طرق لزيادة قوته[272].

(271) Phebe Marr, The Modern History of Iraq (Westview Press, Boulder, Colo: 2004) p 25.

(272) Darwin, Britain, Egypt and the Middle East, p 37.

جاءه الدعم الداخلي الأساسي من الظبّاط الشريفيين الذين خدموا معه أثناء الثورة العربية، وفي "سوريا"، حيث قام بتعيينهم في مراكز القوة والنفوذ في "بغداد"، وأهمهم "علي جودت"، و"نوري السعيد"، اللذين سيصبحان رموزًا هامة في السياسة العراقية للـ37 عام التالية.

سرعان ما واجه "فيصل" أزمته الأولى. قرر البريطانيون في "القاهرة" أن علاقة الانتداب بين "بريطانيا" و"العراق" سيتم تحديدها في اتفاقية. نظريًا، تلك الاتفاقية لن تكون أوامر تفرضها "بريطانيا"، أمّا عمليًا، فقد كانت كذلك بالفعل. وحينما بدأ "فيصل" في الاعتراض على جوانب معينة من الاتفاقية المطروحة خاصة الجزء الخاص بسيطرة "بريطانيا" على العلاقات العراقية العالمية، والإبطال الرسمي للانتداب، وهكذا نشبت أزمة في العلاقات الإنجليزية العراقية في العام الأول من حكم "فيصل". تكتيكات "فيصل" التي تسببت في تأخير الانتهاء من الاتفاقية تسببت في شكوى "تشرشل" من أنه لم يمض أكثر من ستة أشهر عندما كانت "بريطانيا" تدفع فاتورة الفندق الذي يقيم فيه "فيصل"، والآن يجد أمامه تلغرافات مطولة عن "فيصل" وشكوكه وتساؤلاته عن حكمه لـ"العراق"[273]. انتهى سوء التفاهم في صيف عام 1922. وبحلول أغسطس عام 1922، رأى "كوكس" أن "فيصل" قد انضم إلى الحزب المتطرف ولم يعد الرجل المناسب للعرش. واقترح "كوكس" أنه يجب بدء الانتخابات، وعرض الاتفاقية على الجمعية التشريعية. وفي حال تم رفض الاتفاقية، فإن "بريطانيا" ستنسحب من "العراق" باستثناء "البصرة". كان "تشرشل" يؤيد هذا الرأي مجادلًا السير "لويد جورج" بأن أي حكومة تحصل على فرصة إزالة

(273) Churchill Companion IV, 1917-1922, Pt III, p 1675.

عبء "العراق" من على كاهلها، ستصبح محبوبة من الجميع. كما لم يرَ فائدة في أن تدفع "بريطانيا" 8 ملايين جنيه إسترليني مقابل "ميزة الحياة فوق فوهه بركان ناكر للجميل، لن ينجم عنه أي ظروف مفيدة لهم". رفض "لويد جورج" "سياسة الإفشال" تلك"[274]. ربما كانوا ليطيحوا بـ"فيصل" لولا إصابته بالزائدة الدودية، وهو ما سمح لـ"كوكس" بأن يسيطر بشكل تام على الحكومة، ويأمر بالقبض على القوميين المتطرفين الرافضين للاتفاقية، كما أجبر مجلس الوزراء العراقي على التصديق على الاتفاقية في أكتوبر. هكذا عادت العلاقات بين "كوكس" و"فيصل" إلى سابق عهدها، وبدا أن إصابة "فيصل" بالزائدة، صدفة غريبة للغاية.

"عبد اللـه" كان يعاني من مشكلات مع البريطانيين أيضًا. حيث فشل في فرض نوع من أنواع القوانين أو النظام على إمارة "شرق الأردن"، كما كان يأوي قوات مناهضة للفرنسيين. كتب الجنرال "كونجريف"، القائد البريطاني في إمارة "شرق الأردن"، إلى "تشرشل" في أغسطس عام 1921، مطالبًا بإبعاد "عبد اللـه"، الذي كان من وجهة نظره مخادعًا، ومحتالًا، ويجب التخلص منه. كانت هناك أحاديث بأن الفرنسيين كانوا يفكرون في وضع "عبد اللـه" على "سوريا"، ولكن كان من المستبعد حدوث هذا. تم إرسال "لورانس"، في مهمة للملك "حسين"، للتخطيط لإبعاد "عبد اللـه". ومع هذا، فإن "عبد اللـه"، والذي حتى الآن لم يبدُ متحمسًا لإمارة "شرق الأردن"، طلب البقاء[275]. لم يستطع "عبد

(274) Churchill Companion IV, 1917–1922, Pt III, pp 1974–7.

(275) Wilson, Lawrence of Arabia, p 662.

الـلـه" الشعور بالأمان في منصبه حتى مايو 1923، حينما أعلن البريطانيون استعدادهم لمنح "شرق الأردن" استقلاله[276].

توقيع تلك الاتفاقية تسبب في دخول الملك "حسين" نوبة من نوبات غضبه الشهيرة. ففي السابق كان غاضبًا مـن "فيصـل" بسـبب قبولـه تـاج "العـراق"، والهدنـة مـع "آل سعود"، والآن استنكر ما فعله "عبد الـلــه". لأنـه اعتقـد أن اتفاقيـة "عبـد الـلــه" مـع البريطانيين، جعلته يوافق على الوجود اليهودي في "فلسطين"، والأهم من هذا، أنه الآن، ومن خلال رؤيته الأنانية للعالم، قد فقد حقه في حكم "شرق الأردن". "عبد الـلـه"، على عكس "فيصل"، كان ما زال واقعًا وبشدة تحت تأثير والده، وحينما التقاه في ينـاير عـام 1914، ضايقه وسيطر عليه، لدرجة أن البريطانيين خافوا من أن الأمـير ربمـا يتخلى عـن منصبه في "شرق الأردن" لصالح "حسين"، وهو آخر ما كانوا يريدون رؤيته يحدث.

ارتكب "حسين" خطأ وحيدًا أخيرًا. فعلى الرغم من ضـعفه المـالي والعسـكري، فإنـه استغل فرصة القضاء على الخلافة على يد الجمعية القومية التركية في مارس عام 1924، ليعلن نفسه خليفة. بهـذا حصـل عـلى الـدعم في "سـوريا" وإمـارة "شرق الأردن" التـي يحكمها "عبد الـلـه" نيابة عن والده. أمّا في "العراق" و"السعودية"، فقـد كانـت هنـاك حالة من الغضب والرفض. طالب محاربو "آل سعود"، "الإخوان"، بأن يتم السماح لهـم بـالتحرك إلى الحجـاز مـرة واحـدة ونهائيـة. في أغسـطس عـام 1924، شـن "آل سـعود" هجومًا، واستولوا بسرعة على مدينتي "الطائف" و"مكة". تنازل "حسين" عن منصبه لابنـه

(276) Kamal S Salibi, The Modern History of Jordan (I.B. Tauris, London: 1993) p 88.

الأكبر "علي"، لكنه استمر في التدخل في الحكم من "العقبة". فقط "المدينة" و"جدة" بقيتا في أيدي الأسرة الهاشمية. حاصرت قوَّات "آل سعود" "جدة" لأكثر من عام. ظهرت حماقة "حسين" بإلغاء تحالفه مع "بريطانيا" اتضحت حينما قامت القوَّات العسكرية البريطانية بمساعدة "الإخوان" في هجوم يهدف إلى الإطاحة بـ"عبد الله" عام 1924[277]. كان بإمكان "علي" إنقاذ حكمه، لكن، بدلًا من هذا، في 5 ديسمبر 1925 استسلمت المدينة. وهو ما تسبب في حدوث تمرد بين قوَّات "علي" في "جدة". أغلب وجهاء جدة، كانوا مستعدين للاستسلام لـ"آل سعود". استسلم "علي" للقدر المحتوم وتنازل عن العرش في 19 ديسمبر عام 1925. مملكة الحجاز الآن لم يعد لها وجود. بقيت أسرة "آل سعود" و"الإخوان" يمثلان تهديدًا لكل من إمارة "شرق الأردن" و"العراق". لم يتقبل "آل سعود" وجود "عبد الله" على حدودهم إلا عام 1928، لكن في الوقت نفسه، ظلت حالة الشك وانعدام الثقة موجودة بين الأسرتين الحاكمتين في الشرق الأوسط.

(277) Avi Shlaim, Lion of Jordan: The Life of King Hussein in War and Peace (Allen Lane, London: 2007) p 17.

8

معاهدات السلام ومصير الأراضي العربية

تشكلت في العالم العربي خمسة كيانات سياسية بموجب قرارات مؤتمر السلام وما بعده. وهم، الانتداب البريطاني في "العراق"، وإمارة "شرق الأردن" و"فلسطين"، والانتداب الفرنسي على "سوريا" و"لبنان". كما ظهرت ثلاثة كيانات أخرى مستقلة، هي، المملكة الهاشمية في شبه الجزيرة العربية (الحجاز)، وفي "اليمن"، وسلطنة "آل سعود" في "نجد"، والأقاليم المعتمدة عليها في وسط شبه الجزيرة العربية. أمّا في شمال أفريقيا، فنجد "مصر" تتبع النظام الملكي شبه المستقل في عام 1922، لكن مع بقاء تدخل "بريطانيا" في شؤونها الداخلية، وسياساتها والسيطرة على قاعدة قناة السويس وباقي المرافق العسكرية التي تقترب في حجمها من "ويلز" Wales، استمرت تلك السيطرة حتى عام 1951. وحول السواحل الغربية والجنوبية لشبه الجزيرة العربية، تمتعت مجموعة من الإمارات الصغرى بحماية "بريطانيا"، وأبرزها "الكويت" و"عمان"، ومجموعة من المشيخات في الخليج العربي، لميناء "عدن" الذي سيطرت عليه "بريطانيا" كذلك. أمّا في شبه الجزيرة العربية، فقد أنهى "آل سعود" حكم المملكة الهاشمية في الحجاز في ديسمبر عام 1925، وتم إعلان "عبد العزيز آل سعود" ملكًا على الحجاز في أوائل عام 1926. كما استمر في حكم "نجد" والأقاليم الصغيرة حولها. هذه القصة الخيالية

التي تتحدث عن وجود كيانيين منفصلين استمرت حتى سبتمبر عـام 1932، عنـدما تـم الإعلان عن مملكة موحدة، وهي "المملكة العربية السعودية". ونتيجة لتلك الأحـداث، فإن الأسرة الهاشمية وأسرة "آل سعود" بقيتا في حالـة عـداء حتـى ظهـور التهديـد مـن الـرئيس المصري "جـمال عبـد النـاصر"، عنـدما دعـا إلى قوميـة عربيـة راديكاليـة في الخمسينيات، ما أجبر الأسرتين عـلى المصـالحة. كـل مـن "فيصـل" وورثتـه الشرعيـين في "العراق"، وأيضًا الأمير "عبد اللــه" في "الأردن"، اعتقـدوا أن قـدر الأسرة الهاشـمية هـو استعادة السيطرة على "سـوريا"، والتوصـل إلى وحـدة عربيـة. ومـع هـذا فـإن الوحـدة العربية، لم تكن مستحيلة التحقيق بالنسبة للهاشميين فقط، بل أيضًا الراديكاليين مثـل "جمال عبد الناصر".



"تركيا" والشرق الأدنى عام 1923



Turkey and the Near East 1923

"العراق" تحت سيطرة الأسرة الهاشمية حتى عام 1945[278]

شهد عام 1920 تحولات سياسية سريعة في "العراق" بعد أن تم تتويج "فيصل" بشكل رسمي. شعرت "بريطانيا" بالرضا عن تسريع عملية نقل السلطة، وهو ما يعني تقليل التزاماتها المادية. فتمت إضافة اتفاقية إكمالية عام 1924 إلى الاتفاقية الإنجليزية العراقية التي عُقدت عام 1922. أكبر تهديد خارجي لوحدة "العراق"، تمثَّل في مطلب "تركيا" بالحصول على الولاية العثمانية القديمة "الموصل". ومع هذا، في عام 1925، أعلنت عصبة الأمم أن "الموصل" ستظل تحت السيطرة العراقية، وقبلت "تركيا" بذلك. كما أوصت لجنة عصبة الأمم بمنح الأكراد سلطة الحكم الذاتي المستقل. وفي العام نفسه، تم التنازل عن حقول النفط في الموصل لاتحاد مكوَّن من "بريطانيا"، و"هولندا"، و"فرنسا"، والشركات الأمريكية للنفط. تلقى "العراق" عائدات مقابل النفط الذي تم استخراجه، لكن مطالبه بحصة في الشركة تم

(278) The history of Iraq since independence is well served by the seminal Hanna Batatu's Old Social Classes and the Revolutionary Movements of Iraq: A Study of Iraq's Old Landed and Commercial Classes and of Its Communists, Ba'thists, and Free Officers (Princeton, London: 1978). Two excellent general accounts are the aforementioned Marr, The Modern History of Iraq, and Charles Tripp, A History of Iraq (Cambridge University Press, Cambridge: 2001).

رفضها[279]. وهو ما وفر عائدًا للحكومة من عام 1930 يصل إلى 84.6 مليون جنيه استرليني في العام حتى عام 1958[280].

ظلت العلاقات بين القيادتين العراقية والبريطانية متوترة، خاصة ما بين عامي 1926 و1929، بسبب إنهاء فترة الانتداب، وبسبب التجنيد الإجباري[281]. حيث كان انتخاب حكومة حزب العمال في "بريطانيا" عام 1929، هو السبب وراء زيادة الرغبة من طرف "بريطانيا" في إعطاء "العراق" استقلاله. وفي عام 1930 تم توقيع معاهدة إنجليزية عراقية جديدة. وافقت الحكومة البريطانية على إنهاء انتدابها على "العراق" مقابل الحرية في تأسيس قواعد عسكرية وتقديم ضمانات اقتصادية ومصالح نفطية لها في "العراق"، كما وعدت بدعم "العراق" لكي ينضم إلى عصبة الأمم، وهو ما تم تحقيقه عام 1932، حيث صار "العراق" هو البلد الأول الذي يحقق استقلاله. أصبح المستشارون البريطانيون الآن موظفين لدي الحكومة العراقية ولم يعودوا قادرين على التصويت ضد سياسة الحكومة. كان "نوري السعيد" هو رئيس للوزراء في وقت الحصول على الاستقلال الرسمي، حيث أثبت أنه رجل الأسرة الهاشمية القوي في "العراق". فمنذ البداية أسكت المعارضة التي رفضت وجود أي تأثير بريطاني[282].

---

(279) Marr, The Modern History of Iraq, p 30.

(280) William Roger Louis, Ends of British Imperialism: the Scramble for Empire, Suez and Decolonization: Collected Essays (I.B. Tauris, London: 2006) p 862.

(281) See Peter Sluggett, Britain in Iraq: Contriving King and Country 2nd ed (I.B. Tauris, London: 2007) pp 108–20.

(282) Marr, The Modern History of Iraq, p 34.

بقي "فيصل" مدركًا للضعف الذي يعاني منه نظام حكم يسوده العرب من السنة في أراضٍ يشكلون فيها أقل من ربع التعداد السكاني. لهذا السبب ولأي أسباب أخرى تتعلق بالقومية العربية وطموحاتها، استمر "فيصل" في محاولة تحقيق الطموحات القومية العربية القديمة. اختصارًا للحديث، كان لا يزال يريد السيطرة على "سوريا". وفي حال أمكن تأسيس اتحاد لمناطق "الهلال الخصيب" وترأسه هو، فإن الشيعة والأكراد سيصبحون من الأقليات في هذا الكيان الموسع. وعلاوة على هذا، فإن العديد من مستشاريه الأساسيين وأعضاء فريق عمله كانوا من السوريين الذين أتوا إلى "العراق". وربما أهمهم كان السوري اليمني، "ساطع الحصري"، الذي كان وزيرًا للتعليم، وجزءًا من دور النظام المدرسي العراقي البدائي، الذي طوّره الحصري ليصبح "أداة للتعاليم القومية"[283]. ومع هذا فإن "فيصل"، المدرك جيدًا للانتكاسات السابقة، كان حذرًا أثناء اتباعه طموحات التيّار القومي العربي. مثلًا، كان متحفظًا حيال دعم ثورة الدروز في "سوريا" عام 1925. ومع هذا، فإن "فيصل" اشتكى من شروط المعاهدة الإنجليزية العراقية، لأن الإنجليز كانوا يقفون عائقًا في سبيل وحدة الدول التي تتحدث اللغة العربية في الشرق الأوسط. فكما قال المفوض السامي البريطاني "فرانسيس همفري" عام 1930: "فيصل لا يزال يأمل في تأسيس فيدرالية تقع تحت حكم عائلته في كل الأراضي العربية في آسيا، ويبدو أن نياته تلك تمثلت في السعي لوحدة "سوريا" و"العراق" أولًا"[284]. النخبة السنية في قمة السياسة العراقية رأت "العراق"

(283) Tripp, A History of Iraq, pp 61–2.

(284) Cited in Khaldun S Husry, 'King Faysal I and Arab Unity, 1930–33', Journal of Contemporary History 10:2 (1975) p 324.

وكأنه "بروسيا" العالم العربي التي تدفع قدمًا تيّار القومية العربية والعروبة. إحدي أهم القضايا السياسية تمثلت في التجنيد الإجباري الذي اعتبره الملك والنخبة من السنة وسيلة لبناء أمة في بلدهم المنقسم عرقيًا. ولهذا السبب تحديدًا، عارضت الأقليات الشيعية والكردية الأمر بشدة، وكذلك البريطانيون الذين اعتبروا هذا الأمر انتهاكًا ماديًا وعرقيًا[285].

كان يوجد كذلك مطالبون بوجود زعامة عربية في العالم العربي. فنرى "عبد الله"، الذي أرسى دعائم حكمه في إمارة "شرق الأردن"، بنهاية عام 1920، يتخيّل لنفسه دورًا في حكم "سوريا". وحقًا ومثلما شاهدنا، توقّف في إمارة "شرق الأردن" في طريقه لمواجهة الفرنسيين في "سوريا" في عام 1920، وظل هناك منتظرًا استدعائه ليُتوج ملكًا على "سوريا". اعتبر نفسه قائدًا للهاشميين عند أول محاولة ناجحة لإعادتهم إلى حكم "سوريا". آماله أصبحت أقوى بعد وفاة "فيصل" الأول في "العراق" بعد فترة قصيرة من المرض عام 1933. وبحلول هذا الوقت، كانت الملكية الهاشمية في "العراق" تتعرض لصعوبات بالغة ومن ضمنها المشكلات الطائفية مع الشيعة، والأكراد والأقليات في المجتمع الآشوري. تم سحق الأكراد بقسوة في مذبحة عام 1933. تم استدعاء الجيش بشكل منتظم لإخماد الثورات القبلية في المناطق الشيعية في جنوب "العراق" باستخدام العنف، خصوصًا بعد فرض التجنيد الإجباري عام 1933. وهو ما أعطى الجيش تأثيرًا سياسيًّا متزايدًا. وفي عام 1963، وبعد تعيين "ياسين الهاشمي" رئيسًا للوزراء، بدأ في الإفصاح عن ميول استبدادية متزايدة، والجنرال "بكر صدقي" الذي تشجع على يد أعداء "الهاشمي"،

(285) Sluggett, Britain in Iraq, p 94; Tripp, A History of Iraq, pp 61–2.

استعد لتنفيذ انقلاب عسكري. أمّا الملك "غازي" وهو ابن "فيصل" الصغير الذي خلّفه في الحكم، لم يعترض على حدوث انقلاب، في حالة بقيت الملكية بعيدة عن أي خطر يهددها. وعلى أي حال، فإن "غازي" مال للتعاطف مع ضبّاط جيش القوميين وافتقر إلى واقعية والده. والأهم من هذا، أن الانقلاب كان بمثابة ضربة قاصمة للحكم الدستوري في "العراق"، وكان بداية الصراع العنيف بين النخبة من السنة[286]. تم اغتيال "صدقي" في أغسطس عام 1937، بعدها عادت الرموز القديمة مثل "نوري السعيدي" و"رشيد علي" إلى السلطة. ومع هذا، ومن عام 1937 حتى عام 1941، وعلى الرغم من إجراء الإنتخابات، فإن من بت في مسائل السلطة في "العراق" كانت مجموعة من رجال الجيش ومن القوميين التي عُرفت باسم "المربع الذهبي". فلو قامت أي حكومة مدنية بمعارضة هذه المجموعة، كان يتم إسقاطها. هذا "المربع الذهبي" كان يؤمن بآراء مؤيدة للنازية ومناهضة للآراء البريطانية، آراؤه تلك انعكست بوضوح في الثورة المناهضة للصهيونية، وللبريطانيين وانتدابهم في "فلسطين" ما بين عامي 1936 و1939.

مات "غازي" عام 1939 في حادث سيارة، وخلّفه في الحكم ابنه الصغير، "فيصل" الثاني، أما "عبد الله بن علي بن حسين"، الملك الأخير للحجاز، فقد صار وصيًّا على العرش. كان بالغريزة مؤيدًا للبريطانيين، وبناءً على ذلك، نشبت خلافات عديدة بين الأسرة المالكة والضبّاط القوميين في الجيش بعد اندلاع الحرب العالمية الثانية. تلك التوترات نشأت بسبب المطالب البريطانية بالتزام "العراق" بمعاهدة عام 1930، والتي تتضمن تعطيل العلاقات

(286) Marr, The Modern History of Iraq, pp 44–6.

الدبلوماسية مع قوى المحور. وفي ربيع عام 1941، أُجبر "عبد اللـه" على الهرب بعد أشهر من الصراع السياسي الذي انتهى باستيلاء القومي "رشيد علي" على السلطة، حيث تمتع بثقة "المربع الذهبي". كان البريطانيون على اقتناع بوجود خطة إيطالية ألمانية لإبعادهم عن الشرق الأوسط، ولذلك قرروا تأمين وجودهم في تلك المنطقة، وخلال بضعة أسابيع قليلة في أواخر شهري أبريل ومايو عام 1941، نزلت القوّات البريطانية في "البصرة"، وأطاحت بنظام "رشيد علي"، وفي شهر يونيو تحركوا ضد "سوريا" وطردوا الحاكم السني. (انظر بالأسفل). تلاه احتلال بريطاني ثانٍ للعراق، وتم وضع جماعة حاكمة مؤيدة للبريطانيين مرة ثانية، أمّا "رشيد علي"، فتم نفيه خارج البلد، والقبض على مؤيديه وإعدامهم[287]. دعم "نوري السعيد" البريطانيين، وأصبح السياسي المسيطر في أعقاب عام 1941 في "العراق". واعتبر الصلة البريطانية كداعم هام للأسرة الملكية الهاشمية في "العراق"، وطموحاتها الكبيرة في الشرق الأوسط.

طموحات "عبد اللـه" المؤيدة للوحدة العربية

الأمير "عبد اللـه" كان داعمًا قويًا للغزو البريطاني للشرق الأوسط خلال الحرب العالمية الثانية، حيث دعم البريطانيين عسكريًا عبر إرسال قوّاته العربية التي دربها الإنجليز. رسميًا، "عبد اللـه" أصبح الحاكم الفعلي للأسرة الهاشمية. على الرغم من هذا، كان حاكمًا على أضعف دولة عربية، وأكثرها اعتمادًا على

(287) For the 1941 coup and its aftermath see Marr, The Modern History of Iraq, pp 53-6; and Tripp, A History of Iraq, pp 99-106.

الدعم البريطاني. ظلتْ إمارة "شرق الأردن" فقيرة بشكل يائس وغير متطورة مع تعداد سكاني صغير نسبيًا والافتقار إلى النفط أو أي مصادر طبيعية أخرى. "عبد الله"، وربما أكثر من بقية أقاربه في "العراق"، اعتبر أنه من الضروري أن يزيد من طموحاته، عبر دمج إمارة "شرق الأردن" في كيان عربي أكبر. والسبب الوحيد في هذا هو أن ذلك الكيان سيسمح له بالتخلص من القيود البريطانية. بدا متلهفًا على لعب دور ريادي في الدولة التي سيتم تأسيسها في الشرق الأوسط بعد انتهاء الحرب. آمن "عبد الله"، وكل المؤيدين للوحدة العربية أن هذا الأمر يبشّر بتأسيس اتحاد البلدان العربية الواقعة في منطقة "الهلال الخصيب"؛ "العراق" و"سوريا" وإمارة "شرق الأردن" و"فلسطين".

كان "عبد الله" متلهفًا على المحادثات حول الوحدة العربية التي من الممكن أن تتم قبل أن يصير "شرق الأردن" و"سوريا" و"فلسطين" و"لبنان" بلدانًا مستقلة، خشية أنه سيبدو ضعيفًا جدًا لتحقيق الوحدة بمفرده، قرر أن أفضل فرصة متاحة له للنجاح تتمثل في التعاون مع البريطانيين، أملًا في استخدامهم تأثيرهم في "سوريا" بعد عام 1941 لوضعه على العرش هناك، ومع هذا، معظم القوميين العرب لم يثقوا فيه، واعتبروه جاسوسًا لصالح البريطانيين[288]. تمثلت خطة "عبد الله" الكبرى في تأسيس "سوريا" الكبرى، في الأساس، اتحاد فيدرالي سوري - أردني. ومع هذا فإن القادة القوميين السوريين مثل "فارس الخوري"، كانوا مترددين في تأييدهم لـ"عبد الله"، خصوصًا مع وجود آثار باقية للنفوذ الفرنسي في "سوريا". رفض رئيس

(288) See Wilson, King Abdullah, Britain and the Making of Jordan, pp 129-68.

"سوريا" "شكري القوتلي" عروض "عبد الـلـه" بحسـم بـالغ عـام 1946، وتأسـيس جامعـة الدول العربية في مارس عام 1945، أعطى "مصر" دورًا متميزًا في المناقشـات التـي تتعلـق بالوحدة العربية. البريطانيون أنفسـهم لم يهتمـوا كثيرًا بـدعم "عبـد الـلــه" في "سـوريا"، وبينما رأوا أن "عبد الـلـه" لا يـزال أهـم حلفـائهم في الشرق الاوسـط، فـإنهم تشـككوا في طموحاته الإقليمية الموسعة. مكافأة "عبد الـلـه" أتت عام 1946 عبر حصول إمـارة "شرق الأردن" على استقلالها الرسمي، وأعيد تسميتها باسم "المملكة الأردنيـة الهاشـمية"، وبهـذا أصبح الأمير "عبد الـلـه" ملكًا.

حول "عبد الـلـه" الآن اهتمامه إلى "فلسطين"، فلطالما كانت علاقاتـه غامضـة مـع كـلٍ مـن سـلطات الانتـداب البريطانيـة في "فلسـطين" وممـثلي اليهـود، الـذين زادت أعدادهم بشكل هائل في العشرينيّات والثلاثينيّات. ربما يبدو الأمر أنه كان يطمـح إلى نوعٍ من استقلال يهودي يقع تحت سيطرة الفيدرالة الهاشمية. بـات واضـحًا أن هـذا الأمر لن تم بسبب ازدياد العنف اليهودي ضد سلطة الانتداب وضـد الفلسـطينيين في نهايـة الحـرب العالميـة الثانيـة. يبـدو أن "عبـد الـلــه" قـرر، بتشـجيع مـن الحكومـة البريطانية، أن يؤمِّن الجزء الأخير من الأراضي الفلسطينية الواقعـة تحـت الانتـداب في أعقاب رحيل البريطانيين. علاوة عـلى هـذا، وفي نـوفمبر عـام 1947 تـم الاتفـاق عـلى تسوية مؤقتة وغير رسمية بين "عبد الـلـه" وبين القائد اليهودي "ديفيد بن جوريون". وفقًا لتلك التسوية سمح لـ"عبد الـلـه" بالاستيلاء على الضفة الغربية مـن "فلسـطين"، الواقعة تحت الانتداب مقابل عدم استخدام القـوة العسـكرية الكاملـة لجيشـه ضـد الدولة اليهودية الصغيرة ودعـم البريطـانيون تلـك الخطـة بقـوة، خاصـة أنهـم أرادوا

تقوية مكانة "عبد الله"، وإحباط جهود المفتي الأكبر في القدس، الحاج "أمين الحسيني"، الذي لم يثقوا به كثيرًا بسبب دوره في التمرد الفلسطيني بين عام 1936، وعام 1939، وبسبب علاقاته مع النازيين خلال الحرب العالمية الثانية[289]. كيف تم تقسيم "فلسطين" حقًا بين "إسرائيل" و"الأردن"، لا يزال محل جدال تاريخي مستعر، ومع هذا فإن الحقائق على أرض الواقع تبدو واضحة. حجم دولة إسرائيل الجديدة يبلغ حوالي 80% من "فلسطين" القديمة، بينما حصل "عبد الله" على الضفة الغربية لنفسه، ومن ضمنها شرق القدس، والتي تم ضمها رسميًا عام 1959. استقبلت "الأردن" نسبة عالية من اللاجئين الفلسطينيين البالغ عددهم 750000 لاجئ بسبب الصراع في "فلسطين" في الفترة ما بين عامي 1947، و1949.

ونظر "عبد الله" لإنشاء "إسرائيل" بعين الفتور أكثر من باقي الدول العربية الأخرى، وبقي المفاوضون الأردنيون والإسرائيليون على اتصالات سرية بعد الحرب. تلك المفاوضات تضمنت مقترحات للتقسيم النهائي لـ"فلسطين"، وستتضمَّن اتفاقية المتوسط، واتفاقية عدم الاعتداء. ومع هذا كانت هناك معارضة قوية داخل حكومته وفي العالم العربي. كذلك، لم تكن إسرائيل غير راغبة في القيام بأي تنازل للالتزام بأي اتفاقية. هذه المحادثات انتهت بشكل

(289) Avi Shlaim, Collusion across the Jordan: King Abdullah, the Zionist Movement and the Partition of Palestine (Clarendon Press, Oxford: 1988).

مفاجئ مع اغتيال "عبد الـلـه" على يد مسلم متطرف خارج مسـجد الأقصى في القـدس في 20 يوليو عام 1951[290].

خلَّف "عبد الـلـه" ابنه "طلال"، الذي أُجبِر على التنازل عن العرش في أغسطس عـام 1950 نظرًا لمرضه العقلي، أما "حسين بن طلال" فكان عمره 17 عامًا فقط حينما خلَفه في الحكم. أوَّل عشرين عامًا من حكمه، هددت الأزمات المتتالية حكمه، لكنه أثبت أنه أكثر حكّام العرب حظًا، فعلى الرغم مـن قراراتـه المتهـورة في السياسـة، وعـدم امتلاكـه لبترول، ولجوء المزيد من الفلسطينيين إلى "الأردن"، فإنه نجح في النجاة من سلسلة مـن الأزمات القاسية في عامي 1957، و1958، والتـي يعـود سـببها نسـبيًا إلى الـرئيس "عبـد الناصر"، وهزيمة 1967.

أخطأ "حسين" عندما انضم إلى "ناصر" في حربه في يونيـو عـام 1967 ضـد إسرائيـل، حيث كلفته هذه الحرب الضـفة الغربيـة وشرق القـدس، تبعهـا تـدفق هائـل للاجئـين الفلسطينيين إلى مملكته. في أعقاب حرب العصابات التي شنها الفدائيون الفلسطينيون، قاموا بتأسيس دولة داخـل دولـة، وتحـدُّوا "حسـين" علانيـة. هجماتهـم عـلى إسرائيـل، واختطاف طائرات غربية في سبتمبر عام 1970، أجبرت الملك على الـتصرف. وخـلال عشرة أيام من الصراع القاسي تم التخلص من الجماعات الفدائيـة الفلسـطينية أو اجبارهـا عـلى الخروج. بعد هذا، عاد حكم الملك "حسين" إلى استقراره ولو بشكل نسبي. وحيـنما وقَّـع الفلسطينيون والإسرائيليون اتفاقية "أوسلو" في سبتمبر عام 1993، تحرَّك "حسـين" سريعًـا

(290) Avi Shlaim, The Iron Wall: Israel and the Arab World (Penguin, London: 2001) pp 62–8.

لعقد اتفاقية مع الإسرائيليين، لينهي بها حالة الحرب التي استمرت لـ46 عامًا. مات "حسين" عام 1999، ربما أعظم إنجازاته تمثّل في تسليم مملكة مستقرة لابنه "عبد الله"، وهو ما لم يؤمن الكثيرون في حدوثه[291].

"نوري السعيد"، و"جمال عبد الناصر" ونهاية الأسرة الهاشمية في "العراق"

خلافًا لرغبة "عبد الله" في السعي للحصول على السلام مع إسرائيل، ظل "العراق"، رغم توجهاته المؤيدة للغرب، يعارض أي تسوية مع تلك الدولة الجديدة. كان عام 1948 شاهدًا على عدم استقرار "العراق" فيه. حيث اندلعت الكثير من أحداث الشغب بعد الصراع الفلسطيني وبسبب الاتفاق الإنجليزي العراقي؛ اتفاقية "بورتسماوث". استهدفت أحداث الشغب تلك عددًا كبيرًا من اليهود في بغداد، والذين استنتجوا أنه لا مستقبل لهم في "العراق"، فغادرت الأغلبية منهم البلاد تاركين ممتلكاتهم خلفهم عام 1950[292]. أصبح "نوري" الآن المسيطر في "العراق"، حيث استغل الفرصة التي سنحت له بوفاة "عبد الله الأول" في "الأردن"، لاستعادة حق القيادة العراقية في تنظيم وحدة منطقة "الهلال الخصيب". لكنه، في "مصر" عام 1952، ظهر منافسًا للقيادة العراقية في المنطقة العربية، حيث شهدت "مصر" قيام نظام حكم عسكري جديد. والذي أصبح "جمال عبد الناصر" قائده بحلول عام 1955. أول ما

(291) Shlaim, Lion of Jordan: The Life of King Hussein in War and Peace is a sympathetic account of his life.

(292) 1ri5p.pT, A History of Iraq, pp 125–6.

حققه "جمال عبد الناصر"، هو توقيع اتفاقية أنهت الوجود البريطاني في "مصر" من دون حرب. وهو ما تعارض مع وجود "نوري"، ومع علاقات الأسرة الملكية العراقية مع الإنجليز ومحاولاتها تحسين علاقاتها مع "بريطانيا" عن طريق السماح بوجود قوّات بريطانية على أراضيها؛ حيث إن "بريطانيا" أبقت على قواعدها الجوية ومرافقها العسكرية وحقوقها في الوجود في "العراق" حتى بعد ثورة عام 1958.

وعلاوة على هذا، فإن "نوري" الذي تأثر بانعدام الثقة العميق تجاه الروس، والذي تعود أسبابه إلى أيامه في الجيش العثماني، فقد التزم بشكل عميق بعقد تحالف عراقي مع الغرب، ولتحقيق تلك الغاية في أوائل عام 1955، فقد أدار إنشاء منظمة دفاع إقليمية، وهي "حلف بغداد"، والتي شملت دولًا مثل "بريطانيا" و"إيران" و"تركيا" و"باكستان". أمل "نوري" في ضم دول عربية أخرى إلى الحلف، ومن ضمنها "الأردن" و"سوريا". تلقّى "حلف بغداد" معارضة شرسة من "جمال عبد الناصر"، الذي اعتبره تحديًا لدعوته إلى التزام الدول العربية الحياد في الحرب الباردة، كما رآه عائقًا في طريق طموحاته لقيادة المنطقة العربية[293]. وجّه القائد المصري حملة إعلامية قوية ضد القيادة العراقية. لم ترد "الأردن" الانضمام بعد أحداث الشغب المصرية، وصارت "سوريا" عالقة في سياسة "ناصر" للقومية العربية، أمّا الأسرة الهاشمية، فكانت في عزلة متزايدة أكثر خصوصًا بعد الغزو الإسرائيلي الفرنسي الإنجليزي لقناة السويس في أكتوبر ونوفمبر عام 1956[294]. كانت توجد أزمة

(293) See Robert McNamara, Britain, Nasser and the Balance of Power in the Middle East (Cass, Portland: 2003) pp 42–6.

(294) Louis, Ends of British Imperialism, p 860.

عالمية حول "سوريا" في صيف وخريف عام 1957، التي وبتشجيع من البريطانيين، جعلت "نوري" يعد الخطط للتدخل العراقي، لكن كانت النتيجة هي تقوية تأثير "مصر" أكثر وأكثر. نتج هذا التأثير عن وحدة "مصر" و"سوريا"، والتي أُطلق عليها اسم "الجمهورية العربية المتحدة" تحت قيادة "جمال عبد الناصر" في فبراير عام 1958. أمَّا "نوري السعيد"، وفي محاولة يائسة، حاول القيام بردٍ يائس، باقتراح وجود اتحاد عربي تكوّنه "العراق" و"الأردن"، ولكنه لم يتلقَ دعمًا كثيرًا.

هكذا بقي نظام الحكم غير مستقر، وعانى "العراق" من انقسام اجتماعي حاد بين الجماهير من الفلاحين، الذين لم يروا سوى أقل القليل من عوائد النفط، وبين طبقة مالكي الأراضي التي ازداد ثراؤها. طبقة مُلَّاك الأراضي أيضًا استبعدت الطبقة الوسطى من السلطة. كانت هناك "لجنة تطوير" عُهد إليها بإنفاق عوائد النفط، تعرضت للانتقاد بسبب تحركها البطيء جدًا. أمَّا الدعاية الناصرية ضد "حلف بغداد" فقد زادت من حالة انعدام الهدوء السياسي بسبب سياسة "العراق" الخارجية المؤيدة للغرب[295]. وعاملت الحكومة أي معارضة سياسية مهما كان حجمها كجماعات مخربة، وبهذا لم تسمح بوجود أي معارضة سياسية شرعية[296].

(295) Stephen Longrigg and Frank Stoakes, Iraq (Praeger, New York: 1959) p 225.
(296) See George Lawrence Harris, Iraq: Its People, Its Society, Its Culture (HRAF Press, New Haven: 1958) p 83; Longrigg and Stoakes, Iraq, p 242.

أمّا في الجيش، فقد انعكست حالـة عـدم الهـدوء السـياسي بطريقـة أكـبر في طبقـة الضباط التي شُكِلت على غرار "الضبّاط الأحرار" في "مصر". أصبحوا مصممين أكثر وأكثر على وضع نهاية لنظام الحكم. سنحت الفرصة لهـم في يوليـو عـام 1985، حيـنما أُمِـرَتْ القوّات العراقية بالاتجاه إلى "الأردن" لدعم نظام الحكم هنـاك، لكنهـا بـدلًا مـن هـذا، اتجهت إلى "بغداد"، واستولت على السلطة. وفي مشاهد مرعبة، تم ذبح الأسرة المالكـة، ومن ضمنها الملك الصغير، والملك الأسبق "عبد الـلـه". وتم أسر "النـوري" وهـو يحـاول أن يصل إلى سفارة أجنبية صديقة، ومتنكرًا في ملابـس النسـاء، ولكنـه قُتـل. تـم إعـلان "العراق" جمهورية، بقيادة العميد "عبد الكريم قاسم" (1914-1963).

كانت الخمسون عامًا التي تلت سقوط الأسرة الهاشـمية بمثابـة كارثـة حلـت عـلى "العراق". حيث نجد أن هنـاك سلسـلة مـن الـنظم الديكتاتوريـة الوحشـية هـي التـي حكمت البلاد وانتهت بالحكم الكارثي لـ"صـدام حسـين" منـذ عـام 1979. تـرأس عراقًـا منهكًا من حربه مع "إيران" في الفترة ما بين عام 1980 حتـى عـام 1988. وأيضًـا الغـزو الوحشي لـ"الكويـت" عـام 1990-1991، والـذي أدى إلى الحـرب مـع تحـالف عسـكري أمريكي دمّر جيش "العراق". وبعد هجمات الحادي عشر من سـبتمبر لعـام 2001 عـلى يد القاعدة، قررت الولايات المتحدة الإطاحة بنظام صدّام "حسين" في ربيـع عـام 2003، والسنوات التي تلت شهدت على عصيان عنيف ودمار منتشر، حيث مات مئات الآلاف من العراقيين في هذا الصراع.

لو أن الأسرة الهاشمية ومستشاريها، مثل "نوري السعيد"، كـانوا قـد اتبعـوا جدولًا للأعمال يتسم بالإصلاح، لربما اختلفت الأمور تمامًا. يصعب حاليًا معرفـة مبلغ تفاقم الأمور، فبسـبب الطبيعـة الطائفيـة لبلـد مثـل "العـراق"، سـيواجه أي نظـام حكـم جديـد مشـكلة في وضـع سياسـاته التـي سيسـير عليهـا، عـلى

أي حال، اتباع نظم الحكم العراقية لسياسة مفتوحة، ربما كان ليخفف عنهم المشاكل التي يواجهونها قليلًا. كانت الانتخابات التي عُقدت عام 2005، هي الأولى منذ عام 1953[297].

"سوريا" و"لبنان": من الانتداب وحتى الاستقلال

أبقت "فرنسا" على حالة من السيطرة المحكمة على بلاد الشرق الأوسط الواقعة تحت انتدابها، لكنها واجهت وبشكل مستمر حالة من المعارضة القومية العنيفة خاصة في "سوريا". حيث انتعشت الحركة القومية السورية، والنوادي، والمجتمعات السرية كثيرًا، بعد سقوط الحكم العثماني عام 1918، وبسبب الشعور المؤقت بالاستقلال الذي حصلوا عليه تحت حكم "فيصل".

عانى الفرنسيون من أهداف سياسية، وثقافية، واقتصادية متصارعة في انتدابهم على بعض مناطق الشرق الأوسط. كما حاولوا تجربة نظمًا عدة لإرضاء وتأمين جانبهم من القوميين. أرادت "فرنسا" استغلال "سوريا" و"لبنان" اقتصاديًا، لكنها لم تنجح أبدًا في الحصول على الأموال من انتدابها على البلدين. كان هناك أيضًا هدف استعماري فرنسي تقليدي لجعل "سوريا" و"لبنان" جسرًا فرنسيًا في الشرق الأوسط، ولتحقيق مثل تلك الغاية، فإن الحكومة الفرنسية قامت بإضافة الدعم الذي تقدمه منظماتها التعليمية الطويلة التأسيس والتبشيرية إلى مستعمراتها في الشرق الأوسط. وهذا هو ما تم تبنيه بقوة من قبل مجموعة مصغرة من السياسيين الفرنسيين الملتزمين

(297) Sluggett, Britain in Iraq, p 213.

بالمشروع الاستعماري. ومع هذا فإن شروط الانتداب، التي أكدت أنه من واجب سلطة الانتداب توجيه رعاياها ومساعدتهم حتى يحصلوا على استقلالهم (رغم أنه لم يتم تحديد أي جدول زمني لتحقيق هذا).

رفضت "فرنسا" الحل البريطاني في "العراق" وفي إمارة "شرق الأردن"، والذي قضى بتسليم السلطة إلى إدارة وطنية في أسرع وقتٍ ممكن، من أجل تنظيم علاقاتها عبر الاتفاق على معاهدة. بدلًا من هذا، فإن الفرنسيين قاموا بتأسيس بنية إدارية تحتية تشبه ما قاموا بتأسيسها في المغرب. وتم إيفاد لجنتين؛ واحدة في "لبنان" والأخرى في "سوريا"، للسيطرة عليهما وإدارة البلدين. قامت شبكة من الموظفين وضُّاط الجيش بتقديم النصح للأعيان المحليين، والمتعاونين مع الحكومة الفرنسية، الذين تم منحهم المناصب العليا. كما تم تأسيس نظام فيدرالي يتكون من دول صغيرة، وهو ما تم بعد تقسيم "لبنان" و"سوريا". كان من المأمول أن يقوم هذا الاتحاد الفيدرالي بتشجيع التصالح بين الفرق الدينية المتناحرة داخل "سوريا". تلك الاستراتيجية لم تنجح أبدًا، وظلت الحركة القومية قوَّة مسيطرة. فقط "لبنان" والمنطقة المحيطة بـ"لواء الإسكندرونة"، اللذين أرادتهما "تركيا"، ونجحت في الحصول عليهما عام 1939، هما من نجحا في إبعاد نفسيهما نهائيًا من "سوريا". كما طالبت حلب ودمشق بأن يُعاد توحيدهما ثانية عام 1924، وهو ما أذعن الفرنسيون له. المدن الأصغر حجمًا التي تكونها الأقليات المسلمة، مثل الدروز والعلويين، بقيت حتى عام 1939، قبل أن يوافق الفرنسيون على ضمهم إلى "سوريا".

كانت المقاومة القومية على استعدادٍ دائمٍ للانفجار. كانت أهم الرموز السياسية في "سوريا" من الشخصيات البارزة الحضرية، ومُلَّاك الأراضي

الأثرياء، وأسرهم ممن عاشوا في المدن الكبرى. كانوا قوميين فيما يتعلق بسياساتهم، والعديد منهم ربطوا أنفسهم بـ"فيصل" بين عامي 1919، و1920. هؤلاء القوم تحكموا في السياسة السورية، حتى استولى الحزب الراديكالي الوطني "حزب البعث العربي الاشتراكي" على السلطة في الستينيات. بعض الوجهاء أبدوا استعدادهم في التعاون مع الفرنسيين مقابل حصولهم على مناصب عليا. كذلك قام الفرنسيون بإنشاء قوة برلمانية كبرى محلية، وهي القوات الخاصة ببلاد الشام، أو ما عُرِفَت باسم Les Troupes Speciales de Levant. تكونت هذه القوّات من نسبة هائلة من قوّات الجيش الفرنسي، وأفراد من الأقليات المسيحية، ومن الشيعة الذين خافوا من انتشار الحركة القومية التي كان أغلب من فيها من السنة.

أكثر المحاولات عنفًا للإطاحة بالحكم الفرنسي اندلعت عام 1925 بقيادة أغلبية متمردة مكونة من قبائل المسلمين الدروز[298]. هذا التمرد، الذي عُرف شعبيًا بـ"الثورة الكبرى"، هو "عبارة عن ثورة مناهضة للإمبريالية وذات توجه شعبي"[299]. لاحقًا جادلت "لافرتي ميلر" أن "ثورة عام 1925، لم تكن ثورة قومية لشعب موحد ضد المضطهد الفرنسي، بل كانت صراع قوة بين

(298) On the revolt and its wider international repercussions see Joyce Laverty Miller, 'The Syrian Revolt of 1925', International Journal of Middle East Studies, Vol 8, No 4 (Oct 1977), pp 545-63; and Martin Thomas, 'The Syrian Revolt and Anglo-French imperial relations, 1925-27', in G C Kennedy and K Neilson (eds), Incidents and International Relations: People, Power, and Personalities (Praeger, Westport, Conn: 2002) pp 65-86.

(299) Phillip S Khoury, Syria and the French Mandate: The Politics of Arab Nationalism, 1920-1945 (Princeton University Press, Princeton, N.J.:1987) p 205.

جماعـات منقسـمة في دولـة اصـطناعية، والشيء الوحيـد الـذي اتفقـوا عليـه هـو أن الفرنسيين لا بد أن يرحلوا"[300]. لذلك، وبينما كانـت الثـورة منـتشرة، تسـبب الانقسـام والانقسامات العرقية في صعوبة تكوين جماعة واحدة وطنية يمكنها إجبـار الفرنسـيين على رفع انتدابهم، كـما أنـه عالميًـا، لم يـدعم أحـد تلـك الفكـرة. أمَّـا الأقليـات العرقيـة والدينية في "سوريا"، وبشكل خاص المسيحيين، فقـدَّروا أنهـم سـيخسرون الكثـير إذا مـا سيطر تيَّار القومية العربي. عـلى أي حـال، تمكَّـن الفرنسـيون مـن السـيطرة عـلى زمـام الأمور، في النهاية. وعلى الرغم من هذا، فإن تيَّار القومية العربية لم يختـفِ تمامًـا حتـى عام 1927؛ حيث دمرت "فرنسا" سمعتها عالميًّا بعد قرارهـا بقصـف "دمشـق"، بسـبب دخول المتمردين المدينة في أكتوبر عام 1925، وهو ما ترك أغلب المدينـة في حالـة مـن الدمار[301].

هزيمة الثورة أقنعت العديد من القوميين السوريين أن الثورة التي تهدف إلى طـرد الفرنسيين لن تكون ناجحة، لأن الانسحاب التدريجي للفرنسيين هـو الوسـيلة الوحيـدة لطرح المطالب العربية لنيل الاستقلال. وفي الوقت نفسه، أدرك الفرنسيون أنهم يمكنهم حكم "سوريا" فقط، مقابل السـماح للقـوميين بـبعض النفـوذ. وهكـذا قـام حلـف مـن القوميين أصحاب المكانات العليا بتشـكيل الكتلـة القوميـة. هـدفهم تمثَّـل في اسـتغلال البرنامج الفرنسي للتحرير، والحصول عـلى مناصـب عليـا في الحكومـة، وتسريـع عمليـة الاستقلال.

وهكذا فإن الكتلة القومية هي التي سيطرت على الجمعية الدستورية مـا بـين عـام 1928 وعـام 1930، ومـع هـذا، فـإن الفرنسـيين رفضـوا المقترحـات

(300) Laverty Miller, 'The Syrian Revolt of 1925', p 547.
(301) Miller, 'The Syrian Revolt of 1925', pp 545–6.

الدستورية التي قدمتها الكتلة القومية، والتي دعت للاستقرار الإفتراضي، وألغوا الجمعية، وحاولوا فرض هياكلهم الدستورية. لكن الكتلة الوطنية استطاعت منع الاتفاق السوري مع أي دستور يراه الفرنسيون مقبولًا. وعلى الرغم من هذا، كانت الكتلة معتدلة في معارضتها للحكم الفرنسي، وأبقت على قنوات مفتوحة مع المفوض السامي الفرنسي، وعملت في مختلف الوزارات التي أسسها الفرنسيون. بسبب رغبة الكتلة القومية في التعاون مع الفرنسيين، قللت من تأثيراتها على المزيد من الجماعات القومية الراديكالية. وبدأ تأثير حركات الشباب، المكونة أساسًا من الطلاب، في الزيادة. كما تأسست المجتمعات السرية، وأهمها حركة التحرر العربي، التي تأسست عام 1929، وعصبة العمل القومي التي تأسست عام 1933. تلك المجتمعات شجعت على التظاهر في أوائل عام 1936، والتي سرعان ما تطورت إلى إضراب عام. تلك المظاهرات نجحت بشكل موسّع حتى سيطرت الجبهة الشعبية اليسارية على الحكم في "فرنسا". سرعان ما وافقت الجبهة الشعبية على معاهدة قبلها بشكل موسع الرأي العام السوري في سبتمبر عام 1936. سميت تلك المعاهدة بـ"معاهدة الصداقة الفرنسية السورية"، حيث أتاحت لـ"فرنسا" الحرية في وجود قواعد عسكرية لها في "سوريا"، مقابل منح الاستقلال لـ"سوريا"، والدفاع عنها إذا تم الاعتداء عليها. وافق البرلمان السوري على تلك الاتفاقية عام 1936. وفي الوقت نفسه، تم الاعتراف بـ"لبنان" دولة منفصلة ومستقلة، بالشروط نفسها، وبموجب معاهدة مماثلة.

ومع هذا فإن مزيجًا من جناح اليساري الشعبي في الحكومة في "باريس"، والصراع القومي، واعتراضات الأقليات الخائفة، وتسليم "لواء الإسكندرونة"

لـ"تركيا"، كل هذا أكد أن المعاهدة لم يتم التصديق عليها بشكل مناسـب. وهكـذا فـإن الحكومة الفرنسية، الأميل للتيار اليميني، كانت في أواخر عام 1930 قلقـة بشـأن تزايـد قوة "هتلر"، فسعت لتأجيل عملية الاستقلال. بالطبع، ظل القوميون السوريون يطلبون بتنفيذ الفرنسيين لجانبهم من الصفقة. كما تسببت عودة "لواء الإسكندرونة" لـ"تركيـا" في اندلاع نوبات غضب عنيفة في "سوريا"، وهو ما أدى إلى إعادة فرض الحكم الفـرنسي مرة أخرى عام 1939. نتيجة لهزيمة "فرنسا" غير المتوقعـة في مـايو - يونيـو عـام 1940، واستعادة حكومة "فيشي" لقوتها، واستعدادها للتعاون مع "ألمانيا" النازيـة، و"إيطاليـا" الفاشية، أعطت كلتيهما حرية التصرف في "سوريا". أمَّا البريطانيون، فخوفًا مـن هجـوم دول المحور الوشيك على الشرق الأوسط، قاموا بغزو "سـوريا" مـن "فلسـطين" وطـردوا الإدارة التي فرضتها حكومة "فيشي" في يونيو عام 1941. وعدت حكومة "فرنسـا" الحـرة بقيادة الجنرال "شارل ديجول" بمنح الاستقلال في حـال الاتفـاق عـلى معاهـدة مقبولـة، ولكن سلطة "فرنسا" في "سوريا" و"لبنان" كانت ضعيفة للغاية. أمَّا "بريطانيا" والولايات المتحدة أصبحتا في مركز اتخاذ القـرار، فلـم يـروا أي فائـدة للغـرب في اسـتمرار الحكـم الفرنسي. وفي عـام 1943، فـاز القوميـون بالانتخابـات التـي دعـت إليهـا إدارة حكومـة "فرنسا" الحرة تحت ضغطٍ هائل مـن البريطـانيين، ومـن الولايـات المتحـدة الأمريكيـة. أصبح "شكري القوتلي"، الراديكالي المؤيد للوحدة العربية، رئيسًا لـ"سوريا". لكن، ظلـت "فرنسا" تسيطر على القوات الخاصة التس سبق وكونتها بهدف منع أي محاولات لتحقيق الاستقلال حتى تضمن "فرنسا" حقوقها، ومصـالحها. رفـض "فرنسـا" الانسـحاب انتهـى في مـايو عـام 1945، بعـد انـدلاع أحـداث الشـغب المناهضـة للفرنسـيين. حاولـت "فرنسـا"

استعادة النظام وبسط سيطرتها، لكن انتقدها البريطانيون بشدة، وطالبوها بسحب قواتها. استجابة للضغط العالمي، اعترفت "فرنسا" أخيرًا بالهزيمة وسحبت قواتها في أبريل عام 1946[302].

تجربة "سوريا" مع الاستقلال لم تكن بالتجربة السارة. فبدءًا من عام 1946، كانت هناك سلسلة من الحكومات العسكرية والمدنية. كما صارت ساحة معارك من منتصف الخمسينيّات بسبب الهاشميين في "العراق" و"الأردن"، الذين كانوا متلهفين على ضمّها لفيدرالية في منطقة "الهلال الخصيب"، وكذلك بسبب طموحات الرئيس "ناصر" بالوحدة العربية. نجح "ناصر" في تحقيق طموحه، وتم الإعلان عن الوحدة العربية والجمهورية العربية المتحدة عام 1958[303]. لكن، حتى هذه الوحدة لم تجلب الاستقرار لـ"سوريا". ففي سبتمبر عام 1961، كان هناك انقلاب سياسي، وانتهت الوحدة مع "مصر". قام ضبّاط يتبعون حزب البعث الراديكالي المؤيد للوحدة العربية بالسيطرة على الحكم في مارس عام 1963. هذا النظام الراديكالي المتشدد واجه إسرائيل حول حقوق المياه في "نهر الأردن". وهذا الأمر ساهم في التوتر الذي أدى إلى حرب الستة أيام في يونيو عام 1967، والتي هزمت إسرائيل فيها "مصر" و"الأردن" و"سوريا". وفقدت فيها "سوريا" هضبة الجولان الاستراتيجية واستولت عليها إسرائيل. وفي عام 1970، وبعد سنوات من النزاع السياسي الداخلي، صار اللواء

(302) Malcolm E Yapp, The Near East Since the First World War: A History to 1995. A History of the Near East (Longman, Harlow: 2007) pp 96-7.

(303) The best guide to the intra-Arab battle for Syria remains Patrick Seale, The Struggle for Syria: A Study of Post- War Arab Politics, 1945-1958 (Oxford University Press, Oxford 1965).

"حافظ الأسد"، بلا منازع، حاكمًا لـ"سوريا". قاد البلاد في حرب على إسرائيل تحالفًا مع "مصر" في أكتوبر عام 1973، لكنه فشل في استعاده مرتفعات الجولان، والتي بقيت حتى الآن تحت الاحتلال الإسرائيلي.

تجربة "لبنان" في نيل الاستقلال كانت تحفها المشكلات أيضًا. حيث قام الفرنسيون باعتقال أغلب الأعضاء في الحكومة اللبنانية بعد انتخابات عام 1943، التي جاءت بجماعات مناهضة للفرنسيين إلى السلطة. ومثلما حدث في "سوريا"، كانت تلك محاولة يائسة للحفاظ على السيطرة، لكن البريطانيين أجبروا الفرنسيين على الانسحاب. وفي عام 1946، سحب الفرنسيون قواتهم، وصار "لبنان" مستقلًا. على أي حال، نيل الاستقلال كان جزءًا صغيرًا من المشاكل السياسية التي واجهها "لبنان". حيث انقسم سكّان "لبنان" إلى قسمين بالتساوي بين مختلف الطوائف المسيحية، وأهمها المسيحيون المارونيون، والمسلمون، الذين انقسموا بدورهم إلى سنة وشيعة، ومجموعة من الأقليات من الدروز. الجدير بالذكر أن المسلمين بشكل عام كانوا متعاطفين مع الوحدة مع "سوريا". وفي 1943، تم عقد اتفاق سياسي هام وغير مكتوب، يُدعى "الاتفاق القومي"، بين قادة المسيحيين والمسلمين. ساعد الاتفاق على وجود تقسيم دائم للغنائم السياسية بين المسيحيين، الذين تسلموا الرئاسة بشكل دائم، والمسلمين، الذين تسلموا رئاسة الوزراء. مع وجود 6 مسيحيين إلى 5 مسلمين في البرلمان. كما وافق المسيحيون على اعتبار "لبنان" دولة عربية.

حتي عام 1970 ظل "لبنان" المركز المالي للشرق الأوسط، وبدا مؤهلًا ليكون أكثر الدول العربية نجاحًا، ومع هذا وتحت السطح الظاهر من الهدوء والازدهار، وُجدت توترات مجتمعية هائلة. حيث وجد "لبنان" نفسه عالقًا في

النزاع الداخلي العربي لعام 1950، وفي الصراع الإسرائيلي - الفلسطيني، والأعداد الهائلة من اللاجئين الفلسطينيين، وأيضًا الصراع العالمي بين الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفييتي. استمر الاتفاق القومي حتى أواخر الخمسينيات حينما تسبب التوتر الناجم عن الصراعات العربية الداخلية، ومشكلات اللاجئين المتنامية للمجتمع المنقسم، في اندلاع حرب أهلية قصيرة. ومن أواخر الستينيّات، تسببت هجمات الفدائيين الفلسطينيين، التي يشنونها من داخل "لبنان" على إسرائيل، في رد عنيف من إسرائيل، والتي أدت بدورها إلى زعزعة العلاقات بين المسلمين والمسيحيين. وفي عام 1975، اندلع عراك واسع المجال بين المسيحيين والفلسطينيين، حيث اتسع ليصبح حربًا أهلية بين المسيحيين والمسلمين، استمرت لمدة 15 عامًا.

تدخّل الرئيس "حافظ الأسد" عسكريًا في "لبنان" بشكل ثابت منذ عام 1975 حتى نهاية الحرب الأهلية عام 1990[304]. ورغم الهزيمة الكبرى على يد إسرائيل في جنوب "لبنان" عام 1982، استطاع الأسد بشكل ناجح استغلال الميليشيا الشيعية وخاصة حزب الله لإجبار إسرائيل على الانسحاب، وإهانة القوة العسكرية التابعة للولايات المتحدة وفي النهاية القضاء على الفصائل المعارضة للمسيحيين السوريين. نهاية الحرب في عام 1990رسخت الوجود السوري في "لبنان". بدأ "لبنان" في الوقوف على قدميه ببطء، بسبب ردود الأفعال الإسرائيلية العسكرية الشرسة على هجمات الفدائيين جنوب إسرائيل. وهكذا، فإن انسحاب القوات الإسرائيلية عام 2000 وعد بالسلام، ولكن في عام 2006، كانت هناك حرب شرسة وغير حاسمة بين إسرائيل وحزب الله.

---

(304) 2o7r.AFssad's career and the Lebanon see Patrick Seale and Maureen McConville, Assad of Syria: The Struggle for the Middle East (University of California Press, Berkeley: 1989).

الخاتمة

يشتكي "مالكولم ياب"، أحدُ المؤرخين الرواد لشؤون الشرق الأوسط المعاصر، من "أن تاريخ الشرق الأدنى المعاصر غالبًا ما دُوِّن كما لو كانت الدول طافية فوق سطح بحر من الشؤون العالمية، ومصائرها تتشكل بقرارات الآخرين"[305]. من المؤكد أن العديد من المؤرخين، وأيضًا الشعوب الأصلية في المنطقة، يؤمنون بفكرة أن الشرق الأوسط عبارة عن ملعب للقوى العظمى. لذلك، فهناك ميلٌ لإهمال فكرة التأثيرات المصيرية، مثل الديموجرافيات المتغيرة، والمعارك ضمن النخبة والعديد من العوامل الاقتصادية. ومع هذا، فإنه من السهل أن ندرك كيف أن التسوية في أعقاب الحرب العالمية الأولى، يعتبرها العديد من المؤرخين والقوميين العرب، على أنها أمر فرضته القوى الخارجية. وعلاوة على هذا، ومنذ تأسيس الحدود أو ترسيمها في الفترة ما بين 1919 وحتى 1925، حافظ الانتداب على بقائه بطريقة غريبة، ومن المنطقي أن العديد من النقاد القوميين العرب اعتبروا نظام الدول التي نشأت تحت سيطرة الانتداب اصطناعيًا وغريبًا. ومع هذا، فهناك رؤية معاكسة تشير لحقيقة أن هناك قوى محلية في الشرق الأوسط، كانت دائمًا ما تميل إلى الاستعانة بقوى خارجية. وهنا تظهر أهمية الهاشميين. حيث يعتبرهم المراقبون ومنتقدوهم، انتهازيين، ولا يملكون أدنى شعور بالانتماء للقوميين العرب. وعلى الرغم من

(305) Yapp, The Near East since the First World War, p 3.

هذا، فهم تمتعوا بقدرة هائلة على استغلال أحداث الحرب العالمية الأولى لمصالحهم الشخصية، والتي تناغمت مع القضية القومية العربية. كما أنهم لم يكونوا الوحيدين الذين قاموا بهذا، حيث فعلت "تشيكوسلوفاكيا"، و"أيرلندا"، و"بولندا"، مثلهم، أي استغلوا الحرب لتحقيق مصالحهم. ربما كانت تلك الدول لديها حس قومي أكثر تعقيدًا من الهاشميين، إلا أنه لا توجد الكثير من الأدلة التي تثبت أن هؤلاء القوميين كانوا لينجحوا من دون النتائج التي ترتبت على الحرب العالمية الأولى. وحتى وإن لم يكن الهاشميون قوميين معقدين في نظر البريطانيين، إلا إنهم كانوا عاملًا هامًا في تشكيل أسطورة القومية العربية. وعبارة "الأسطورة المؤسسة" ليست تحقيرية، فكل الأمم تأسست بشكل أو بآخر بفضل أسطورة ما. لكن، يبدو أن ظهور تيّار القومية العربية في أول 25 عامًا من القرن العشرين أكثر عرضة للاستناد إلى الأسطورة لأنه تيّارٌ حديثٌ نسبيًا، وموثّقٌ بتفاصيل أكثر. ذلك التوثيق الهائل كتبه أجانب، بعضهم كان متعاطفًا مع القضية العربية، وأكثرهم لم يكونوا كذلك. من الصعب ان تجد صوتًا عربيًا أصليًا بين هؤلاء المؤرخين.

الانتقاد الموجّه إلى التسوية السلمية في الشرق الأوسط، يرتكز أساسًا على فكرة منعها قيام أمة عربية قادرة على الوقوف وحدها عالميًا. فلو كان قد تم السماح بوجود دولة تستوعب كل المناطق العربية من الشرق الأوسط و"مصر"، في ظل حكم الأسرة الهاشمية أو تحت قيادتها، فإن تلك الدولة كانت لتكون ذات قوة وتأثير هائل. من الناحية الجغرافية، كانت لتكون ثاني أكبر دولة بعد "روسيا". وكانت لتملك أكبر كثافة سكانية بعد الصين بحلول نهاية القرن العشرين. وقرابة ثلثي احتياطي النفط في العالم ضمن حدودها، والمال الناتج من إنتاج النفط، كان سيسهل الانتقال بين الأقاليم الثرية في النفط والأقاليم الفقيرة في النفط، مع توفير

رأس مال كافٍ لتطوير تلك المناطق الفقيرة اقتصاديًا. مثلما علق أحد المعلقين: "من السهل أن تتخيَّل لماذا أرِّق هذا الحلم منام القوميين العرب"[306].

حجة القوميين العرب بأن القوّات الأجنبية منعت وجود وحدة عربية تم إجهاضها، لأن وجهة النظر المقترحة تقول إن الشرق الأوسط لو تُرك وشأنه في أعقاب انهيار الإمبراطورية العثمانية، كان سينهار بسبب الانقسامات القبلية والعرقية، كما أنه لم يكن أي فصيل ليتمكن من تأسيس وحدة عربية. كما أن الصراع بين "عبد العزيز آل سعود" و"حسين" على السيادة في شبه الجزيرة العربية، والتي استمرت من دون تدخل كبير من طرف القوات الأجنبية، اقترح أن فترة من القتال المستعر كانت ستتبعها حرب في الشرق الأوسط بأكمله، في حالة تُرِكَ العرب لحالهم.

كيف يمكن للتاريخ أن يحكم على الأسرة الهاشمية؟ كان واضحًا أنهم انتهازيون ناجحون. كما أنه لا يوجد مجال للشك في أنهم لم يحصلوا على ما وعدهم البريطانيون بالحصول عليه. ومع هذا، فالحصول على مملكتين لم يكن بالشيء الناجح بالنسبة لأسرة لم يمتد نفوذها وقت اندلاع الحرب لما يتعدى حدود مكة. ربما استطاعوا تأمين مملكة ثالثة، لو أن "حسين" حافظ على تحالفه مع البريطانيين. أمَّا الممالك الهاشمية التي ظهرت في "العراق" وإمارة "شرق الأردن"، فقد حكمها الهاشميون بشكل فعَّال. سيكون من غير المنصف تاريخيًا أن نقول بأن الهاشميين كانوا ديمقراطيين، أو أنهم حاولوا، ولو بقدر ضئيل، على وضع حدٍ

(306) A Drysdale and G Blake, The Middle East and North Africa: A Political Geography (Oxford University Press, Oxford: 1985) p2 25 cited in Ian S Lustick (1997), 'The Absence of Middle Eastern Great Powers: Political "Backwardness" in Historical Perspective', International Organization 51:4 (Autumn 1997) pp 653–83.

للظلم الاجتماعي في الدول التي حكموها، كما كان حكمهم في إمارة "شرق الأردن" ضعيفًا وفقيرًا ويائسًا. "عبد الله" وحفيده "حسين"، والملك "حسين"، حافظوا على هذا الإرث دون اللجوء للعنف، في وقت وقعت فيه البلدان الأخرى في فخ القومية العربية العلمانية التي ظهرت في الدول المحيطة، والتي زعمت أنها تمثل الإرادة الشعبية. في "العراق"، نرى الأسرة الهاشمية التي حكمت رسميًا من عام 1921 إلى عام 1958، لم تتمتع بحظ وفير؛ لأن "فيصل" مات صغيرًا عام 1933، وخلفاؤه لم يكونوا صالحين لتسلُّم السلطة من بعده. ونتيجة لهذا، كانت هناك حالة من عدم الاستقرار السياسي في "العراق" من تلك اللحظة فصاعدًا. وحتى حينها، إذا اقترحنا أن "العراق" كان ديموقراطية فاعلة، لا يمكننا قول الشيء نفسه عن الديموقراطية الدستورية، التي لم يكن لها وجود فعلي، "العراق" كان عبارة عن نعيمٍ من حرية التعبير مقارنة لما حدث بعد سقوط الملكية عام 1958، حيث بدأت الجهود لتطوير الاقتصاد مع تدفق عوائد النفط. الصعوبة التي واجهها الهاشميون في "العراق" كانت أنهم من السنة في بلد أغلبها من الشيعة، فكان من الصعب وجود قلة حاكمة دائمة في الحكم. بالطبع زادت الأمور سوءًا مع ورثتهم من الجمهوريين.

أمَّا بالنسبة للحكومات الإنجليزية والفرنسية فلم تكن حالتهم أحسن بعد التسوية السلمية في الشرق الأوسط. حيث تسببت الاتفاقيات والقرارات التي تم أخذها بدءًا من اتفاقية "سايكس بيكو" عام 1916، ووصولًا لنظام الانتداب المعلن في مؤتمر "سان ريمو"، في تنفيذ الكثير من مصالح القوى العظمى على حساب العرب. كان حال "فرنسا" هو الأسوأ. فحكمهما في "سوريا" عام 1920، اتسم بحالة من عدم الاهتمام برغبات السكان، ومع الحل الشريفي- رغم عدم مثاليته - فإن البريطانيين أوضحوا قدرة على تطوير سياسات سمحت على الأقل بالنمو السياسي والتطوير. تلك السياسات ظهرت من الحاجة لاستقطاع النفقات

العسكرية في الشرق الأوسط، لكنها مع هذا لم تسمح بدرجة معقولة من الاستقلال، والتي ظهرت في "العراق" خلال عقد من الزمن، ومع هذا، فإن القواعد البريطانية والنفوذ الإنجليزي بموجب تلك المعاهدات قد ظل باقيًا. ذلك النفوذ البريطاني العسكري والسياسي المستمر ساعد على إبقاء الشرق الأوسط بعيدًا عن الحرب العالمية الثانية. فالبريطانيون وحلفاؤهم من الشرق الأوسط استطاعوا استغلال تلك المنطقة كقاعدة شن حملات أسهمت في انتصار الحلفاء. ووجود تلك القواعد في "العراق"، وخاصة في "مصر"، شكّل مصدرًا للتوتر بين القوميين العرب وبريطانيا في فترة ما بعد الحرب. المشكلات البريطانية الأساسية في الشرق الأوسط تمركزت في "فلسطين"، لأن وعد "بلفور" الذي اقترح إنشاء وطن قومي لليهود في "فلسطين"، تسبب في إغضاب العرب، وخاصة القوميين العرب؛ حيث تسبب هذا الوعد في مشكلات لا تزال مستمرة حتى الآن.

من المعروف أن مؤتمر السلام في "باريس" والمعاهدات الناتجة عنه، أثبتت فشلها، كما لم تنجح في التوصل لهدفها الأول الممثل في إزالة أسباب الحرب، وبسبب الحلول التي طرحها صناع السلام، وسياسة التعويض، وحق تقرير المصير، وسياسة نزع السلاح، والانتداب وعصبة الأمم، كل هذه القرارات إما أنها كانت خاطئة أو لم يتم تنفيذها بشكل صحيح، مع الأخذ في الاعتبار الكوارث التي نتجت عن التسوية السلمية والفشل في احتواء "ألمانيا" وإنشاء الدول الفاشلة مثل "يوغسلافيا" والميلاد التعس للشرق الأوسط الجديد، كل هذا جعل من الصعب علينا تحديد سبب واحد للفشل، ومع هذا، فإن "ألمانيا"، وإلى حدٍ ما، "يوغسلافيا" وقضيتها التي تم حلها بعد الحروب الهائلة، واستمرار أزمة الشرق الأوسط، هم دليل كبير على الإرث الطويل والمستمر لكل الذي لم ينجح مؤتمر السلام في تحقيقه.


المكتبة الإلكترونية العراقية

الفهرس

صدر في سلسلة #كتب_مختلفة:

كتب عامّة مترجمة:

1. هاربون من الموت	فولفجانج باور	ألمانيا
2. قانون التسامح	هوبرتس هوفمان	ألمانيا
3. الرجل والمرأة أيهما الجنس الأضعف؟	جيرالد هوتر	ألمانيا
4. الهاشميون وحلم العرب	روبرت ماكنمارا	إنجلترا
5. الصراع الطبقي في أفريقيا	ليو زيليج	أمريكا
6. الهندي الأحمر الأيسلندي	جون جنار	أيسلندا
7. يوميات صحفية إيطالية	جوفانا لوكاتيلي	إيطاليا
8. قوة المستضعفين	فاتسلاف هافل	التشيك
9. أوروبيانا	باتريك أورشادنيك	التشيك
10. الثورة التشيكية	مجموعة مؤلفين	التشيك
11. ذكريات الصين	تشين يو	الصين
12. جابو	أوسكار بانتوخا	كولومبيا
13. الجري	ثور جوتاس	النرويج
14. عقول مريضة	دوي درايسما	هولندا

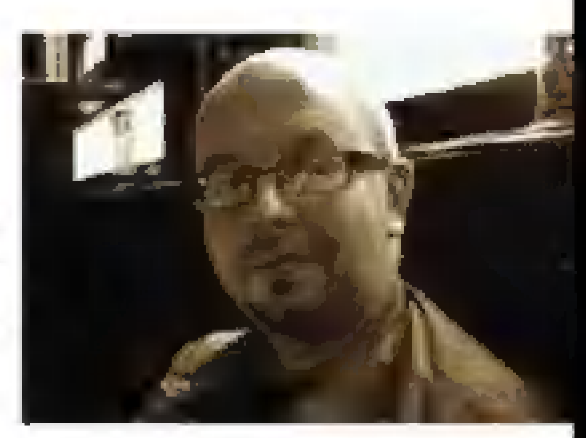


#كتب_مختلفة # إنجلترا

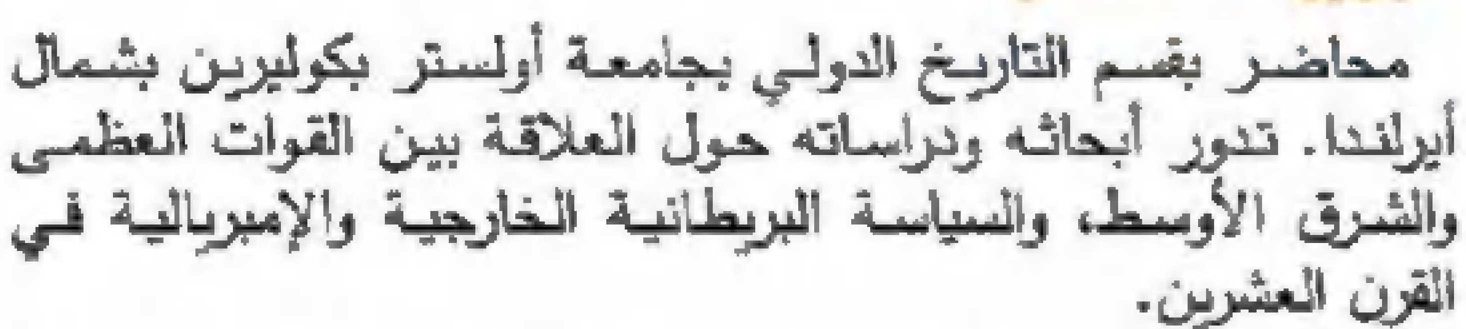
قصة الثورة العربية والأمير الهاشمي الذي قادها خلال الحرب العالمية الأولى متصلة في أذهان الجميع في عصرنا هذا بأسطورة لورنس العرب التي رأيناها جميعًا في الفيلم الذي أخرجه ديفيد لين عام ١٩٦٢. لكن، خلف هذا التصوير الرومانسي توجد حقيقة قاسية توافق الحرب، والطموح الذي صاحبها، والمعايير المزدوجة التي انتهجها الجميع، كل هذا ساعد على تشكيل الشرق الأوسط الحديث ووضع حجر الأساس لكل الصراعات التي تعاني منها المنطقة حتى الآن.

يدّعي القوميون العرب أن التشجيع البريطاني للثورة العربية ضد الإمبراطورية العثمانية كان اعترافًا من بريطانيا بحق العرب في الاستقلال، ولكن في هذا الكتاب، يكشف لنا روبرت ماكنمارا كيف قام البريطانيون بتحضير شرفاء مكة الهاشميون خلال الحرب العالمية الأولى لكي يصبحوا البديل الأمثل للسلطان العثماني، والذي مارس دوره كخليفة وأعلن الجهاد ضد قوات الحلفاء عندما انضمت القوات التركية إلى دول المركز. كان الهدف هو تحويل شريف مكة من مجرد قائد لجزيرة عربية متحدة ومستقلة إلى قائد للشرق الأوسط، أي بديلًا للسلطان العثماني.

في الوقت نفسه، تسببت اتفاقية سايكس بيكو في تقسيم الشرق الأوسط بين بريطانيا وفرنسا، فتسبب الشعور بالخيانة الذي انتاب العرب، وخصوصًا بعد وعد بلفور بتغيير نظرة القوميين العرب للغرب من وقتها.



روبرت ماكنمارا



محاضر بقسم التاريخ الدولي بجامعة أولستر بكوليرين بشمال أيرلندا. تدور أبحاثه ودراساته حول العلاقة بين القوات العظمى والشرق الأوسط، والسياسة البريطانية الخارجية والإمبريالية في القرن العشرين.

من كتبه: كتاب "بريطانيا، وناصر واتزان القوة في الشرق الأوسط: من الثورة المصرية وحتى حرب الستة أيام"، نُشر الكتاب عام ٢٠٠٣.



٤٩ شارع القصر العيني ١١٤٥١ ، القاهرة
ت: 27954529 - 27921943 فاكس: 27947566
www.alarabipublishing.com.eg



ISBN 978-977-319-307-2
9 789773 193072 >





www.alarabipublishing.com.eg

تصميم الغلاف : خالد خريف